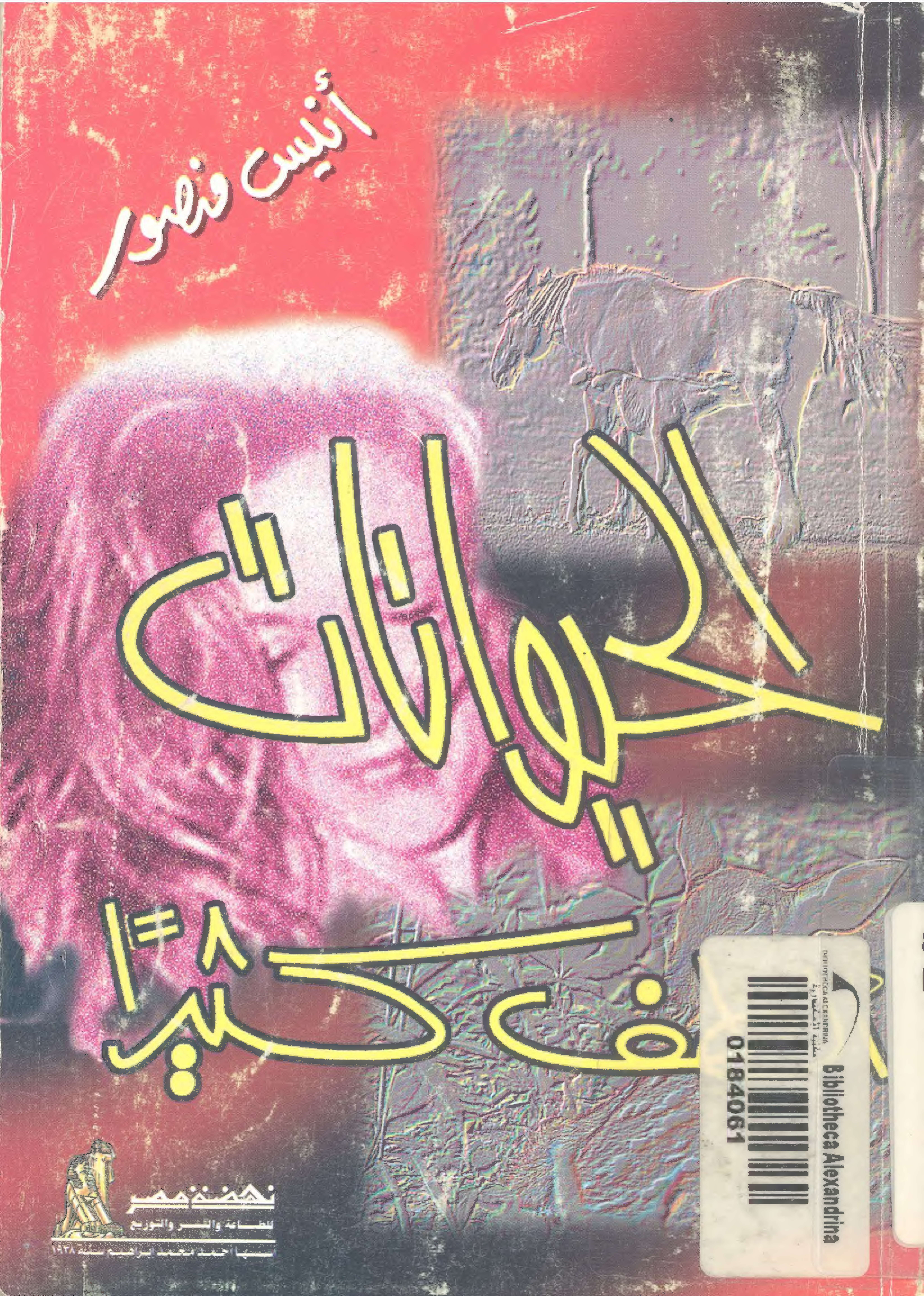
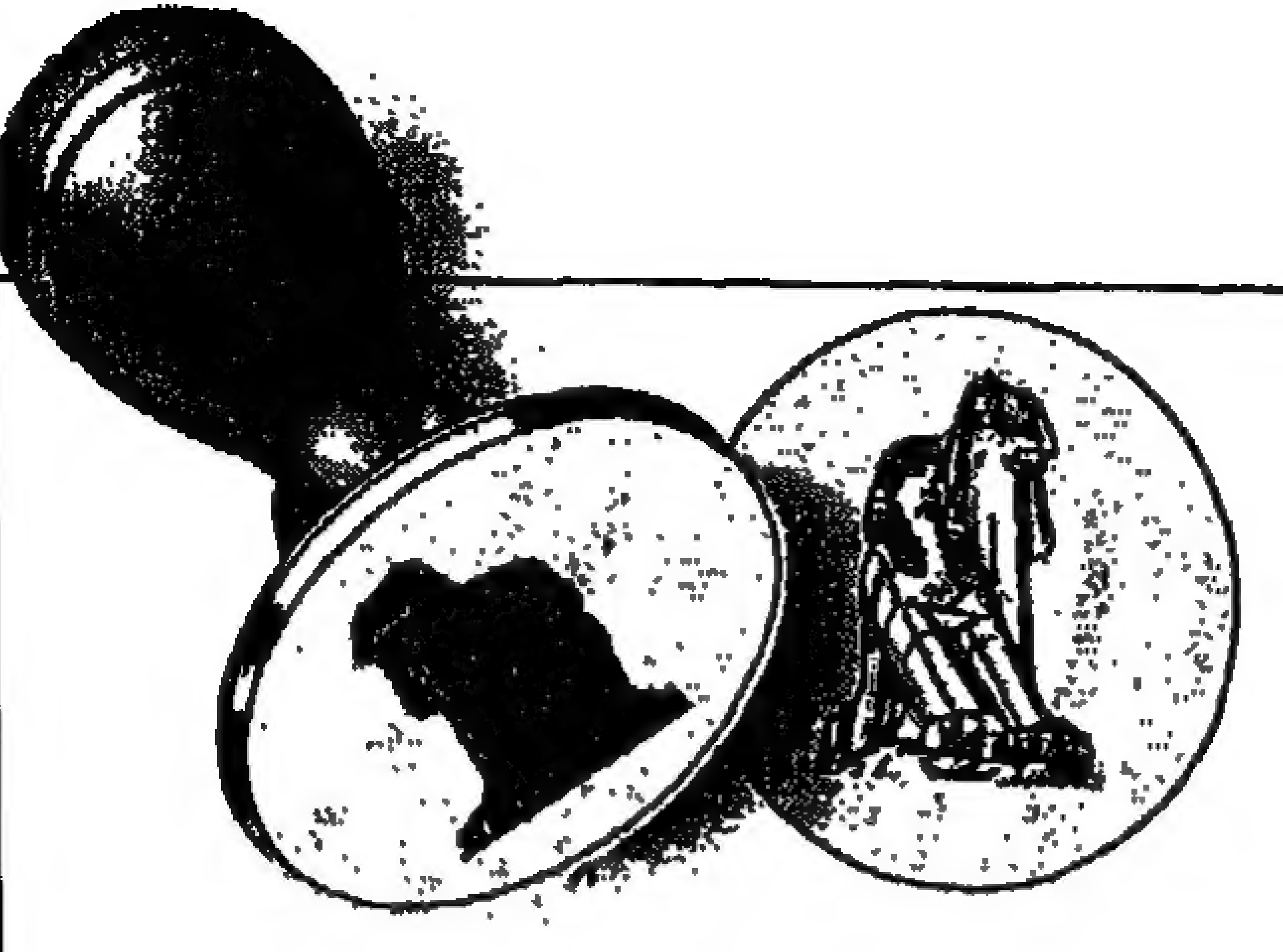

أنيس منصور
الحيوانات
كتير!
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

أنيس منصور



مقالات





اسم الكتاب:	الحيوانات ألطف كثيراً .
اسم المؤلف:	أنيس منصور .
إشراف عام:	داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر:	طبعة أولى يناير ١٩٩٧م . طبعة ثانية يونيه ١٩٩٨م . طبعة ثالثة إبريل ٢٠٠٠م .
رقم الإيداع:	٧٧٦١ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى:	I . S . B . N. 977 - 14 - 1287 - 6
الناشر:	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى:	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع:	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ . فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر:	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ . فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

كلمة أولى ..

قال لى السفير المصرى : يمكنك أن تأكل أى شىء الآن . . وبعد ذلك تتناول عشاءك معنا ، مادمت مصرا على الصيام . . واسترحت إلى هذا الحل . فلم أجد سببا قويا يمنعنى من الصيام مادمت قادرا . ولم أرى غروب الشمس ولم أسمع أذاناً من أى مسجد . فمسجد طوكيو بعيد جدا . ولا أعرف ما الذى يفعلونه هنا فى رمضان . وإن كنت أتمنى أن أرى وأشارك وأعرف وأكتب بعد ذلك . وحسبت فرق التوقيت بيننا وبين القاهرة فوجدته سبع ساعات . . وسألت عن غروب الشمس . . فوجدت أن أمامى نصف ساعة . وجلست أفكر فى الطعام والشراب . أما الشراب فأعرفه تماما . إنه كوب شاى ساخن . وفتحت الثلاجة الصغيرة فوجدت بها مشروبات كثيرة وبعض الشيكولاتة والبسكويت . ومددت يدى إلى التليفون أطلب أى سندوتشات جبنة . ودار الحوار بينى وبين الجرسونة . . هى تسأل : تريد سندوتشات ؟

- نعم .
- كم عددها ؟

وتذكرت أننى فى اليابان فكل شىء عندهم صغير . فإذا قلت لها : سندوتشات فسوف يكون فى حجم علبة السجائر . . وإذا طلبت منها سندوتشا كبيرا ، فسوف يجىء فى حجم الكف وأنا ميت من الجوع . . فقلت لها : أكبر سندوتش عندك . . واحد . . اثنين . . ثلاثة . .

- يعنى كم ؟
- يعنى ثلاثة سندوتشات كبيرة محشوة بالجبن . . كثير من الجبن . .
- هل عندك طماطم .
- طازة؟ . . مطبوخة ؟
- طازة . . كم واحدة .
- هل هى صغيرة أو كبيرة ؟
- صغيرة .
- خمس حبات .
- هل عندك ليمون ؟
- زجاجة ؟ ـ لا . .
- عصير ليمون طازة .
- لا أفهم . .
- مش مهم . . مش عاوز ليمون هذا يكفى . شكرا . وطلبتنى تسألنى : هل أريد السندوتشات ؟
- نعم .
- ولكنك شكرتنى من دون أن أعرف . .
- شكرتك طبعا . . فماذا فهمت أنت ؟
- ظننت أنك شكرتنى على الحديث معك ومحاولة التفاهم . .
- يا ستى هات أى حاجة فى عرضك أنا صايم .

- ماذا تقول ؟

- لم أقل أى شىء . . أريد السندوتشات بسرعة . .

- بسرعة يعنى بعد كم من الوقت .

- كم تحتاجين من الوقت ؟

- ساعة !

- يا نهار أسود . هات السندوتشات من غير جبنة . أو هات الجبنة من غير سندوتش . . ممكن ؟

- لم أفهم . .

- أين أنت ؟

- فى المطعم .

- وأين هذا المطعم .

- فى الغرفة ١١٣٧٠

- وأين هذه ؟

- فى الدور الحادى عشر . .

- وكيف أصل إليك . .

قالت : أن آخذ الأسانسير إلى الدور الخامس . . واتجه إلى اليمين ، ثم آخذ الأسانسير إلى الدور الثامن . . ثم اتجه إلى اليسار ، وآخذ الأسانسير إلى الدور الحادى عشر . . وسوف أجدها فى انتظارى . .

سألتها : وكم أحتاج من الوقت لكى أصل إليك ؟ . .

- نصف ساعة !

وسألتها : لو أنت جئت فكم تحتاجين من الوقت ؟

قالت : ساعة تقريبا . فصرخت : لماذا وأنت تعرفين الطريق أكثر منى - نعم . . ولكن لابد أن أسجل كل ذلك فى الأوراق ثم إن هذا النوع من السندوتشات ليس موجودا هنا . . يجب أن أذهب إلى الفرن . .

- لماذا ؟ لأننا نتناول هذه الكميات الكبيرة من الطعام . . إنها تكفى لعشرة من اليابانيين وأولادهم !

- يابنتى أنا جائع جدا . . هات لى سندوتشا واحدا . كم تحتاجين من الوقت .

- ساعتين ؟

- لماذا ؟

- لأننى يجب أن أذهب إلى الفرن وألغى طلباتك كلها . . وأكتب اعترافاً رسميا بأنها غلطتى . . وأنا اللى فهمتك خطأ . . وأكتب أنا مستعدة لأن أدفع ثمن هذه السندوتشات . فهى غلطتى .

- وإذا عدلت عن هذه السندوتشات . وقررت أن أدفع هذه الغرامة نيابة عنك . .

- هذا مستحيل . أنا غلطانة ويجب أن ألقى جزائى !

- وأنت ما ذنبك ؟

- أنا فهمت غلط . وقد طلبت منى الإدارة من ستة شهور أن أتقن اللغة الإنجليزية . فكذبت عليها وقلت إننى أتقنها !

– يمكن أنا اللى لغتى الإنجليزية ضعيفة . ولذلك أنتِ لم تفهمينى !

– الزبون على حق دايما يا سيدى ! وأرجوك ألا تفعل شيئا من أجلى حتى لا يساء فهمى . وحتى لاتظن الإدارة أننى رجوتك أن تفعل ذلك .

– ولكنك لم تطلبى منى شيئا ؟

– أنا فقط التى تعرف ذلك .

– وإذا فعلت ؟

– فسوف يلقون ملابسى من النافذة .

– فى اليابان يفعلون ذلك ؟

– ولكنى لست يابانية !

– . . . .

وانسدت نفسى وضرب المدفع فى القاهرة وتوالى صوت الأذان فى كل الدول الإسلامية . . وأكلوا وشربوا وناموا وقاموا يستعدون لتناول السحور . . وأنا لم أذق لقمة واحدة ، ولا فى نيتى أن أفعل ذلك بعد الذى حدث !

وفى حياتى حكايات أخرى أعجب وأغرب

أنيس منصور

كذب المنجمون !!

لم أكن أعرف قارئ الطالع الإيطالى فردى . . ولكن «نجيب محفوظ» هو الذى قال لى حكايته مع المنجم الإيطالى . . قال لى «نجيب محفوظ» إنه فكر فى يوم من الأيام أن ينتحر . لأسباب نفسية وعقلية . فذهب إلى مكان أنيق لكى يلقى بنفسه فى النيل . وكان ذلك فى الزمالك . وفى اللحظة التى بدأ يستعد لإلقاء نفسه فى النيل ، وهو مايزال تلميذا فى كلية الآداب قسم الفلسفة ، فوجئ بأحد أصدقائه يسأله : بتعمل إيه هنا يا «نجيب» . فقال : رأيت سمكة غريبة الشكل فى النيل .

ولم ينتحر «نجيب محفوظ» . واقترح عليه صديقه أن يذهبا معا إلى «فردى» ، الذى يعرف البخت والنصيب من مجرد النظر إلى كرة من الكريستال يضعها بينك وبينه . وكان «فردى» يتقاضى ٢٥ قرشا . دفعها الصديق . ثم دفعها «نجيب محفوظ» . ونظر إليه «فردى» وقال له : تلميذ ؟ قال له : نعم . .

ثم نظر إليه «فردى» وقال : إنت كنت عاوز تموت نفسك . . امش اطلع بره . . إنت حتكون أعظم واحد فى البلد دى . . امش اطلع بره وخد فلوسك !

كان ذلك من ستين عاما !

وعرفت فردى وصار من أعز أصدقائى . فهو إنسان طيب ، نصف مشلول .

وجلست إليه كثيرا وقال كثيرا . وكان كلامه مضبوطا . كيف ؟ لاأعرف .

فى يوم قال لى : أوه . . أوه . . أنت أمامك طريق طويل جدا جدا . . حول الكرة الأرضية . . مائة يوم . . ٢٠٠ يوم . . مش معقول ؟

ولم يكن قد خطر على بالى أننى سوف أقوم برحلة حول الكرة الأرضية . . وكانت رحلتى الأولى سنة ١٩٥٩ التى استغرقت ٢٢٨ يوما . . ثم جاءت رحلتى الثانية سنة ١٩٨٠ حول الأرض ولكنها استغرقت عشرين يوما . .

ومرة أخرى قال لى : اسمع يا أنيس أنت ستأخذ جائزة كبيرة من شخص لا تحبه ؟

وأخذتها من الرئيس «جمال عبد الناصر» سنة ١٩٦٣ . وفى يوم جاءنى صوت «فردى» باكيا : وانزعجت وسألته : مالك !

قال : (وهو يبكى ويتحدث بالإيطالية حتى لايفهمه الذين حوله) . . الحقنى . . مصيبة . . أنا لن أبقى فى هذا البلد دقيقة واحدة . .

- أين أنت ؟

- فى نقطة البوليس هنا . .

- لماذا ؟

- مش عارف تعال . .

- قل لى يا «فردى» بسرعة ؟

- انهم يتهمونى بإدارة بيتى للدعارة . . أنا الزاهد المشلول أنا الذى أعطى أموالى للفقراء . . لن أبقى فى هذا البلد دقيقة واحدة!

واتصلت بـ «ممدوح سالم» رئيس الوزراء . وكان يرحمه الله - رجلا لطيفا متحضرا ونظيفا . . نظيف اليد واللسان . وبعد دقائق اتصل بى «ممدوح سالم» وقال لى : تقدر تذهب إليه الآن وتأخذه معك . . ونحن آسفون جدا لما حدث . . بلّغه آسفى الشديد !

وذهبت إلى نقطة البوليس . وكان فردى فى حالة سيئة جدا . فماذا حدث ؟

لقد جاءته سيدة . وسألته إن كان زوجها على علاقة بامرأة أخرى . ونظر «فردى» - كما هى العادة - إلى الكرة الكريستال وإلى السيدة وقال لها : احنا مغفلين . . خالص . . إنت جوزك . . مش بيحب واحدة . . ده متجوز واحدة . . وعايشة فى نفس الشارع . . ومن سنة . . احنا مغفلين خالص !

يقصد أنها مغفلة . .

وكانت لهذه السيدة شكوك فى زوجها . وذهبت إلى البيت الذى تشك فى أن زوجها يتردد عليه . . ودقت الباب ففوجئت بزوجها مرتديا البيجاما وهو الذى فتح الباب . ولم يكد يراها حتى سحبها إلى داخل الشقة . وهات يا ضرب . . ويا ضرب حتى أسال دمها . . وفى مثل هذه الحالات فإن ضباط البوليس يعرفون كيف يوجعون ويسيلون الدماء . . وكان الرجل ضابطا فى الشرطة وسألها عن الذى دلها على البيت . فقالت له : إنه «فردى» !

فما كان من الزوج إلا أن اتهم الرجل بأنه يدير بيته للدعارة !!

وعاد «فردى» إلى بيته وابتلع بعض المهدئات ونام . وطلبته بالتليفون عدة مرات لأتكد أنه بخير . .

وفى الصباح الباكر طلبنى «فردى» ليقول لى : أرفردرتشى ؟ (إلى اللقاء) .

- إلى أين ؟

- إلى روما .

- وأين أنت الآن ؟

- فى المطار .

- كيف تسافر دون أن أراك . . متى تقوم الطائرة .

- بعد أربع ساعات . .

- ولماذا ذهبت هكذا مبكرا .

- أريد أن أشعر أننى خرجت من مصر (ويبكى) .

وذهبت إليه فى المطار . . وكان منظره أليما . وعيناه فى لون الدم . حزين على الخمسين عاما التى أمضاها فى مصر !

وكان وداعا مؤلما جدا . .

وبعد أسبوع جاءتنى برقية من إحدى قريباته . . أنه مات . وكان اسمى آخر الأسماء على لسانه يرحمه الله !

كيف كانوا يومها ؟!

أما الحزن فعام وشامل . . من يعرف الفقيد ومن لا يعرفه . . فقد رأيت على مسافة شبر وشبرين عددا كبيرا من رؤساء الدنيا ، جاءوا إلى قمة جبل هرتسل يودعون إسحاق رابين رجل الحرب والسلام . .

أما زميله وصديقه وغريمه شمعون بيريس ، فهو يحمل دماغا كبيرا ينوء ، وهو من أذكى وأبلغ زعماء إسرائيل . كلماته وخطبه هى الذكاء اللفظى واللغوى ، وهو أكثر تفاؤلا وإيمانا بالسلام من الجميع . .

أما رئيس الدولة «عيزرا فايتسمان» فقد تقدمت به السن بصورة مزعجة . فقد انحنى . وقد رأيته فى أوائل هذا العام ، عندما كنت ضمن الوفد السياحى الرسمى . ويخيل إلى أنه يكبر من عام إلى عام . . ولكنه من ألطف المتحدثين وأخفهم دما وأشجعهم أيضا .

أما الملك حسين فأكثر شحوبا مما رأيته بأيام فى قمة عمان وواضح الحزن . . أما زوجته الجميلة الملكة نور ، فقد التفت هالات بنية قاتمة حول عينيها . . لقد بكت كثيرا . فهى صديقه لأرملة رابين . .

أما الفتى الحليوة وسيد الكرة الأرضية والكواكب الأخرى كلينتون . . فهو الشاب الطويل الرشيق . . وقد كان واضح الحزن ، وجاءت كلمته تحفة أدبية دينية . . أما زوجته هيلارى ببرنيطتها

السوداء فقد كان وجهها من غير مكياج وكانت حزينة والدموع فى عينيها معظم الوقت .

والمستشار الألمانى كول طويل جدا عريض جدا . . نموذج للتغذية الجيدة . وقد أصدر كول وزوجته كتابا عن الطهى منذ شهور . . وفى أول الكتاب يقول : أحب الأكل . ولا أعرف لماذا يضيق الشعب الألمانى بأننى بدين . . إن الألمان اختارونى لفكرى وليس لمعدتى . .

وظهر كول على التليفزيون يروج لهذا الكتاب ، واستخرج من جيبه بعض الشيكولاتة ليؤكد حبه لكل ما هو حلو !

وككل الألمان ليس واضحا عليه التأثر . .

أما المستشار هلموت شميت الذى مشى فى جنازة السادات ، فلم أر فى حياتى رجلا يبكى مثله . . اللهم إلا ممدوح سالم رئيس وزراء مصر . . لقد خرج شميت من الجنازة ودخل العناية المركزة فى ألمانيا .

والرئيس جون ماجور رئيس وزراء بريطانيا . . طويل . . تماما كما فى الصور ولا أعرف ما الذى يضحكه كثيرا . . وإلى جواره الأمير تشارلز ولى العهد . . وهو صورة لشاب رياضى رشيق . . ولكنه رجل مهزوم مفضوح وكانت فى يده كأس بها ماء ، فالدنيا شديدة الحرارة . .

ورأيت رئيسة وزراء تركيا دكتورة تانسو تشيلر ، مليانة وأجمل من الصور ، وفيها حيوية وفيها ذكاء يبرق فى عينيها . . ومتوسطة القامة . وليست طويلة كما تبدو على الشاشة .

أما صديقى د . بطرس غالى سكرتير الأمم المتحدة فقد كان مرهقا تماما . فقد قال لى أخيرا إنه يعمل من التاسعة صباحا حتى النوم . . وإنه غرقان فى مشاكل لا أول لها ولا آخر . . والناس يشتمونه فى كل مكان ، ظنا منهم أنه قادر على كل شىء . .

وكان واضح الحزن والأسى على وفاة إسحاق رابين . .

والرئيس الفرنسى شيراك ممشوق القوام واضح الحيوية حاضر البديهة . . يلتفت بكل جسمه إلى كل من يحدثه . . والحزن واضح عليه تماما . .

أما السيدة ليا أرملة إسحاق رابين ، فأنا أعرفها . وقد زرت رابين فى بيته . . وهى شقة من ثلاث غرف يجلس أمامها حارس ، وأمامه مروحة ومصباح لكى يقرأ الصحف . . وكانت السيدة ليا هى التى تقدم القهوة وعصير الليمون ، وزوجها لايتوقف عن الكلام . . وهى أشجع امرأة فى إسرائيل . لقد روت عذابها الذى لن ينتهى فقد عاش زواجهما ٤٣ سنة ، وفجأة لم تجده يجلس قبالها ولن يجلس . . ولن يرد على سؤال لها حتى تموت . . وهى أشجع امرأة تشير بأصابعها إلي الذين قتلوا زوجها . ليس الشاب الذى اغتاله ، وإنما المعارضة التى اتهمت زوجها بالخيانة . . حتى قفز من بين الناس شاب أطلق عليه ثلاث رصاصات . . فهذا الشاب قد امتلأ كراهية انطلقت رصاصاً على رجل يحلم بالسلام بعد الحروب الدموية فى الشرق الأوسط . لقد عاش سياسيا ومات جنديا . .

ولن يكون موت جنود السلام ، مثل السادات ورابين وقبل ذلك كيندى وإبراهام لنكولن ، هو نهاية الطريق ، بل إحدى محطاته الحزينة . .

مسموح اللمس!

من مظاهر المودة أن تلمس أحدا . . إذا كان بعيدا فأنت تحاول ، أن تقترب وتقترب حتى تلمسه . هذا الاتصال البسيط دليل على أن صلة ما قد تولدت . . أو أنها هى البداية . . وأوضح صورة لذلك عند الأطفال . فكل شىء يريدون أن يلمسوه . . أو يضعوه فى أفواههم . وتبدأ تربية الطفل من هذه اللحظة . . فيقال له : هذا لاتلمسه . . وهذا لاتمسكه . . وهذا لاتضعه فى فمك . . هذا عيب . . هذا حرام . . هذا ضار . . هذا ليس لك !

ومعنى ذلك أننا نلمس فقط ، ما هو لنا أو حق لنا ، أو ليس ضارا أو حراما . .

ومن المناظر المألوفة فى كل الدنيا ، أن نجد الجماهير تمد يدها ، إلى الشخصيات العظيمة تحاول أن تلمسها . . أو تصافحها . . وتكون المصافحة دليلا على المودة أو على الحب . . أو إلغاء الفارق الكبير ، بين الملك ، والرئيس ، والأمير ، والعظيم ، وبين الناس . ويكون الناس سعداء لأنهم فعلوا ذلك . ويكون العظماء سعداء أيضاً ، لأنهم أحسوا بقربهم من الناس . . أو حرص الناس على ذلك . .

وفى بلاد كثيرة نجد الأقليات منبوذة . . حرام أن يلمسها أو تلمس هى أحدا أو شيئا . وفى بلاد الهند نجد طبقة لايمسها الناس ولاتمس الناس . . وكذلك كانت الأقلية فى كل التاريخ ـ اليهود مثلا . .

وعلاقتك بالناس تتحدد باللمس أو المصافحة أو العناق . . فالذى لاتعرفه تصافحه . . والذى تعرفه طويلا وعميقا تصافحه وتعانقه . . فعلى قدر مساحة اللمس ، وطولها الزمنى ، وعمقها تكون العلاقة ، والمودة ، والصداقة ، والمحبة ، والاحترام ، أو الاحتقار والنفور . .

والعظماء عادة بعيدون عن الناس . . أو حتى إذا كانوا قريبين ، فهم على مرأى ومسمع ، ولكن ليسوا فى متناول الأيدى والأحضان . وإذا حدث فأحيانا قليلة . .

ولذلك فالزعماء - على عكس ما يتصور الحراس - يحبون أن يكونوا بين الناس وأن يلتحموا بهم . . أن يلمسوهم ويلتصقوا بهم ويعانقوا الناس ويعانقهم الناس . . وهذا يؤكد حب الناس وحبهم للناس . . ثم يسبب لهم ما هو أهم من ذلك كله ، وهو شعورهم بالأمان . . وأنه لا خوف عليهم من أحد . . فهم فى حصن حصين من حب الناس لهم . .

وكان الزعيم النازى «هتلر» ، يعانق ويقبل الأطفال الصغار . ويجد متعة كبرى فى أن يبدو أباً رحيماً عطوفاً . ولا أحد يقاوم حب طفل أو العطف عليه . . وفى ذلك ما يهز قلب الأم والأب وكل الأمهات . .

والرئيس الروسى «يلتسين» يجد متعة ، فى أن يضغط على أجسام وأكتاف ، الذين يقابلهم وأحيانا كثيرة (يقرصهم) . . أى يرفع الكلفة بينه وبينهم ، لدرجة أنه يتصرف كما لو كان صديقا أو زميلاً أو أخاً . . ويفعل ذلك مع النساء ، وهو يضحك وهن يضحكن أيضا . .

أمـا الرئيس «حـسنى مـبـارك» فـهـو أبسط وأطيب . . وهو فى اجتـمـاعـات الحـزب الوطنى ، يلتـحم بالناس ويتـوقف طويلا . . ويبدى ملاحظات بيديه ، بأن فلانا قد ظهر له كرش . . أو أن هذه البدلة أنيقة .

ويسأل : من أين لك هذا ؟

ولذلك فـمن المألوف أن ينادوا الرئيس «مبارك» قائلين : والله يا ريس إننى أحاول أن أنقص وزنى . .

رداً على ما سوف يقوله الرئيس ، من أن أحدا قد زاد وزنه ، من كثرة الأكل أو قلة الرياضة أو الجلوس والنوم طويلا . .

والمعنى : أن هذه المسافة ، التى بين الناس والزعيم بعيدة ، ولكن الزعيم نفسه هو الذى يلغيها ، ويقيم بسرعة جسور المودة والألفة والأخوة والأبوة . .

أما الرئيس «السادات» ، فكان يلمس الناس بالسؤال عنهم فى بيوتهم . . ففى مصر ألوف من الفنانين ، والمهندسين ، والأطباء ، كان يطلبهم «السادات» بالتليفون ، ويسأل عن صحة الأم والابن ، والزوجة . . ويكون الاتصال التليفونى أقوى وأعمق ، من الأحضان الحارة . .

وكان يسألنى مثلا : ما رأيك فى هذه الجاكتة . . حلوة . . إيه رأيك ؟!

ولم ألاحظ أنها لا جديدة ولا أنيقة ، فأقول له : جميلة ياريس . .

– مش كده برضه . . أو يقول : أنت ماقلتليش إيه رأيك فى الجزمة الجديدة دى ؟

وأنظر إليها وأقول : لم أستطع أن أرفع عينى عنها يا ريس طول الوقت . .

وينهض ويخطو عدة خطوات ، ويجلس سعيدا بهذا الإطراء . والحقيقة أننى لم أرها ، ولا لفتت نظرى . والسبب أننى لا أكاد أجلس إلى الرئيس «السادات» ، حتى يبدأ فى الحديث عن السياسة ، ما كان وما سيكون وإلى من يحب ، أن أذهب حاملا رسالة وعائدا بالرد عليها . .

ولكن سعادته فى هذا النوع من اللمس ـ لمسه للناس ولمس الناس له !

يضعون أصابعهم في الشمس

رأيت شاشة التليفزيون بيضاء . . وبعد ذلك رمادية . . ثم ظهر الوجه الأحمر من تحت الشعر الأبيض . . والعينان الزرقاوان والابتسامة العريضة الهادئة . مع هذه العبارة : أعظم يوم فى حياتى !

قالت المذيعة : وأكبر مبلغ تقاضيته طبعا فى حياتك هو قيمة الجائزة ٦٣٥ ألف جنيه استرلينى مرة واحدة !

ولكن الشاعر الأيرلندى الفائز بجائزة نوبل لهذا العام «شيموس هينى» ، قال : نحن الشعراء فقراء عادة . لانستطيع أن نكون أغنياء . اعتدنا على ذلك . . وأنا مدرس فى الجامعة وعندى أسرة وثلاثة أولاد . . وعندى متسع من الوقت لكل شىء . . إلا الفلوس وكيفية الحصول عليها !

وقال : لا أعرف ما هى حدود الفقر . ولا أعرف ما هى حدود الغنى . ولكن من المؤكد أننى أقرب إلى الفقر فهو صديق . وهو يعادل حريتى تماما . فأنا ألقى محاضرات عن البلاغة والشعر ، فى جامعة اكسفورد ، وفى جامعة هارفارد فى أمريكا . ولن أغير ذلك ، لمجرد أننى حصلت على مبلغ كبير من المال . وأنا خائف فقط من أن أكون مشهوراً يضايقنى الناس بالكاميرات . ولكن زوجتى تستطيع أن تحمينى منهم !

ولأنه أيرلندى كاثوليكى فهو ضد بريطانيا وقواتها . ولكنه لم يهاجم بريطانيا . وإنما هو يكره العنف ويكره القسوة .

ويقول فى إحدى قصائده :

يحاولون أن يضعوا أصابعى فى الشمس . . تحترق أصابعى وأقول آه . . وألعن المجرمين . . ولكن لماذا أضع أصابعى ، وأنسى أن الشمس تضيء بالعدل بين كل الناس ، من كل مذهب ، ومن كل دين ، ومن كل طبقة . . إننى شاعر أتغنى بالضياء ، وأركب الشعاع إلى أركان وأعماق الدنيا . . فلماذا يكون الشعاع سلاحا أبيض . . لماذا تكون الشمس بركانا للنار ، ولاتكون طوفانا للنور . .!

وفى قصيدة أخرى يقول :

هذه الشجرة . . هذه الزهرة . . هذه الفراشة . . هاتان الشفتان . . وابتسامة طفل . . وملامح السلام على الوجوه . وفى الدنيا حولنا . . هذا هو معبدى . . صنعه ربى الذى أومن به . . فكيف أقفز من فوق أسوار المعبد هارباً كافراً . إننى مؤمن بالله . . بما خلق . . بما أبدع . . بهذا السكون والأمان واليقين فى أعماقى . . فكل نظراتى صلوات ، وكل خفقات قلبى دعوات . .

كان الشاعر فى غرفة فى أثينا نائما . . أو يحاول أن يصحو . ولكن لم يجد سببا واضحا لأن ينهض من فراشه ، فهو لايعرف ما الذى يمكن عمله . . إنه فى إجازة وليس عنده شيء يستعجله . . فالشعر يجيء وحده فى الطريق أو فى أثناء النوم أو عند الاستحمام فى البحر . . فالشعر طيور تهبط على رأسه . . أو يتدفق من قلبه . . له مواعيده . .

ولايملك الشاعر إلا أن يتفرج على أصابعه ، وهى تضع الكلمات الأولى من القصيدة . . وليس له دور أو دخل فيما تفعله أصابعه . . إنها فى حالة استعداد دائم . . ولكن من الذى ، وما الذى يدفعها شعرا موسيقيا . يقول : لست أنا الذى أحدثك

الآن . . ولكنه واحد آخر فى أعماقى لاينام ولايصحو . . فهو فى حالة من اليقظة أو الوعى الدائم ، نيابة عنى أو بدلا منى !

ودق جرس التليفون وكان المتحدث ابن الشاعر «شيموس» : مبروك . فزت بجائزة نوبل هذا العام !

هنا فقط أحس الشاعر بضرورة أن ينهض ، وأن ينظر إلى وجهه فى المرآة . . ليرى كيف يكون الإنسان مختلفا ، عندما يفوز بالجائزة ، التى هى حلم البشرية وشرفها . لقد سجل ابتسامة على وجهه . وأحس أنه بعد ست سنوات قد فاز بها . . ثم تخيل أشكال وألوان زملائه الحاقدين عليه . . وأحس أن الجائزة قد صعقت كل هؤلاء . . وكومتهم بعضهم فوق بعض . . ثم أقامته تمثالا عاليا على جثثهم وغرورهم وحسدهم !

وقال لنفسه : فعلا أنا أستحق مكافأة سريعة .

فنزل إلى المطعم وطلب من الجرسون المندهش جدا : فنجان قهوة سوداء ، وقطعة سمك ، ووردة حمراء ، وموسيقى من بعيد . .

فالتفت الجرسون : عيد ميلادك يا سيدى . . كل سنة وأنت طيب . .

وقال الشاعر الأيرلندى «شيموس هينى» الفائز بجائزة نوبل لهذا العام : فعلا عيد لأسرتى . . وسوف تقرأ تفاصيل ذلك فى الصحف غدا !

أغنى وأتعس طفلة فى العالم

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان وليس بالحب وحده يعيش وليس بالمال وحده يعيش . . ولا بالصحة وحدها . . ولكن بها جميعا . ومن الصعب أن تتوفر كل هذه العناصر عند كل الناس . ولذلك فنحن فى عمرنا القصير نحاول المستحيل فنجمع المال إلى جانب الصحة إلى جانب الحب . ونظل نحاول العمر كله ونشغل بما نريد وننسى الذى عندنا . وأن الذى فى أيدينا من الممكن أن يجعلنا أسعد من الذين يملكون أكثر منا . وهذه نصيحة يضيق بها الناس . ولكن يدركون متأخرا جدا أنها صحيحة . نصيحة أن ترضى ، وأن تجد فى الذى تملكه مصدراً مؤكداً للسعادة . والشاطر العاقل هو الذى إذا لم يجد كل الذى يحبه ، فإنه يحب كل الذى يجده !

اضرب مثالا صارخا على تعاسة الثراء ـ إنها طفلة عمرها عشر سنوات ثرواتها يقدرونها بحوالى ثلاثة آلاف مليون استرلينى . (كم جنيها أو ريالاً أو ديناراً ، ولا أعرف . احسبها أنت) .

أمها تخلصت من نفسها وعمرها ٣٦ سنة بعد زواج رابع فاشل . فقد تشاجرت مع زوجها الفرنسى «تيرى روسيل» ـ ٤٥ سنة ـ وأغلقت على نفسها الباب ، وراحت عليها نومة ، لأنها ابتلعت كل ما لديها من حبوب منومة . إنها «كرستينا» ابنة أغنى أغنياء أوروبا «أرسطو أوناسيس» صاحب أساطيل ناقلات البترول والطائرات والعبارات ، وأخيرا كان زوج السيدة «جاكلين

كـيندى» . . مـاتت «كـرسـتـينا» سنة ١٩٨٨م ، وتركت ابنتـهـا الصغيرة ، التى لاتعرف كلمة يونانية واحدة . وقد أوصت لها الأم بكل ثرواتهـا ، عندمـا تبلغ سن الرشـد ـ أى ١٨ عـامـا . وعـينت مـجلسا للوصاية عليها . أما زوجهـا الفرنسى فقد تزوج إحدى صديقـاته وأنجب منها ولدين . وكـان مفلسـا عند زواجه من ابنة «أوناسيس» ، الذى استـغرق ٤ سنوات فـجمع ثروة ، أو اغتـصب ثروة تبلغ الآن أربعين مليون جنيه . وعنده يخت وطائرة وقصور فى سويسرا ، على ساحل مربيا فى أسبانيا . . ثم إنه مقامر .

وذهب للقضاء يريد السيطرة على ثروة ابنته . ذهب إلى القانون السويسرى الذى أعـاد الحق إلى مجلس الوصاية . والبنت لاتزال تعيش مع والدها ، ومرتبطة به وبإخوتها غير الأشقاء ولكن هناك حراسة شديدة عليها ، ليلا ونهارا .

وعندمـا يسألها زملاؤها فى المدرسـة ، عن سر هذه الحراسـة ؟ تقول : لا أعرف وعندما يسألونها : ومن أبوك ؟!

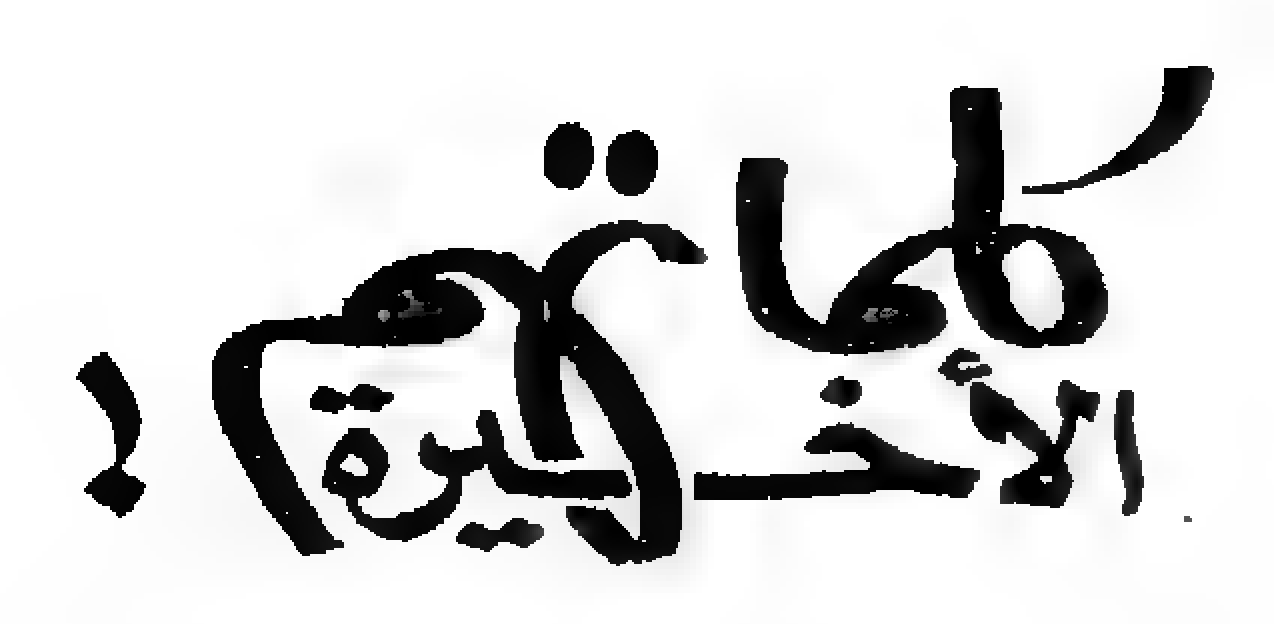
تقول : إنه فلان . فيعاودون السؤال : ولماذا ، ويكون جوابها : لا أعـرف . . وأينمـا ذهبت فـالحراسـة حولها . فى البيت . . فى الشـارع فى المدرسة . ويحاول أبو الفـتـاة أن يسـتولى على الثروة الهـائلة . ولكن المؤسسـات ومجلس الوصاية يسد فى وجـهـه كل الطرق . ولم يملك الأب إلا أن يعـدل عن مـحـاولاته بأن ينفـرد بالإدارة وبالفلوس . ولما قيل له بمنتهى الوضوح : اعقل وإلا اغتلناك فى طرفة عين ! وضع الرجل رأسه على كتفيه واستقر يحاول بكل الطرق أن يسيطر على ابنته الصغيرة ، أو يحصل منها على أية (وصـيـة) ، ولكن هذا مـسـتـحـيل قـانونا . ولما طالب مـؤسـسـة «أوناسـيس» أن تسـدد ديونه ، أرسلوا لـه رجـلا ومـعـه عشـرون من

المافيا ، ومعهم رصيد لكل فلوسه فى بنوك سويسرا . ونصحوه أن يبتلع لسانه ويسكت نهائيا . فسكت ! أما الطفلة فمحرومة من الأم . . وزوجة الأب لاتعوضها عن ذلك . . ورغم محاولات الأب أن يعزل ابنته عن الأطفال ، فقد استطاع مجلس الوصاية أن يكشف للطفلة سفالة والدها . . وأنه هو الذى قتل أمها . . وأنه كان خائنا للأم من الليلة الأولى لزواجهما . وأن كل الذى كان يريده هو فلوس الأم . ثم أتوا للبنت بصور للمعارك بين الاثنين ، وكيف أنه انهال عليها ضربا . . والنتيجة : تعاسة الطفلة بفقدانها للأم التى ماتت ، والأب الذى لم يمت !

ولم يستطع الأب أن يواجه هذه الحملة المعادية له ، وفى الوقت نفسه لن يسلم البنت إلى مجلس الوصاية لحمايتها منه . . ومن كل الأطفال الذين لايكفون عن سؤالها . .

ولما طلب مجلس الوصاية أن يعلم الطفلة لغتها اليونانية اعترض الأب . لأنه يخشى أن يؤدى ذلك ، إلى أن تسمع البنت حكايات أخرى ، عن تفاصيل فضائح الأب مع الأم . . ولما حاول مجلس الوصاية أن يؤكد للأب أن مصلحة البنت ، هى أن تعرف كل ذلك فسوف تكون رئيسة مجلس إدارة إمبراطورية «أوناسيس» ، بعد ثمانى سنوات ، رفض الأب . وبعملية حسابية بسيطة جدا : فإن الطفلة وحيدة تعيسة ، فلا حضن دافئ من أم ، أو أب ، أو أحد . . فهى تعيش فى دنيا باردة متوحشة . . وطبيعى أن تحسد المتسولين فى الشوارع .

وصورتها التى توجع أى قلب ، عندما رأت طفلين من المتسولين فى مثل سنها ، يتعانقان فى مواجهة البرد . . وعلى وجههما ابتسامة هادئة هانئة ـ تصور !



الحديث النبوى الشريف يقول : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» . .

أى عرفوا قبل الموت مالم يكن يعرفونه . رأوا الدنيا . . رأوا الناس . . رأوا الحقيقة . عرفوا أن كل شىء له نهاية . وأن النهاية : جسد انتهى وروح خرجت . . ولا يبقى إلا وجه الله . .

وجاءت للموتى على فراشهم عبارات عجيبة . . ورأى الناس على وجوههم راحة الذى صفى حسابه . ووضع النقطة الأخيرة فى سطور حياته . وأغلق دفاتره واتجه إلى حيث لايعرف . . ولم يكن يعرف . . أو كان يعرف ولكنه حاول دائما أن ينسى . . والآن جاء دوره لكى يتذكر ولآخر مرة . .

فما الذى قاله عظماء قبل النهاية .

«دارون» قال : لا أخاف الموتى !

والشاعر «جوته» قال : مزيدا من النور . . افتحوا النوافذ . .

و«برنارد شو» قال ، لخادمته : تريدننى عجوزا أضحوكه . . اخرجى الآن حتى أموت على راحتى !

الشاعر «بيرون» قال : الآن سوف أنام . .

«تولستوى» قال : كيف يموت الفلاحون ؟

«روسو» قال : سوف أرى الشمس لآخر مرة !

«فولتير» الفيلسوف الساخر قال : أريد أن أموت فى سلام ، لم أعرفه فى حياتى !

الطاغية «نيرون» قال : ما أروع هذا الفنان ، الذى يموت الآن فى داخلى .

وقال الفيلسوف «سقراط» ، لواحد من تلامذته : إننى مدين بديك أرجو أن تذبحه حتى أستريح فى قبرى !

وقال العالم الفيزيائى العبقرى «اسحاق نيوتن» : لا أعرف ما الذى سوف يقوله التاريخ عنى . . ولكنى كنت مثل طفل يلعب على شاطئ المحيط . . انحنى على «ظلطة» . . ثم انحنى مرة أخرى على «ظلطة» أصغر أحاول أن أفهم ، بينما محيط الحقيقة ، التى لا أعرف عنها شيئا يمتد إلى مالا نهاية ورائى وأمامى !

وشاء حظى الذى لا أعرف كيف أصفه أن أشاهد عددا من أصدقائى يموتون . . قبل أن يموتوا . . وكان لابد أن أراهم . . أن أجلس . . أن أتامل . . أن أتذكر . . أن أحزن على مهل . . عليهم أو على نفسى . . أو على هذه المأساة التى اسمها الحياة . .

كان الأستاذ «العقاد» مشغولا بفكرة أن يقدم تفسيرا جديدا للقرآن الكريم ـ ولو امتد به العمر ـ لاختار من سور القرآن الكريم سورة «النور» . . ولكن كان يضحك قائلا : إذا امتد بى العمر . . إن العمر لايمتد . . ولكنه يتمدد أمامك على الفراش . . فإن كان هذا أملا فهو آخر الآمال ، وإن كانت هذه نية ، فهى حسنة . . الحسنة الوحيدة والأخيرة !

وقال «طه حسين» وكان يحدثنا عن التفسير للسيرة النبوية : كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عظيما . ولكن المفسرين لم يفهموا عظمته . وقفوا عند كلماته . ولو طال عمرى ، لأعدت تفسير ألف حديث نبوى ، تفسيرا يرضيه ويرضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ . ولكن يبدو أننى لا أستطيع . . فعلا لن أستطيع !

أما «توفيق الحكيم ! فقد كان ساخرا طول الوقت ، وكان يقول : أريد أن أعترف بأخطائى لك ، قبل أن يسألنى الملكان : الغلطة الأولى : أننى اشتغلت بالأدب . الغلطة الثانية : أننى توهمت أنها صناعة محترمة . . الغلطة الثالثة : أننى أقفلت بابى وشباكى فى وجه الناس ، لكى أنفرد بنفسى . . الغلطة الرابعة : إننى توهمت إننى مع نفسى أفضل منى مع الناس . .

الغلطة الخامسة : أننى عرفت كل هذه الحقائق ، ولكنى لم أفعل شيئا . .

الغلطة السادسة : أننى سوف أموت وحدى ، كما كنت أكتب وحدى . . وإذا كانت الحياة هى العذاب بالحرمان ، فالموت هو الراحة من العذاب والحرمان . . الغلطة السابعة : إننى أصدقك الآن ، عندما تقول إنك سوف تلحق بى فى أسرع وقت . . لا تفعل فالحياة هى الكذب والموت هو الحقيقة . . لاتفعل . . على مهلك فى ترك هذه الحياة !

وكان الأديب الروائى السياسى «إحسان عبد القدوس» لطيفا رقيقا . وكانت سخريته كذلك . كان يقول وهو يجد صعوبة فى نطق كل كلمة : سوف أرى ما الذى بعد الموت . . ولكن ما فائدة أن أعرف الحقيقة بعد الموت . . ولكن المعرفة بشىء جديد لذة وتساوى كل ما يلقاه الإنسان من عناء . . إن الموت هو الحقيقة الوحيدة ، التى يدفع فيها الإنسان عمره !

وكنت أقول للرئيس «السادات» : إن أكثر من عراف وعرافة يتوقع الموت لك عند نهاية هذا العام سنة ١٩٨١م . وكنت ألعن هؤلاء العرافين الكذابين المجرمين . . وكان الغرض من كلامى ، هو أن يحتاط الرئيس وأن يأخذ بنصيحة رجال

الأمن ، وأن يرتدى القميص الحديدى ، الذى لاينفذ منه الرصاص . . وكان له رد واحد : الأعمار بيد الله ويتلو :
﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨) ﴾
[النساء : ٧٨]

ويردد قول المعرى :
مشيناها خطى كتبت علينا
ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض
فليس يموت فى أرض سواها
وقال «أبو نواس» :
يا ويح قومى أبلى بين أعينهم
على الفراش ولايدرون مادائى
قال أمير الشعراء «شوقى» :
ياويح قومى أبلى بين أعينهم
ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى
وينظرون لجسم لا حراك به
على الفراش ولايدرون مادائى
وحتى لو دروا ، فما الذى يمكن أن يفعلوه ؟!

الدهن في «العتاقى»!

المثل الشعبى يقول : الدهن فى العتاقى :

أى أن الدجاجة الكبيرة ، هى التى لها دهن أكثر . يوم كان الدهن لايخيف أحدا ، ويوم لم تظهر كلمة الكولسترول . ومثل هذه العبارة لاتقولها إلا عجوز أو شيخ . وهو يقصد أنه وإن كان كبيرا فى السن ، فإن لديه ما ليس لدى الشبان والكتاكيت من التجربة والفهم والقدرة على تذوق الحياة . .

ولم يكن هذا رأى «العتاقى» ، عندما كانوا صغارا شبابا . فإنك تقول للفتاة الصغيرة : تزوجى ابن عمك إنه يحبك . ويكون ردها ؛ ياه ابن عمى ؟ ده لما يكون الرجالة خلصوا من الدنيا . . ثم إنه أكبر منى !

ويكون أكبر منها بسنتين ـ فهو إذن كهل . . إنها تريد من تحب أيا كان . . وأن يكبرها بيومين أو بشهرين !

وإن كان للبنات آراء أخرى . . وهى أن تتزوج «العتاقى» . لأن لديهم فلوساً . . فهى تعيش معه بالعافية سنة أو سنتين . . يتوكل بعدها ـ أى يموت . . وترث هى الفلوس وشقة على النيل . . وبعد ذلك تتزوج الشاب الذى تحبه !

وإن لم تتزوجه فإنها ترضى بالزواج العرفى . . زواج بلا أولاد ولكنه كله فلوس . . سنة . . سنتين . وبعد ذلك تتزوج من تحبه من الشبان فى مثل سنها !

والأمثلة على ذلك كثيرة فى كل بلاد الدنيا . وربما كانت الفتاة الأمريكية أو الأوروبية أسعد حظا . فإذا تزوجت رجلا كبيراً ، وضاقت بالحياة معه وهذا طبيعى - فلها نصف ما يملك بالتمام والكمال . أذكر أننى زرت صديقا مصريا غنيا يعيش فى أمريكا . ونحن نتناول طعام الغذاء سألنى : هل لاحظت ؟

- أى شىء ؟

- أن المقاعد أشكال وألوان والشوك والسكاكين .

قلت : لا والله .

- على كل حال يمكنك الآن أن تلاحظ . .

ولم ألاحظ ولم أفهم . فقال : أنا طلقت زوجتى . وأعطاها القانون نصف البيت . . نصف كل شىء . . ولو حاولت قتلها بسكين ، لحكم القاضى باقتسام السكين بينى وبينها !

قلت : والله كده أحسن بلا وجع قلب . .

- أحسن ؟ نعم أحسن . . أما وجع القلب فموجود . . خمس بنات بعيد عنك . . لا أنا عارف أتفاهم مع البنات ولا عارف أمنع البنات عن زيارة الأم والتعاطف معها . .

- وبعدين ؟

- وحياتك عملت اللى يعمله أى راجل . .

- إيه ؟

- تزوجت .

- حمار . طبعا أنت حمار !

- لو رأيت العروس سوف تغير رأيك . .

وظهرت العروس كالقمر . . كاملة الأوصاف ، فسألنى : إيه رأيك جاوبنى باللغة العربية . .

قلت له : حمار !

- يعنى إيه ؟

- يعنى أكثر من حمار .. فى الستين وتتزوج فتاة فى العشرين؟!

قال : أفعل ما تفعله البنات الصغيرات الآن .. أتزوج صغيرة جميلة .. وأعيش معها شهر أو سنة .. وتروح لحالها ..

- وفلوسك ؟

- أخذتها الزوجة الأولى ..

- وليس عندك فلوس الآن ؟

- وهذا ما سوف يجعل العروس تطفش بعد أول خاتم الماس تطلبه فلا تجده !

- تتركك ؟

- نعم ..

- وهى مغفلة ؟

- لايوجد امرأة مغفلة ، وإنما توجد امرأة مغامرة .. وهذه المغامرة هى الكسبانة دائما .. لأنها سوف تأخذ نصف الفيلا ونصف السيارات ..

وبعد سنتين زرته لأجده قد طلق الفتاة الصغيرة .. وتزوجته سيدة أكبر منه تراه شابا مندفعا .. أما الزوجة الشابة فقد تزوجت شابا يضربها كل يوم ، وتقول له أحبك !

وسألت صديقى : ما المعنى ؟

- هوه كل حاجة عندك لازم يكون لها معنى .. مفيش معنى يا أخى .. الذى بيننا هو الزمالة .. الأخوة .. العشرة الطيبة .. وكلام كثير عن الذكريات والماضى الذى كان ، والمستقبل الذى لن

يطول . . والباقى يأكله الدود . . خلاص استرحت . . فهمت كل المعانى !

– والله راجل عاقل . وهل صحيح أن الدهن فى العتاقى ؟

فـقـال : نحن أمـامك . . لا دهن ولا لحم ولا عظم . . أنا وزوجتى أكبر مقلب للدود . . نحن مناسبان جدا للسوس . . هاها . . هاها . .

كلنا شعرنا بالغربة !

عندما تشعر بأنك لاتعرف أحدا من الناس . وإذا عرفتهم فأنت لاتعرف كيف تتحدث إليهم . . وإذا تحدثت فأنت لاتفهم وهم لايفهمون . . هنا تشعر أنك فى أرض غريبة وبين غرباء . .

موسى - عليه السلام - عندما وقف على حدود فلسطين وصف نفسه ، بأنه الغريب فى أرض غريبة . . فهو يتكلم الفرعونية ولا يعرف العبرية لغة اليهود . وأخوه هارون يعمل مترجما له . ولذلك فى دعائه الله قال : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾
[طه : ٢٩ - ٣٢]

ومات موسى عليه السلام ، دون أن يدخل أرض الميعاد ، غريبا فى أهله وغريبا عنهم . .

وآدم عليه السلام ، عندما وجد نفسه فى الجنة . كان أغرب الغرباء . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ . . أى قضى على شعوره بالغربة وجعله مواطنا للجنة . .

والفلسفة الوجودية تصف الإنسان ، كأنه هبط إلى هذه الدنيا بمظلة . الأرض غريبة والناس أيضا . وعليه أن يختار وحده ، وأن يقرر المسافة والعلاقة بينه وبين الناس . فلا أحد قد عرض على الإنسان ، أن يكون أو لا يكون .

وإنما الإنسان وجد نفسه موجودا ، لا رأى له ، ولا خيار عنده . . والخيار الوحيد الممكن هو أن «يوطن» نفسه فى هذه الدنيا . . بين الناس . . أن يضع المسافات وأن يخلق العلاقات ، وأن يغرس نفسه فى الحياة . . فى المجتمع . .

فمن العبث أن يشعر الإنسان بأنه وحيد . . أعزل . . منعزل . . لا صلة ولا علاقة ولا رابطة بينه وبين الناس . . وحتى إذا التقى بهم فهم لايفهمونه وهو أيضا لايفهمهم .

ولذلك ظهر فى فرنسا مسرح العبث . أو مسرح اللا معقول . . وهذا المسرح يؤكد غربة الإنسان وغرابة الدنيا حوله . . ولذلك رأينا فى هذه المسرحيات أبطالا يتكلمون معا . . أى نجدهم معا كل واحد يتكلم ولكنه لايكلم الآخرين . . هو يتكلم والآخرون يتكلمون ولايسمعون بعضهم بعضاً . . إنهم غرباء . . وإنه محكوم عليهم بالغربة والغرابة والاغتراب . . وقد انتقل مسرح العبث إلى مصر . وبدا لنا كأنه بلا مقدمات . . وإنما نحن نقلد الفرنسيين فقط . . فظهرت مسرحية «ياطالع الشجرة» لتوفيق الحكيم .

هل هذا مرض ؟

كأنه مرض . ولذلك لا بد أن نواجه هذه المأساة . وذلك بتوطين الناس . . بتزويجهم من المجتمع . . بعقد صلح مع الجميع حتى يتعايشوا ويعيشوا . . وحتى لاتدفعهم العزلة أو الانعزال إلى الهرب من المجتمع أو الاعتداء عليه . . والذين هربوا كانوا ضحايا المخدرات والجنس والهوس الدينى . . والذين احتشدوا ليعتدوا على المجتمع كانوا من الشيوعيين والإرهابيين السياسيين والدينيين . .

ويقال إن طبيبا زار مستشفى الأمراض العقلية ، فوجد مريضا يتحدث بالعقل والمنطق . فسأله : ما الذى أتى بك إلى هنا وأنت رجل عاقل ؟

فأجاب المريض : ولا حاجة . . أنا أقول إن الناس جميعا مجانين وأنا العاقل الوحيد ، وهم يقولون بل أنا المجنون . . ولأن الناس أقوى منى ، وضعونى فى المستشفى ، ولأننى أضعف لم أستطع أن أملأ بهم المستشفيات !

وليس هناك جنون أوضح من ذلك . .

والناس أمام المجتمع وتقاليده وأعرافه أربعة أنواع :

(الداخلون) فيه ، و(المتسللون) إليه ، و(الخارجون) عليه . .

أما القسم الرابع فهم (الغرباء) . . أى الذين لايريدون أن يدخلوا أو يتسللوا أو يخرجوا عليه . . وإنما يرون أنه لا جدوى من كل شىء . . ولا معنى . . ولذلك فهم لاينتمون . . أى لا يرتبطون . . وإنما يتفرجون عليه .

ثم يديرون ظهورهم للحياة يأساً من تحقيق أى أمل . . أو وصولاً إلى أى هدف . . وبعض هذه المشاعر يعانيها الشبان فى مراحل المراهقة . . عندما يرتدون ملابسهم كاملة ولايجدون مكانا يذهبون إليه . . عندما يتسلحون بالطموح والشجاعة والحرارة ثم يدينهم المجتمع مع أنهم لم يرتكبوا إلا جريمة واحدة هى : أنهم شباب . . وأنهم أولاد الغد الساخطون على الحاضر والماضى !

وكل أمراض الشباب لها مصدر واحد : إنهم يريدون الكثير ، ولا يقدرون إلا على القليل . . وإنهم يتعجلون ذلك !

ويظل الصراع حادا بين أحلامهم وقدراتهم ، بين الذى يتصورون أنه حق لهم ، وبين اعتراض كل قوى المجتمع على ذلك . . وهنا يقع الشباب ضحايا الغربة . . والاغتراب بين أهلهم فى وطنهم . . أو ضحايا الجماعات التى تسارع بتنظير عذابهم . . وتسليمهم آراء جاهزة تؤيد مواقفهم وتدين المجتمع من حولهم . .

ويتبادل الغرباء والمجتمع تهمة واحدة هى : التآمر . . الشباب يتآمر على المجتمع ، والمجتمع يتآمر عليهم . . ومن هذه المؤامرة تتولد العداوة . والضحايا هم الأبرياء من كل دين ومذهب سياسى . وهكذا تتولد شرارة الغضب والسخط والتمرد والثورة على كل شىء . . وليس بيننا واحد لم يشعر ولو ساعة بأنه غريب . . أو أن الناس هم الغرباء . .

وليس بيننا واحد لم يفكر لحظة أو ساعة أو يوما أن يترك أرضه وأهله . . لماذا ؟ لأنه غير قادر على التوافق مع مكانه وزمانه . وأنه قادر على أن يتوافق فى أرض غريبة . . جديدة . . وليس بيننا واحد عندما ذهب إلى العاصمة الكبرى لبلاده أو لبلاد أخرى ، لم يشعر أنه صغير . . ضئيل . . وأن كل شىء يكاد يسحقه ويجعله ترابا تذروه والرياح إلى كل اتجاه . والسبب هو أن ما حولنا ضخم كبير . . ونحن صغار . . وبمرور الوقت يعتاد الإنسان على الذى حوله وتأخذ الأشكال والمسافات طولها وعرضها ووزنها . . ويكون لكل شىء الاسم والوزن الحقيقى . . تماما كما أحس أبونا آدم عندما تعلم كل الأسماء والمعانى . . فلم يعد غريبا . وإنما أحس أن الكون من صنعه هو . وأن الكون واقف هناك فى انتظار أوامره . . وأن الإنسان هو الآمر الناهى . . هنا فقط لايشعر بأنه غريب !

لقد كان «نابليون» إيطاليا غريبا عن فرنسا ، ثم صار إمبراطورا لها . .

لقد كان «هتلر» نمساويا غريبا عن ألمانيا ، ثم صار سيداً لها . . وكذلك كان «محمد على باشا» الألبانى الأجنبى ، الذى حكم مصر وكان أكبر مصلحيها . .

لقد استطاع كل من «نابليون ، وهتلر ، ومحـمـد على» أن يوطن نفـسـه . . وأن يجـعل الأرض الغـريبـة والشـعب الغـريب وطنا له وأهلا . . ثم ساد وتسلط وتسلطن !

وهذا هو أمل كل الغـرباء فى كل العـصـور . . قليلون جـدا استطاعوا . . ولكن الأغلبية قلقة فى نفسها وفى أرضها . . فإن لم يكونوا غرباء فعلا فى أهلهم وأوطانهم ، فكأنهم كذلك !

من فتيحى إلى فقيه !

لم أتحمس لزيارة أى محل للمجوهرات ، فأنا لا أراها ـ يعنى حتى لو تفرجت عليها فأنا لا أجد لها أى معنى . . إنها لاتخصنى . . تماما كما أتفرج على أدوات تجميل المرأة . . وعلى العقاقير الأنيقة التغليف فى الصيدلية . .

ولم تفلح كل المحاولات فى إقناعى كى أتفرج ـ مجرد فرجة . . وشاءت الصدف أن أذهب إلى محل «فتيحى» فى مدينة جدة ، فى رفقة الأمير عبد المجيد أمير المدينة المنورة . ولا أعرف إن كنت قد رأيت شيئا ، رغم الشروح الطويلة لذلك . .

ولم أفهم كثيرا الفرق بين مجوهرات كارتيه ، ومجوهرات فاشيرون أو مرسييه . . طبعا هناك فروق لاشك ولكنى لم أرها . .

وقد ذهبت منذ سنوات إلى مجمع الماس فى مدينة تل أبيب . . عمارات هائلة بها ألوف الغرف . كل غرفة هى شركة من شركات صناعة الماس وتجارة الجملة ، لحساب شركات عالمية فى كل الدنيا . .

فالشركات الكبرى تبعث بتصميمات للماس ، ويتولى الخبراء فى تل أبيب تنفيذها . إنها أعمال دقيقة وجبارة . ولكنى ما رأيت شيئا . إن عينى لاتراها . وإذا رأتها لاتفهمها . . وإذا فهمتها فقد أدركت أنها أحجار غالية وبس ـ تباع وتعلق القطعة الصغيرة فى إصبع امرأة ، وهذه القطعة الصغيرة التى لا تملأ عين المرأة عادة ، هى حصيلة شقاء وعذاب رجل مدة سنة أو سنوات . . وكما أن

الفراء على كتف المرأة ، هو إعلان بأن رجلا قتل حيوانا ، لتضعه المرأة على كتفيها ، دون أن يهتز له عصب ، بأنها كانت سببا فى مذابح الثعالب ، والدببة ، والشنشلا فى كل الدنيا ـ ومذابح الرجال أيضا . كذلك قطعة الماس ليست إلا حجرا تحت رأس رجل مات . . أو كأنها شاهد على قبره . . وبهذه المعانى أتفرج على محلات الماس . وأنا معذور إذا تعاطفت مع أبناء جنسى من المساكين والغلابة !

وفى طهران ذهبت إلى البنك الأهلى ، حيث أكبر متحف ومعرض للماس فى الدنيا . . هذا الماس هو الغطاء الغالى جدا للعملة الإيرانية . . إذا دخلته المرأة أحست بأنها والذى فى أصبعها وفى أذنيها وعنقها شىء تافه جداً . .

فالماس كتل نادرة وضخمة ، حتى ليخيل للإنسان أنها زجاج وليست ماسا . وفى سقف المتحف وفى جدرانه عيون الكترونية ، ترصد وترقب وتسجل . . وحراس أشداء . . يتحركون بين الناس . .

فقط عندما تخرج المرأة من المتحف ، ولو كانت أغنى امرأة فى العالم ، وتحمل كل فلوسها على شكل قطع من الماس ، عندما تخرج إلى الشارع . . تشعر بأنها مختلفة . . فكل شىء أمامها حديد ، وتحت قدميها أسفلت . . أما الأحجار الكريمة ، التى فى إصبعها وحول عنقها . . فهى غالية ورفيعة المستوى فقط إذا خرجت من هذا المتحف . ولذلك كانت الزائرات أول من يخرجن بسرعة من المتحف ، خوفا على هويتها وشخصيتها !

وقد نجحت الصناعات الحديثة فى تقليد الماس ـ شكل الماس . . وتقليد الجوهرات المشهورة تقليدا رفيعا . ولذلك نجد أن أغنى الأغنياء من النساء يضعن «الأطقم» المقلدة . . أما الأطقم الحقيقية

ففى خزائن البنوك . . وكثيرا ما تعرضت النساء الغنيات للسرقة والسطو ، وخاب أمل اللصوص عندما وجدوا هذه الجوهرات شكلا جميلاً ومضمونا مزيفا !

وتحت إغراء شديد من الزملاء ، ذهبت أتفرج على معرض «فتيحى» للمجوهرات ـ للماس بصفة خاصة . وتسبق المعرض دعاية فى كل شبكات التليفزيون . ودخلت ومددت يدى إلى علبة الشيكولاته ووضعت واحدة فى فمى وخرجت . كأننى قد جئت من أجل ذلك . ولم أر كل ما قدم «فتيحى» من روائع .

ثم قابلت الشيخ «فتيحى» ، وهو رجل فى منتصف العمر ، ملىء بالحيوية وخفة الدم . . فليكن !

وقلت له : أنت وعديلك تقتسمان كل شىء فى هذا البلد !

أما عديله فهو د . سليمان فقيه ، صاحب المستشفى المعروف .
فسألنى : كيف ؟!

قلت : إن الذين تبهرهم هنا يغمى عليهم . . فينقلون إلى العناية المركزة هناك !

جعلنا رمضان ملحمة !

شهر رمضان فى السعودية له مذاق مختلف . فالحياة فى السعودية تبدأ بعد صلاة العشاء . كل الناس يخرجون . يتزاحمون فى الشوارع ، والسيدات فى المحلات التجارية . ويسهرون ويسهرون حتى يطلع النهار أو قبل ذلك بقليل . وطبيعى أن يناموا حتى العاشرة . . وقليلون حتى الظهيرة . . وأقل حتى قبيل المغرب .

وإذا طلبت أحدا فى التليفون وقيل لك : إنه خرج . . فمعنى ذلك أنه نائم فلا تغضب أو لاتسىء الظن به . فهذه عادات استقرت . وليس فى استطاعتك ولا من حقك أن توقظ النائم ، وأن تفسد عليه حياته ، لمجرد أنك جئت إلى السعودية فى إجازة قصيرة .

أما عن الجو فكان حاراً . والشمس حارقة - إننى أتحدث عن جدة . أما الرياض فقد كانت شديدة البرودة . أما مكة فهى حارة رطبة - إننى أتحدث عن الحرم المكى فقط .

أما المدينة فهى محتملة نهاراً وليلاً . ومع أنها باردة فإن الإنسان لايشعر بذلك . أو لايريد أن يشعر بذلك . ففى المدينة هدوء وصفاء ونقاء . ولها من اسمها نصيب . والمدينة لها تسعون اسما . . وأبغض أسمائها إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو : يثرب لأنه يحمل معنى الخطأ !

وكل ذلك يهون . إلا الطعام . ولا أحد يشكو من الطعام إلا قليلون . أنا واحد منهم . وشكواى : أن الطعام كله من اللحم أو أنه أقرب إلى ملمس اللحم ورائحة الدهن . فاللحم له رائحة قوية .

هذه الرائحة قد أغرقت كل شيء . . وكم من مرة حاولت أن أذوق الأرز وأمر به إلى قرب أنفى ، قبل أن أضعه فى فمى . . فكانت له رائحة الدهن .

نسيت أن أقول إننى نباتى . ووجدت رائحة اللحم فى الصلصة وشوربة العدس وفى الحلويات أيضا . ولم أشأ أن أسأل أحدا عن ذلك . . فالناس سعداء بالأكل الوفير فى موائد الفنادق الكبرى . وفى البيوت أيضا .

ولذلك فإننى أتجه مباشرة إلى الفول ، وإلى الليمون والشطة ، ولكى أخفى أية رائحة للحم فى الفول . . أو لكى ألسع لسانى بالشطة ، فيصبح عاجزا عن تذوق أى شيء أو التفرقة بين اللحم والفول والعدس والبصل .

حاولت أن أسأل أحد الخواجات ، الذى يستمتع مثلنا بتنوع أصناف الطعام . ولا يشرب إلا بعد أذان المغرب ، احتراما لشعور الصائمين . قلت له بعد أن لاحظت عدم وجود لحم أمامه : وأنت أيضا نباتى !

فأجاب : لا . . لماذا ؟

– لأننى لم أجد أمامك لحما . .

– سوف يأتى بها الجرسون حالا . . لأننى أفضل اللحم وحده على بقية الأطعمة الموجودة . . وهذا هو الأصح . . فهناك نظرية فى أمريكا : إن الإنسان ينقص وزنه ، إذا أكل طعاما واحدا . . لحما فقط أو دهنا فقط ، أو فولا فقط ، كما تفعل أنت الآن . . أو فاكهة فقط . .

– كلامك مضبوط . . فالناس فى مصر يزداد وزنهم فى شهر رمضان ، لأن مائدة الإفطار فيها البارد والساخن ، والحلو ، والحادق ، والحريف ، والأرز ، مع البطاطس ، مع المكرونة ، واللحم

مع السـمك ، والفـول ، والطعـمـيـة والبـسـارة . . ولا بد من أن يمد الواحد يده إلى كل طبق . لا بد . .

ولكن طريقة السعوديين فى الإفطار هى الأصح . . فهم يتناولون التـمـر . . الذى يسـد النفس عن الطعـام . . ثم يصلون المغـرب . . وبعد ذلك يجلسون إلى الطعام ، أقل من الذين يجلسون فورا مثلنا ويحـشـرون مـعـداتهم ، بكل ما على المائدة ! وسـألنى الخواجة : وأنت ماذا تفعل فى مصر ؟!

- انتهز هذه الفرصة لكى أنقص وزنى فاملأ معدتى بالشوربة والصلصة ، حتى إذا اتجهت إلى بقيـة الطعام ، كـان نصـيـبى منه قليـلا جداً . . ثم إننى لا أتناول طعـام السـحـور . فـهـو عـبء على المعدة ، وغشاوة على العقل ، وسـلاسل تكبل الإنسان ، فلا يبرح الفراش إلى العمل !

- إذن أنت سعيد بذلك !

- ليس تماما . . فإننى أجد حرجا شديدا ، عندما أجد نفسى مدعوا لتناول السحـور . . ويكون الناس قد أعدوا مأدبة لاتختلف كثيرا ، عن مـأدبة الإفطار ، ويكون ذلك فى السـاعـات الأخيرة من اليوم التـالى . . واكـتـفى بفنجـان من الشـوربة . . ويكون ذلك مـحـرجا للذين جلسوا ، يلتهمون ، ويزلطون ، ويقـاومون النوم . . وأنا وحدى الذى لم أذق شيئا . فأبدو كما لو كنت غاندى وكأنهم وحوش ضارية . .

- فماذا تفعل ؟!

- ولا حـاجـة . . هم يأكلون وأنا أشـرب . . هم ينامـون وأنا أصحو . . هم ضحايا عاداتهم السيئة فى رمضان ، وأنا أخرج من هذه الملحمة ـ نسبة إلى اللحم ـ سالما .

والحمد لله !

إنها الجنس العنيف!

أحب أن أجلس إلى الشاب ، أسمع وأجيب . . ولكنى أفضل أن أسمع كثيرا ، ومن كثيرين وكثيرات وطويلا . فأنا أريد أن أطمئن على مستقبل بلادنا .

وفى كل مرة أسافر ، أطلب أن أجلس إلى الشباب . وقد شاءت الصدفة أن ألتقى بعدد من الفتيات ، من دون العشرين وجميلات . وأعجبنى كل الذى قلن . . إلا الذى قلنه عن الدين وفى الدين . وهذا لايهم كثيرا . وكانت المناقشات لها طعم الهجوم . هكذا : لماذا أنت عدو المرأة .

فأقول : لست عدواً لهذه الدرجة . فأنا أصدرت ١٦٠ كتاباً ، ليس من بينها إلا عشرة عن المرأة . وليس كل الذى جاء فى هذه الكتب ضد المرأة .

– ولكن كتابك «قالوا» كله هجوم وتجريح فى المرأة .

– إن العبارات التى جاءت فى هذا الكتاب لها شكل كاريكاتورى . . ساخر ولذلك فهى شائكة . وكل الرسومات الكاريكاتورية كذلك . . تبالغ فى الرأس فى العينين فى الأنف . . من أجل إضحاك القارئ . . والحقيقة أننى محتار مع المرأة هذه ـ لا أقصد المرأة السعودية ـ ولكن المرأة عموما .

فأنا غير قادر على فهمها ولا استطاع أحد ابتداء من سقراط ، وأبو الأسود الدؤلى وانتهاء بالأميرة ديانا . لا أعرف إن كانت طفلة أم امرأة ناضجة . لا أعرف إن كانت جادة أم هازلة . .

فنحن أمام حيوان شديد الحساسية شديد التعقيد . . نحن الذين قلنا عنها إنها لطيفة . وهى ليست كذلك . فالمرأة عنيفة . انظر إليها وهى تغار على حبيبها . . انظر إليها وقد جرحها زوجها . . إنها تفعل أكثر مما تفعله الأميرة ديانا . . بل إن المرأة إذا قررت الانتقام فلا حدود لذلك . . إنها على استعداد ، لأن تضع المشنقة فى رقبة زوجها وهى سعيدة جداً ! إن المرأة تقوم بأكثر الأعمال عنفا وقسوة وبأعصاب هادئة . . مثلا : مهنة التمريض . نشكرها على ذلك . ولكن ما هى تلك الأعصاب ، التى تجعلها ترى كل أوجاع الناس ودماءهم وبطونهم المفتوحة وأدمغتهم أيضا . . وينزفون ويصرخون ويسقطون ، وهى تقف تأكل السندوتش . وليس ذلك دليلا على أنها ملاك الرحمة . . وإنما على أن أعصابها من حديد . وأن قلبها من حديد . وأن قلبها خلعته مع فستانها بعيدا عن غرف العمليات . .

مثلا لو انغلق الباب على أصبعى مرة واحدة ، فإننى بعد ذلك أقفل الباب وافتحه بقدمى . . ولو احترق أصبعى بسبب عود كبريت ، فإننى أمتنع عن التدخين . ثم إن المرأة نفسها تصاب بمرضها الشهرى وتنزف ـ فقد اعتادت على ذلك . ثم إنها تتعذب عذابا لايوصف بسبب الحمل والولادة ، ولكنها على استعداد أن تفعل ذلك ألف مرة . والرجال الذين يشاركون زوجاتهم هذا الألم يقسمون ألا يجعلوها تلد بعد ذلك ، اكتفاء بما لديهم من أطفال ـ ولكنه هو الذى يقسم ـ ثم يجدها تحمل وتلد عشرين مرة !

كيف تتحمل المرأة هذه الأهوال ، إنها طبيعتها التى انغرست فيها عميقا جداً ، لكى تكون أما . . والولادة هى أعظم عمل

إبداعى تقوم به المرأة .. تقوم به الأنثى ولايستطيعه أى رجل .. أى ذكر فى عالم الحيوان والحشرات .

والرجال وقود الحروب .. لأنهم هم الذين يشعلونها .. وفى استطاعة أى جندى أن ينسف مدينة .. كما فعل الطيار الأمريكى ، الذى أسقط القنبلة الذرية على هيروشيما .. ففى لحظة واحدة أباد مئات الألوف وخرج سعيدا بعيدا .. ولم ير ما حدث .. ولكن رأى انفجارا مروعا من بعيد .. ولكن الرجل يجد صعوبة نفسية فى قتل امرأة وفصل أعضائها واحدا واحدا .. ولكن حدث فى مصر أن قامت نساء بقتل أزواجهن .. ولم يتوقفن عند ذلك . وإنما قطعن الزوج كأنه خروف قطعة قطعة . ووضعن هذه القطع بمنتهى الهدوء والنظام ، فى أكياس من النايلون .. الكيس الكبير للرأس والأكياس الصغيرة للأرجل ، والسيقان والمعدة والطحال .. ثم ألقين بهذه الأكياس فى النيل . ثم وقفت السفاحات أمام النيابة يقلن : قتلناه لأنه تزوج واحدة أخرى .. قتلناه لأنه هدد بالزواج من واحدة أخرى .. وكذلك فعلت شجرة الدر ملكة مصر ، مع زوجها الذى اكتشفت أنه لم يطلق زوجته الأولى ! والفيلسوف الألمانى شوبنهور ، يؤكد لنا أنه لايوجد أى شبه بين الرجل والمرأة وإن كان الأطباء يؤكدون تطابقهما من الناحية التشريحية ..

ولكنه يقول : كانت للرجل أنثى من ملايين السنين . وانقرضت . فقد كانت لطيفة رقيقة .. وقفزت أنثى حيوان آخر فى مكانها وتشبهت بالرجل . وهى الأنثى المتوحشة الموجودة الآن .. وهى مثل الملك شهريار تنتقم للأنثى التى انقرضت . ولذلك فهى حريصة على تصفية الرجل جسديا ومعنويا . والمرأة من ضرورات

الحياة . فبغيرها لا استمرار للحياة الإنسانية أو الحيوانية . مثل الماء والهواء والطعام . ولكن لسوء حظ الرجل ، فهى الضرورة الوحيدة طويلة اللسان ناكرة الجميل المتمردة المعقدة ، التى هى «عينة» من العذاب والأهوال ، التى سوف يلقاها الناس فى جهنم بعد ذلك .
وتلفت إلى البنات الجميلات اللطيفات اليوم والمضيفات غدا : كويس كده يا بنات . هذا رأيى! وفى نفس واحد قلن : أعوذ بالله!

الطبيب الذى فضح مريضه الشهير !

أول شىء ينساه الأطباء هو «قسم أبقراط» ، ذلك الحكيم الإغريقى الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . لقد كان هذا الطبيب قوى الملاحظة وقوى الخلق أيضاً . وكان يؤمن بأن لا فرق بين العلم والأخلاق . فالعلم يجب أن يكون فاضلا . . وبعض الأطباء ـ اليوم ـ ينسون ـ العلم ولايتذكرون الأخلاق . فالطبيب عندما يتجه إلى الحياة العامة ، يجب أن يقسم بأن يكون كما أراد «أبقراط» أبو الطب . . أن يكون لطيفا بالمريض وأن يكون رحيما ، فلا يرهقه بالفلوس الكثيرة ، التى يطلبها وألا يقول لأحد إن هذا المريض يتردد عليه . ولايفشى سر هذا المريض . وألا يساعد أية امرأة على أن تجهض نفسها ، ففى ذلك قتل لكائن حى . وإذا مات طبيب فعليه أن يساعد أولاده ، وأن يعلمهم على نفقته !

وقد تغير هذا القسم . فلا الطبيب يساعد أولاد طبيب آخر ، ولا هو أيضا يمتنع عن إجهاض امرأة . . ثم إنه لم يعد ، يتمسك بكل قسم «أبقراط» .

فالطبيب المصرى الكبير د . «أنور المفتى» ، تحدث عن مرض «جمال عبد الناصر» . ورأى فى عينيه أنه سوف يموت قريبا . ويقال إن «أنور المفتى» ، قد مات مسموما ، لأنه اعترف بذلك ، وإن كنت أنا كاتب هذه السطور ، أول من كشف عن مرض «جمال عبد الناصر» ، وقلت إنه مريض «بمرض برجر» . . وهذا المرض يصيب مرضى السكرى المسرفين فى التدخين . وهو عبارة عن تخثر فى شعيرات الساقين ، فيصبح عاجزا عن السير . وقد ذهب الرئيس «عبد الناصر» ،

إلى مصحة «اسخالطوبو» فى شبه جزيرة القرم . . ويقطع الأطباء الصينيون أن الروس قتلوا «عبد الناصر» لأنه مات صغيراً عمره ٥٢ عاماً !

وهذا المرض أصاب اليهود المضاربين فى البورصة . ويسمونه فى دوائر المعارف بمرض اليهود .

وقد نشر طبيب «تشرشل» ، اللورد د . «موران» فى مذكراته ، عن أمراض «ونستون تشرشل» . وكيف كان مصابا بالإسهال الشديد والإمساك الشديد . . وكيف أنه قام مجرداً من ملابسه ، ليؤدى حركات استعراضية ، وطلب قرصا منوماً قوياً ، عندما علم أن الطيران اليابانى قد أغرق الأسطول الأمريكى فى ميناء «بيرل هاربور» . وساعتها وقف «تشرشل» يؤدى حركات استعراضية ، وهو يقول : دخلت أمريكا الحرب إلى جانبنا . . دخلت الحرب أمريكا . . دعونى لكى أنام !

وقال لورد «موران» : إن «تشرشل» ، كانت له هواية وهى كتابة الروشتات ، حتى كاد يقتل الجنرال «ايزنهاور» . فقد كتب له أقراصا تضاعف الإسهال ، وكان يقصد أقراصا تحدث له نوعا من الإمساك .

وذهبت أسرة «تشرشل» إلى القضاء وهاجمت نقابة الأطباء هذا الطبيب الكبير ، لأنه حنث فى قسم «أبقراط» !

وفى باريس الآن ضجة بسبب كتاب أصدره طبيب الرئيس «ميتران ، يفشى أسرار الرجل . فقد أعلن «جوبليه» الطبيب الخاص لـ «ميتران» أنه أصيب بالسرطان سنة ١٩٨١م . وأن الرئيس أفضى له بهذا السر ، ولكن «ميتران» استطاع أن يدخل الانتخابات ، والمعارك السياسية فى فرنسا وفى أوروبا ، وأن ينتصر وهو مهزوم من المرض . ولكنه رجل شجاع . وقد ذهبت أسرة الرئيس الفرنسى إلى القضاء . وإلى نقابة الأطباء تقاضى الرجل ،

الذى فضح الرئيس ، مع أن المرض ليس فضيحة . وإنما هو قدر على رقاب العباد ، محكومين وحاكمين وأطباء !

وقبل أن يموت الممثل الكبير «شارلى شابلن» ، أعلنت إحدى الشركات الطبية ، أنها تمد هذا الفنان الكبير بحبوب الشباب والحيوية . فذهب إلى القضاء واعتذرت الشركة ، ونفت أن تكون لها أية صلة بحيوية الفنان الكبير !

وأذكر أن الرئيس «السادات» قد طلب منى ، أن أبحث هذا الموضوع وأن أتحقق من الذين أكدوه والذين نفوه . . وأن أبحث أيضا كيف أن الرئيس «تيتو» ، فى السبعين من عمره ، ومايزال يأكل الكافيار الملىء بالكولسترول ويشرب الفودكا ، ويأكل المكرونة المليئة بالدهنيات والنشويات ، ولا يزال فى صحة جيدة!

ولم أعرف ما الذى أفعله . . ولكن جاء موت الرئيس «تيتو» ، وموت «شارلى شابلن» إنقاذا لى . فلم يسألنى الرئيس «السادات» عن نتائج أبحاثى فى الصحة والشباب وطول العمر !

أما حكاية العالم الأمريكى «لينوس باولنج» ، وهو أول عالم يحصل على جائزة نوبل مرتين : مرة فى العلوم ومرة فى الدعوة إلى السلام . فقد أعلن طبيبه الخاص ، أنه يسرف فى تناول فيتامين «ج» ، لأنه يؤمن بأنه لاشىء يطيل العمر مثل هذا الفيتامين . ومات العالم الكبير . .

والعلماء الذين رثوه وتحدثوا عن عظمته ، قالوا أيضا إن العالم الكبير ، قد أصابه التخريف فى آخر أيام حياته ، لأنه (آمن) - كيف؟! - بأن الليمون والبرتقال يطيل العمر .

لقد تعاون على بهدلة العالم العظيم : الأطباء ورجال الكيمياء ، مع أنه لم يرتكب جريمة علمية . وإنما هو صاحب تجربة شخصية ، لم تكن ضارة بأحد !!

الإنسان الأخضر :
أيـن أنـت ؟!

منذ أسابيع اكتشف علماء الفلك ، أن هناك كوكبين يشبهان الأرض التى نعيش عليها . وهذا هو أهم اكتشاف فى القرن العشرين . لأن كل اكتشافاتنا هى نجوم ، ثم مزيد من النجوم ، أو ألوف ملايين النجوم فى مجموعات نسميها : السدم . وهذه السدم تشبه السديم ، الذى نعيش عند طرفه الجنوبى - نحن سكان الأرض ومن حولنا الكواكب الثمانية الأخرى ، التى تدور حول الشمس . وكان العلماء يحلمون بأن يجدوا «أرضا» مثل أرضنا . وتكون عليها حياة من أى نوع . وهذان الكوكبان درجة الحرارة فيهما حوالى ٨٠ مئوية . وفى الكوكبين غازات ثم إنهما أكبر من كوكب المشترى ، الذى فى حجم كل كواكب المجموعة الشمسية ، بكواكبها التسعة وأقمارها الخمسين . والخبر فى حد ذاته : حدث فلكى جليل . .

ولكن هذين الكوكبين يبعدان عن كوكب الأرض ٤٠ سنة ضوئية .

(السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الشعاع فى سنة . والشعاع يقطع فى الثانية الواحدة ٣٥٠ ألف كيلو متر . . أى أنه يقطع فى السنة الواحدة ما يساوى واحدا وأمامه ١٣ صفرا من الكيلو مترات) . .

يعنى لو أن واحدا من سكان هذين الكوكبين تحدث إلينا فى التليفون ، وقال لنا : ألو . . فسوف يتلقى ردا منا بعد ثمانين عاما! .

والعلماء سعداء جدا بهذا الاكتشاف ، لأنه ابتداء من هذه اللحظة فى استطاعتنا ، أن نقول : إننا لسنا وحدنا فى هذا الكون . . وإنما هناك احتمال أن تكون حياة . وليس من الضرورى أن تكون هناك خلايا عضوية . . لأن هذين الكوكبين غازيان وليس لهما جوف مادى صلب كالأرض . وهذه الخلايا العضوية هى التى نشأت فيها كل أشكال الحياة فى كوكبنا ، أو فى أية كواكب أخرى منتظرة . ويكفى أن يكون هناك ماء . . فمن الماء جعل الله كل شىء حى . . وكان ذلك حلم الشعراء والأدباء من مئات السنين . وقد حاول المؤرخون والأدباء ، أن يفسروا ظهور كائنات غريبة من الناس ، على أنها جاءت من كواكب أخرى ـ دون أن يكون لديهم أية معلومات عن وجود كواكب مسكونة فى أى مكان من العالم . ولكنه احتمال عقلى ـ لأنه ليس معقولاً أن تكون الأرض وحدها «المسكونة» فى هذا الكون . فإذا عرفنا أن فى الكون خمسين ألف مليون سديم ، مثل «الطريق اللبنى الذى نعيش فيه» ، وأن فى كل سديم ألف مليون شمس ، وحول كل شمس عدد من الكواكب . . ففرصة أن تكون هناك حياة على واحد من هذه الكواكب احتمال عظيم . وفى الأساطير القديمة الهندية ، والبابلية ، والإغريقية ، وجدنا أناسا وكائنات غريبة ، وكذلك فى «ألف ليلة» . . لم نجد لها تفسيرا علميا . ولكن أقرب إلى العقل وأسهل أن نقول : إنها هبطت . . أو ألقى بها بيننا وعلى أرضنا . لماذا ؟ لانعرف . .

وظهر بيننا الأطفال الغزلان والأطفال الذئاب ـ أى الذين أرضعتهم ورعتهم الغزلان والذئاب ـ ظهروا فى الهند وفى الأردن وفى ألمانيا . . ولانعرف إن كان ذلك هو التفسير الصحيح لوجود هؤلاء الأطفال . .

وفى سنة ١١٥٠م فوجئ سكان إنجلترا وفى منطقة «وكر الذئاب» بطفلين لونهما أخضر : ولد ، وبنت . الولد أكبر سنا . ولايعرفان أية لغة . واستحال التفاهم معهما . ولكن الإنجليز حبسوا الأخوين فى إحدى الحظائر وقدموا لهما طعاما . امتنعا عن تناوله أياما حتى كادا يموتان . وأخيرا تناولا الطعام الإنسانى وتغير لون بشرتهما . ولم تكن صحتهما جيدة فى أى وقت . ولم يكن من السهل التفاهم معهما . ولكن بمرور الوقت تعلما بعض المفردات . ثم مات الولد . وبقيت البنت ، التى قالت ؟ إنها جاءت من كوكب آخر . الكوكب مظلم . ولذلك فهى سعيدة بالضوء والضباب والسحاب فى إنجلترا . ويقال : إنها تزوجت . ويقال : إنها ماتت . . ولكن المؤرخين يؤكدون أن هذا ما حدث !

ومنذ ذلك الحين ، ومنذ أن اتجهت عدساتنا إلى الفضاء الخارجى ، وانطلقت حول الأرض سفن الفضاء ، ودارت حول القمر ونزلت فوقه واتجهت إلى الكواكب الأخرى . . وأنزلت أجهزتها إلى جو هذه الكواكب ، تقيس الضغط والحرارة والرطوبة والجاذبية ، وتتعرف على العناصر الأولى لها ، لتعرف أصل الكون ، الذى خلقه الله منذ ١٥ ألف مليون سنة ـ وليس هذا الكون هو الوحيد ، وإنما هناك ألوف ملايين الأكوان . . وكلما تقدمنا خطوة إلى فوق ، انتعشت أحلامنا فى أن نجد أحدا نتحدث إليه . . يساعدنا على حل مشاكلنا . . أو يهدينا إلى مكان آخر نعيش فيه ، بعد أن ضاقت بنا الأرض وضقنا بها .

ونحن نحلم بأننا سوف نذهب إلى مكان أفضل وأجمل . ولكن المشكلة التى سوف تبقى هى أن الإنسان هو الإنسان ، لم تتغير غرائزه ، وشروره وطمعه ، وحبه لذاته . . هذه العيوب سوف ننقلها

معنا إلى فوق . . كما نقلنا المعارك الأرضية إلى الفضاء فقد كنا نحارب من القلاع ، والآن نحارب من القلاع الطائرة . . ومن الصواريخ وسفن التجسس . . إنها حرب النجوم . . إنه نفس الجشع والسفالة الإنسانية . . ولكن على مستوى رفيع !

فكأن الإنسان بعلمه وعبقريته ، رفع مستوى الانحطاط والسفالة من الأرض إلى السماء !

الشاعر ابن الإيه

(١)

أمير الصعاليك اسمه «عروة بن الورد» ، يريد أن يكون غنيا . وأن تكون عنده فلوس . لأن الذى يملك المال يملك الناس . يملك الكلمة والسطوة . ومهما كان كلامه سخيفا فسوف يراه الناس ذهبيا ، ومهما كان الفقير حكيما فكلامه تراب يريد الناس أن يكنسوه . .

ويكفى أن تقرأ ما كتبه الفيلسوف الصعلوك المتسول «أبو حيان التوحيدى» ، وأن تتأمل حياة أمير الشعراء «المتنبى» . إنه جائع صعلوك وليس عنده مال . . ولكن إذا مدح أعطوه مالا ، وإذا لم يعطوه شتمهم ، وهو رائع فى جميع الحالات . .

يقول أمير الصعاليك «عروة بن الورد» :

ذرينى للغنى أسعى فإنى
رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له حسب وخير
ويقصبه الندى وتزدريه
حليلته وينهره الصغير !
وتلقى ذا الغنى وله جلال
يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه ـ والذنب جم .
ولكن الغنى رب غفور !

ولكن الغنى - بحق وحقيق - يرى أنه فقير . . لأنه يعيش بفلوسه . . يشترى الكلام بالفلوس . . والحب والصداقة . . فكل الذى حوله من صنعه . . وإذا لم تكن عنده فلوس انفض الناس من حوله أليس محروما ؟ أليس فقيرا ؟

يقول الأمير «عبد الرحمن بن مساعد بن عبد العزيز آل سعود» فى شعره العامى - يسمونه النبطى - فى السعودية :

فقير . . وعندى المال الكثير
فقير . وملبسى غالى حرير
ابنشدك . . ابسألك
وشو الحصير ؟!
وباسألك وايش لون أنا
أمر وانهى . ولا حكيت
قبل انتهى من كلمتى
يقال لى : سم ! ويصير
ولا شكيت من غفلتى
طول زمنها
يقال لى : لاتشتكى
ما خلقت الشكوى لأمير !
وباسألك وايش لون أنا
مع كل ذا أقول عن تفسير فقير ؟!
يا صاحبى لا صار للضحكة ثمن
وصاروا أصحابى كثير بس بثمن
والوفا مايه وفا إلا بثمن
ابسألك ما أنى فقير ؟

ولا صارت أقوالى حكم
ولا قالها غير غدت حكى قديم
ابسألك ما أنى فقير ؟!
ويا صاحبى أبنشدك
لا من جفتنى دنيتى
وابتدا الدرب الطويل
اللى ابدا ما ينتهى
وانتهى اللغز القديم
وما كنت أظنه ينتهى
والموت بدد فرحتى
وحطونى فى قبر صغير
وارتاح من وجهى كثير
وبقيت وحدى فى حيرتى
لا طال عمرك . . ولا تحت أمرك
ما غير أنا . . وموت ولحد وحساب
قدامى عسير . . الخ فالقاعدة : ادفع . .

فإذا دفع أخذ يقول . . وعقول الناس : يا طويل العمر . . وتحت أمرك . . وتأمر أمر . . وإذا لم يدفع فالدنيا من حوله فراغ . . خواء . . خلاء . . وفى قبره يكون وحده مع العذاب وحده . .

وفى الأساطير الاغريقية توجد شخصية خرافية اسمها (الجرجون) إذا نظرت إلى أى شىء صار حجرا . . فهى معذبة . . حبيسة الأحجار . . لا ذنب لها . . إلا هذه القدرة الفريدة على تحويل كل شىء إلى مقبرة . . إلى خراب . . إلى تراب . . إلى عدم . . ولم يعرف الناس ماذا يفعلون بهذا الكائن الأسطورى القادر

على (إعدام) الوجود . . فوضعوا لها مرآه لترى نفسها . . فلما رأت تحجرت !!

وهذا الأمير . . وهذا الغنى هو (الجرجون) الذى لديه القدرة على أن يجعل الناس من حوله خدما ومتسولين . . ومغرضين . . وكذابين ومنافقين ـ ولا ذنب له فى ذلك . . إنها القدرة الهائلة للفلوس التى تعمى العين وتصم الآذان وتقطع الألسنة . .

أليس الجرجون تعيسا . . أليس الأمير كذلك . .

ولكن حريته الوحيدة هى أن يقول ذلك . . ويثير إشفاقك . . وعطفك أو يعجبك . ولكن لا هو قادر على ألا يكون أميرا ، أو غنيا . .

فالناس شرهم الفقير . . والغنى أيضا !

والشاعر «عبد الرحمن بن مساعد» عنده مشكلة تقليدية . ليس لها حل . إنه شاب مندهش وسوف يندهش أكثر عندما يعرف أن هذا الذى يدهشه ويذهله يجب ألا يكون كذلك عندما يكبر . فهذه هى حال الدنيا . ولكن دنياه هو «غير شكل» كما يقول الشوام . .

فحريته الوحيدة هى أن يحب وأن يموت فى الحب . وأن يندهش . ولكن مشاكل الناس وهموم الناس ليست مشاكله . فهو أمير . ولا شأن له بالسياسة . والسياسة هى علم وفن تنظيم العلاقات الإنسانية . . وهو محكوم عليه بالسجن فى داخل القلب . أى قلب . . ومحكوم عليه بالحرية بعيدا عن الناس . إنه أمير . . ولذلك فهو رغم أنه إنسان . . لايستطيع أن يكون واحدا منا . . فالله أعطاه موهبة ، هذه الموهبة شخصية . . له وحده . . أما أنه أمير ابن أمير ابن ملك ، فابنه أيضا أمير ابن أمير . . ولكن

موهبته الشخصية فى الشعر والموسيقى والغناء والتلحين ، من عند الله وحده ، وله هو وحده . .

يقول الأمير الشاعر مندهشا من زماننا :

● جميل هذا الوقت محبط
ارفع حجر تلقى مغنى
اكتب شعرا تصير شاعر
اكتب صحافة تصير سيدا للثقافة
جميل هذا الوقت محبط

● اكتب بما يرضى ضميرك
تصير حاقد . . اشتم بحدة
تصير ناقد .
نافق بشدة .
يصير مستقبلك واعد
جميل هذا الزمن محبط .

● اسرق رغيفين .
تصير المجرم السارق
اسرق ملايين
تصير الماجد الحاذق
اشرب على وقت العشا
كاسة نبيذ
اسمع لشوبان وارقص الفالس
تصير متحضر
اطلق اللحية ورتل القرآن
وصلى الخمس تصير إرهابى

اجرح يهودى تقوم هالدنيا وتقعد
اهتك أعراض . . ثكل يتامى
شيل بيت واحرق مسجد
تقوم الدنيا وتسكت !
ويقول فى قصيدة أخرى :
● عجب عجاب كثر الفقر ماله
كل يبغى قربه ورضاه
رغباته قوانين زلاته صواب
الناس حوله من شمال ويمين
يأمر يطاع
الدول تحسب حسابه
والكل يخشاه ويهابه
لكن مريض يا عذابه
ممنوع يأكل
لو أكل جايز يموت
عجب عجاب
● مرتاح الضمير
لا سرق لا ظلم لا حسد
عنده قليل أصحاب . . قلبه كبير وبيته صغير
والمرض عن صحته : بعيد بعيد
عنده ثلاث أطفال
أحمد وإيمان ويزيد
وأمهم . وكثر السما يحبهم
لكن فقير . . فقير

ما لقى لصوته مسامع
ما يملك إلا طيبته وملح المدامع !
ولو ما دفع مبلغ حقير
ينطرد هو والعيال وأمهم للشوارع !

● عجب عجاب
عبقرى فى الطب ملحد
عجب عجاب
شاعر عظيم داخله فارغ
عجب عجاب
ملايين البشر تعبد بقر
عجب عجاب
ما تصلى فرضها وتلبس حجاب
يا سامعى اعطنى يقينك والظنون
اعطنى يقينك والظنون
من ودك تكون ؟!

وتساؤلات الشاعر الأمير لا نهاية لها . . والفقراء عنده نوعان . . فقراء وأغنياء . . فالفقير لا أحد يستمع إليه ولا يراه . . والغنى لا أحد يستمع إليه ولا يراه أيضا .

والأول فقير . لأنه لايملك ما يعطيه . . والثانى فقير لأنه يملك أن يعطى لمن ينافقه ويجاريه ويكذب عليه . . فكلاهما محروم . . هذا محروم من كل شىء . . وهذا محروم من كل شىء . . وهذا محروم من الناس المخلصين الصادقين الذين ينظرون إليه ولايرونه ويسمعونه ولا ينصتون إليه . كأنه ليس أميرا ، وإنما هو «مندوب» عن أمير عنده فلوس . . فهو ظل أمير . . رمز أمير . .

ولم يكن مخطئا كثيرا الشاعر الكبير الأمير «عبد الله الفيصل» عندما وصف نفسه بالشاعر المحروم . . والآن عرفنا من أى شىء كان محروما . . محروم من أن يكون فقيرا لايملك شيئا يمر على الناس فلا يرونه . ويتكلم فلا يسمعونه . . وهو أمير أيضا يمر على الناس فلا يرونه إلا إذا دفع ولا يسمعونه إلا إذا دفع .

ولكن أى نوع من الفقر تختار يا أمير ؟

طبعا يختار المال وهذا النوع من الفقر ؟ ولكن بالموهبة الشخصية الفذة . . يستطيع أن ينظر إلى الناس من فوق : الفقير الحقير . . والفقير الأمير . .

والمال يذهب والفقر يذهب . . ولايبقى إلا الفن !

(٢)

والشاعر الرقيق اللطيف العنيف الأمير «عبد الرحمن» ابن نكتة وابن بلد . . يضحك كثيرا وبأعلى صوته فليس حزينا كئيبا طول الوقت . وليس محروما من الأصدقاء . عنده كثيرون يحبونه ويعجبون به . . وهو سعيد بهم وهم يسمعونه يعزف ويلحن ويغنى . . وليس مسموحا له أن يغنى ولا أن يقول : إنه ملحن . . يكفى أنه شاعر . . وإذا غنى له أحد فإنه لايذكر اسمه كأمير . . وإنما كواحد له اسم يشبه اسم الأمير . .

ويتكلم اللهجة المصرية . ويعرف الكثيرين من المصريين الفنانين والصحفيين . . وهو سعيد بذلك . وهم أيضا .

وفى شعره تجد النكتة والقفشة ، حتى وإن كان طعمها مرا ومذاقها لاسعا . فهو يضحك . والقدر يضحك . والنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول : يدبر المدبرون والقضاء يضحك . . والشاعر يسجل ذلك فى قصيدة نبطية ـ أى بالشعر السعودى العامى ـ يقول :

مسكين شين وفقير
وفى الدراسة حاول أن يستمر
وما استطاع . وضعه صعب
أبوه مات وهو صغير
وما ترك إلا الفقر وأمه وأخته
والهم من فوقه وتحته
وما لقى لأجل الهروب من الضياع
إلا أنه يدور وظيفة أى وظيفة

ولقى من ضيقه مخرج : وظيفة
دخلها معقول يمشى الحال . ولو اعرج ومرت سنة وسنين
والمسكين صارت كل أفكاره :
زواج وتزاحمت فى داخله الأسئلة :
أين هى اللى بتقبله . وليه ؟
وفى يوم ما قبله أبد شافها
أجمل من أجمل ما رأى
وضحكت له . مستحيل! ضحكت له ؟!
ومشت من أول الحارة
ولحقها . ودخلت فى بيت جاره
سأل عنها وعرف : قنوعه واسمها سارة . .
وتصير أخت لامرأة جاره
أرسل لها أخته تجس النبض
جت البشاير وافقت .
راح لأمه وفرحته كبر السماء والأرض أبشرى يا أمه . لقيتها يا أمه .
سارة أخت (حصة) مرة (منصور)
أبغيها وهى تبغينى وأبغى منك الشور
خلاص يا أمه خلاص .
بأقول لهمومى : الوداع
بأقول لهمومى : الوداع
قالت له أمه : يا ولدى
بس هذه أختك فى الرضاع !
ومن أروع قصائده واحدة بعنوان : مليت

قالت لى : مليت
مليت مليت
ودى بأحد غيرك
جمع جروحك
غنى مشاويرك
وإذا قضى صبرك
جرب صبر غيرك
ولو أشغلك أو عذبك
طيفى . ابكى
وإذا بكيت
اكتب بدمعك شعر
واشكى لمراسيلك
وباوعدك إذا صرخ جرحك
ونادى دمعتى تنزل عليك
باضحك على أيامى معك
وأخد على عذرى عهد
ما يخلص لغيرك
«اعوذ بالله ـ أنا الذى أقول» .
اعذرنى مليت
ماتبغينى . . ملت الصدق المشاعر
ما يبغينى
يقول أن المشاعر ملت أن تكون صادقة ـ الله يا أمير !
ما تبغينى
يا نور أيامى وسنينى اللى مضت

يا الظلام . . اللى بيجينى
ما بقى فينى بقايا
اتركينى
تخطين . . تخطين
لو يخطر فى بالك
أنك فى بالى كل دقيقة
وأنك خيالى والحقيقة
وأنى أحبك مهما كنتى
ياقيظ عمرى وزمهريره
إن كان قلت أنى نقذتك ما صدقتى
وإن كان قلتى مانسيتك
ولو عرفتى ما اذكر من اللى مضى لى
إلا أنتى
وما أذكر إلا أنى بكيت
وفى ليلة ما فيها وفا
قلتى لى : مليت
يا أنتى آخر أولى :
لاتصدقى أنى نسيت !
الله يا أمير ـ أنا الذى أقول .

صحيح أنك تعزف على «الأورج» وتسجل ألحانك وألحان غيرك وتغنى لنفسك ولغيرك . . وتنشر شعرك الحزين . . ولكن اللمعان الذى يتألق فى أبياتك ليست دموعا . . وإنما هى حبات الماس . . إنها المعانى المركزة الكثيفة . . بلورات الفن والصدق . . وأنت

وحدك الذى تنسج تاج الشعر على رأسك وتضعه بيدك وتجلس وحدك فى قاعة ذهبية الألوان هامسة الألحان . .

وأنت تغمس قلمك فى لونين . . الذهبى والرمادى . . وتعزف على آلة موسيقية ذات وترين : العزلة والحنين . .

وليس كل من يقول لك : الله . . عينه على جيبك . . ولا كل من تقول : آه . . عينها على حضنك فإن لم تصدق ذلك . . فأنت الذى اخترت أن تكون فقيرا ، كما اختاروا لك أن تكون أميرا !

ولكن أحد لم يختر لك أن تكون شاعرا ، فهذه هبة من السماء!

الحيوانات ألطف !

(١)

أجمل الكائنات : النساء والخيل والغزلان . . والمرأة هى وحدها التى تجمع كل صفات الجمال والعذاب فى هذه الدنيا فالله قد ابتلى بها الإنسان فهى أحيانا إنسان.وأحيانا حيوان . . وأحيانا أم رقيقة وأحيانا قاتلة بلا رحمة . والمصيبة أننا لانجد لها بديلا . . فمن الممكن أن أنشغل بالغزلان عن الخيول وبالكلاب عن الغزلان . . لكن المرأة لا بديل عنها . والذين عرفوا المرأة أحبوا الحيوانات أكثر . لأن هذه الحيوانات ألطف وأكثر وفاء . .

ولعيوب فى تكوين المرأة فإنها لا وفاء لها ولا عهد ولا أمان لها ولا أمان معها ـ على عكس الخيول والغزلان والكلاب . .

قال المتنبى أحكم الشعراء وأشعر الحكماء :

إذا وعدت الحسناء وفت بعهدها
فمن عهدها ألا يدوم لها عهد
وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا
وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء وربما
يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد!

ومن زينة الحياة : النساء والفلوس والخيل .

وقد انفتحت عيناى منذ سن صغيرة على الخيول وفى سن كبيرة على النساء . ولم تنفتح على الفلوس .

فقد كان والدى يركب حصانا أسود جميلا وكان يحدثه كأنه إنسان ويقبله ويعانقه ويضع السكر بين شفتيه . وهو لا يفعل ذلك مع الحمير . . فالحصان له مكانة رفيعة . . ويلقى عناية شديدة هذا يغسله وهذا يهرش له . . وهذا يطبطب عليه . . وهذا يحدثه . . إنه إنسان إلا قليلا . . وأحيانا أحسن وأجمل من الإنسان . .

ولم أعد أرى الخيول بعد ذلك فقد كانت على صلة بوالدى فلما مات ، ماتت . ولكن بقيت مثل هذه الذكريات ولم يبق إلا الصورة البديعة لهذا الحيوان النبيل الجميل وإذا رأيت صورة لحصان توقفت عندها . . وربما كان حبى لأفلام رعاة البقر ، ليس راعى البقر ولا البقر وإنما الحصان . . هذا الكائن الشجاع النبيل الأبهة . . وإن كانت أفلام رعاة البقر لا تتجه إلى الحصان وإنما إلى راعى البقر وبطولته وشجاعته ومعاركه مع الهنود الحمر أو من أجل الأبقار . . وربما انشغلت عن مسار الفيلم بالنظر طول الوقت إلى الخيول . ليس فى حركاتها جديد .

ولكن الجديد فى داخلى أنا . . أحبها ولم أذهب فى الحب إلى أبعد من ذلك فلا تمنيت أن يكون عندى حصان ولو استطعت أن أشتريه فلن أجد له وقتا فأنا مشغول بأشياء أخرى كثيرة ليست الخيول من بينها فأنا أحبها كما أحب القمر ـ هو فوق وأنا تحت . . حتى الذين ذهبوا إلى القمر ونزلوا عليه وجدوه صحراء قاحلة جافة ميتة . فالقمر جميل كمرآة تعكس أشعة الشمس على الأرض .

والأغنية المصرية تقول :

كلنـــا نحب القمـــر

والقمـــر بيحـب مـين

حظنـــا منـــه النظـر

والنظر راح يرضى مين ؟

يرضينى أن أرى وأتأمل وأتمتع دون أن أفكر فى الصعود إليه . . وإن كان المقصود بالقمر هو المرأة . . أو هو الحصان . . أما الحصان فحكمه حكم القمر . . حظنا منه النظر والنظر وبس يرضينى . . أما المرأة فحيوان آخر جميل وكلنا يريد أن نقترب وأن نمتلك وأن نندم على ذلك بعد ذلك !

ولابد أن كل المشتغلين بالأدب وعشاق الشاعر المتنبى قد ندموا على أنه هو الذى اختصر عمره فعندما هاجمه أعداؤه . . أو جماعة من اللصوص ليسرقوا أمواله دون أن يعرفوا من هو . . حاول المتنبى أن يهرب فما كان من خادمه إلا أن قال له : كيف تهرب وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم !

أما إن الخيل والليل والسيف تعرف المتنبى فليس صحيحا وأما إن القرطاس والقلم يعرفانه فهذا صحيح والمصيبة أن المتنبى قد صدق الذى قال فحاول أن يقاوم خمسة من اللصوص فقتلوه وأخذوا أمواله . .

وكرهت الخيل التى جاءت فى شعره ، وكرهت هذا الخادم الذى صدق سيده وكرهت المتنبى الذى صدق نفسه . .

أما الحصان فتركه اللصوص فلم يكن حصانا جميلا . . وإنما هو الحصان الذى يليق بشاعر بخيل والذى كان وسيلة انتقال ولم يكن أمير الخيول كما كان صاحبه أمير الشعراء !

(٢)

وكلما أتيحت لى فرصة أن أرى خيولا كثيرة جميلة ، فإننى أبادر إليها . وأجلس أتفرج وأمتع العين بهذا المخلوق الجميل الذى هو خلاصة العناية والرعاية والجنون لعدد من الناس القادرين على إطعامه وتربيته والحفاوة به والحرص على أن يكون هذا الحصان أجمل من كل الخيول .

فإذا فاز بجائزة راحوا يطلقونه على الإناث مقابل مبالغ مالية كبيرة تصل إلى المليون والمليونين . . وهكذا يكسبون من وراء (فحولة) هذا الفارس الجميل . .

وفى العام الماضى جلست أتفرج على مسابقات الجمال للخيول العربية فى مصر . فلا رأيت ولا انبهرت أكثر من تلك الساعات . فالذى رأيته طار بى فى السماء . . ولا أزال فوق أرى وأتأمل وأحلم . . ولم يخطر على بالى لحظة واحدة أن أكون صاحب حصان أو مزرعة . . وإنما فقط أن أكون أحد المعجبين والعشاق . .

ولم أستطع أن أميز بين جمال إناث الخيول وذكورها . . ولا حتى صغارها . .

وكتبت وحكيت وكتبت . . وتمنيت لو عندى حكايات ومعلوماتٍ لكى أكتب أكثر .

وذهبت إلى (دبى) وفى دبى تصادف وجود مهرجان للفروسية والخيول الجميلة . ورأيت الخيول تجرى . ولايهمنى كثيرا سباق الخيل - فالسيارات أسرع والطائرات أسرع والصواريخ أسرع . .

ولكن يهمنى أن أرى الحصان يمشى مرفوع الرأس والذيل والأذنين قويا فتيا . الله !

ويهمنى أكثر أن أرى المهرة فى جمالها ودلالها وهى تمشى تتمخطر وتتلوى وتتكسر وهى تعلم أنها جميلة وأننا جميعا مسحورون بجمالها . . لقد رأيت عشرات المهرات الفاتنات . . ورأيت كيف أنها وحدها تتقصع كأية راقصة بالية ـ وأحيانا كراقصة شرقية . . الله عليها إذا تركناها تجرى وحدها أمامنا . . وتختار من الخطوات ما يعجبها هى . . الله الله . . لقد رأيت ما جعلنى أقف وأقعد . . وأقترب وأبتعد . . إنها تجرى على شكل خطوط . . ثم دوائر . . ثم تتوقف فجأة . . وتلتوى وترتد بسرعة هائلة تؤكد مرونتها وقوتها ودلعها . . الله عليها الله !

وطلبت أن أتفرج على إصطبلات الأسرة الحاكمة فى دبى . . إنها أرقى وأجمل وأغلى الخيول العربية أو الخيول المهجنة على الإطلاق فى هذه الدنيا .

وكتبت وحكيت فى كل مجلس والميكروفون وعلى الشاشة . . كأننى اكتشفت حيوانا جديدا . . أو كوكبا جديدا لم يكن معروفا فى المجموعة الشمسية . مع أن الخيول قديمة ، والاهتمام بها من ألوف السنين . . ومع أن الخيول آسيوية الأصل . . عربية . ولكن لاتزال أحسن الخيول وأنقاها هى المصرية التى حرصت على نقاء الدم العربى وتصديرها إلى كل الدنيا .

فعلا هى قديمة . ولكنها دخلت عالمى حديثا جدا . فهى جديدة فى عينى ، وأنا جديد على عالمها ، وبسبب هذا الإحساس بأنها جديدة وأنا جديد ، كنت مسحورا بها . . أدعو إليها وإلى الفرجة

عليها كأنها اكتشاف جديد . . وبذلك تتضاعف لذة المتفرجين عليها والمشتغلين بتجارتها وتربيتها وصيانة سلالتها العربية أو العربية المصرية الأمريكية الإنجليزية .

ورحت أقلب فى كتبى فوجدت كتبا عن الخيول وتاريخها الطويل ومتى دخلت مصر وكيف ظهرت على جدران المعابد والمقابر والأدب المصرى القديم . . وأشهر الخيول فى التاريخ وماذا فعلت . وحكاية الإسكندر الأكبر وحصانه بوسيفاليا . . وحصان نابليون مارنجو . . وحكاية حصان طرواده الخشبى الذى وضعوا فيه جنودا وأدخلوه فى أحد الحصون وقفز الجنود وقتلوا وذبحوا واستولوا على الحصان والموقعة والمعركة التاريخية .

وحكاية الملك الذى أقام جنازة رسمية لحصان . . والملك الذى بنى للحصان ضريحا . . وحكايات أخرى كثيرة مثيرة . .

واكتشفت أن لدى مشروعات كثيرة متشابهة . فعندى حقائب بها كتب لمشروعات كتب عن موضوعات مختلفة . وخشيت أن يؤدى البحث عن الخيل ودراستها إلى إفساد التمتع بها . .

وقد جربت ذلك كثيرا . . فقد حاولت من قبل أن أجعل الشطرنج هواية أنصرف إليها عندما يرهقنى التفكير والعمل . وفى أول الأمر كنت ألاعب الأطفال فى الأسرة والزملاء . . وفجأة فسدت هذه الهواية عندما رحت أقرأ عنها . . وأقرأ عن المباريات الدولية لكبار اللاعبين . . وأحاول أن أعيد مبارياتهم التى توقفوا فيها . . وأرهقنى ذلك كله . . فكنت إذا لعبت مع أصغر طفل فى الأسرة ، فلا يمضى وقت طويل حتى أجده يصرخ : كش الملك . . ويموت الملك وينتهى اللعب . كيف ؟

والجواب بسيط : أنا فكرت وفكرت وتوقعت احتمالات كثيرة . وأرهقنى ذلك . . ولكن اللاعب الذى أمامى يرى أوضح وأبسط ويكتشف فجأة أننى حركت قطع الشطرنج يمينا وشمالا ولم أتنبه إلى أن الملك بلا حماية قوية . وبسرعة يقفز الحصان وتتحرك الطابية وأجد الملك قد مات . . والحقيقة أن الذى مات هو اللعب . . اللعبة . . الهواية قد ماتت . . وأعدل نهائيا عن الشطرنج . . وخشيت أن يتكرر ذلك فى حبى للخيول ، فعدلت عن تأليف كتاب عنها .

(٣)

وفجأة وجدت صوتا من دولة قطر . . الصوت مصرى شديد التحمس ، إنه اللواء إيهاب عبد العزيز يقول لى :أنت مدعو لزيارة قطر لموضوع يهمك جدا ، فعندنا مهرجان الفروسية لاختيار أجمل حصان ومهرة عربية . . إنها بطولة قطر الدولية لمسابقة جمال الخيل العربية الأصيلة لسنة ١٩٩٦ . . إيه رأيك ؟

إيه رأيى . . موافق طبعا . . وكنت وقتها أحضر ندوات مهرجان الجنادرية الأدبى موافق طبعا ، وفى المطار وجدت رئيس اتحاد الفروسية ، ووجدت اللواء إيهاب عبد العزيز إنه مصرى رياضى ابن بلد لطيف متحمس للخيول ، وليس فى حياته إلا الخيول من كل الأنواع وحكاياته مسلية وممتعة ، إنه نموذج للعاشق الولهان ، وعشقه الأول والأخير لعمله ـ أى للخيول العربية .

وفى لحظات يمكن أن تكتشف أن هذا الرجل يحب كل الناس والناس كلهم يحبونه ، فأنت تجده فى أحضان الناس والناس فى حضنه ، وعنده وعندهم ما يقولونه ويضحكون إنه متعدد الأطراف والأحضان والقبلات . . إنه يعيش بالحب على الحب ومن أجل الحب الوحيد : الخيول العربية . . أجمل أنواع الخيول .

قلت له بمنتهى الوضوح . . أنا حديث العهد بالخيول . . ومعلوماتى قليلة ومشاعرى كثيرة . . وأريدك أن تساعدنى على أن أقرأ ، هات لى أى عدد من الكتب وبأية لغة . . واتركنى وحدى حتى الصباح وسوف تجدنى إنسانا آخر . . قرأ ودرس وفهم وحلل . . وعندما أواجه الكاميرات سأكون على علم لا بأس به . .

وذهبت إلى مكتبة فندق «انتركونتننتال بالدوحة» ولم أجد فى المكتب كتابا واحدا بأية لغة . . وأدهشنى ذلك ، ولكن من المؤكد أن الذين يحبون الخيول لايحتاجون إلى كتب . . فالذى يحب الحصان أو المرأة لايحتاج إلى كتاب أو صورة أشعة ، إنها تملأ عينه وحضنه وبس وبسرعة ، أما الندم فسوف يجيء على مهل ، المهم أنه يحب ، ثم إن الذين مارسوا تربية الخيول والفرجة عليها عشرات المرات فى السنة لايحتاجون إلى كتب بل إن الذين يؤلفون الكتب هم الذين يحتاجون إلى هؤلاء الناس .

وبسرعة تلاحقت الأحداث . . وفى اليوم التالى ذهبت إلى أرض المهرجان ، وطال الوقت ، أو أحسست أنه طويل أكثر من اللازم وأن إيقاع الحياة بطيء جدا ، وأن الوقت لا علاقة له بالساعات التى فى الأيدى . . وإنما له علاقة بفناجين القهوة العربية والشاى الذى يقدمونه طول الوقت ، ويبدو أن المهرجان لن يبدأ قبل أن يشرب الواحد منا عشرين فنجانا من القهوة ، فليكن فالجو بديع والأرض خضراء ، والمقاعد تحت المنصة مريحة ، والناس هادئون ، والأجانب شديدو الحيوية والتركيز ، والمصورون من أوروبا ومن إسرائيل ، والأميرة عالية ابنة الملك حسين هى أهم شخصية فى الضيوف ، لها وجه أمها الملكة عالية ولكن لها حركات والدها الملك حسين خاصة عندما تتكلم الانجليزية وتحرك عينيها وحاجبيها ، طبعا لغتها الإنجليزية سليمة جدا .

وتلفت ورائى أسأل اللواء إيهاب عبد العزيز وبحيوية وبسرعة نهض يقول لى . . حالا . . أى أن المهرجان سوف يبدأ حالا . . ويجب أن أصبر . . فالوقت طويل ، وسوف نتفرج على الخيول

ونتناول الغذاء بالقرب من ساحة المهرجان ونعود إلى استكمال الفرجة . . اليوم وغدا وأسبوعا طويلا عريضا .

ثم أعطانى كتابا صغيرا عن لوائح المهرجان الممنوع والمسموح . . فالممنوع هو تغيير ملامح الحصان . . تغيير لون شعره . . أو تلميع حوافره . . أو إجراء أية عمليات تجميل له قبل المهرجان . . أو توسيع عينه باستخدام أنواع من القطرة . . أو شد أذنه إلى أعلى وكذلك ذيله . . وممنوع حقن الحصان بالأوزون لتنشيط الدم فى جسمه . . وممنوع استخدام العقاقير المنشطة للحصان . . وإذا لاحظ أعضاء لجنة التحكيم ذلك حللوا دمه وبوله ، وأرسلوا بهذه العينة إلى أمريكا . . وإذا اكتشف الأطباء هناك هذه المادة المنشطة طردوا الحصان وصاحبه والمدرب من المهرجان . . وهى فضيحة عالمية !

وإذا ظهر أى خدش فى جسم الحصان فى أى مكان خرج فورا من السباق !

وأعضاء لجنة التحكيم دوليون مشهود لهم بالأمانة والصدق . . ولا أحد يقترب منهم وأحكامهم مطلقة ، وهم عادة ثلاثة أو أربعة وهم يقفون فى الساحة أو فى المضمار يتطلعون الحصان من كل الجهات . . ويرونه واقفا وماشيا وراكضا وراقصا وقريبا وبعيدا ، ويعطونه درجة ثم يعلن متوسط الدرجات على كل الناس . . يعلن اسم الحصان أو المهرة والإسطبل الذى جاء منه واسم صاحبه .

أما الدرجات فتعطى على خمس صفات المنظر العام والرأس والعينين وانسياب الجسم والكفل والذيل وعلى أرجله وأخيرا على حركته ، والدرجة من عشرين أى مجموع الدرجات مائة .

وهناك من يمسك الحصان ويجرى به أمام الجمهور يمينا وشمالا ، والذين يمسكون الخيول عالميون ، لهم دراية خاصة بحسن العرض ، ويعرفون مواطن الجمال فى الحصان ، والعرض فن ، وكان من بين العارضين سيدة بريطانية يأتون بها خصيصا لعرض الخيول ولها براعة خاصة ولها قدرة فريدة على إبهار المشاهدين واقناع المحكمين بأسلوبها الدقيق فى العرض والأداء .

وسألت جارى : إن كان من الممكن أن أصفق ؟

فقال لى : لاتفعل لأنك سوف توجع يديك . . فالجميلات كثيرات جدا !

(٤)

الحصان الجميل له ١٥ صفة . . ثلاث من الرجل وثلاث من المرأة وثلاث من الثعلب وثلاث من الأرنب وثلاث من السيسى أى البغل الصغير . .

من الرجل : الجرأة والكبرياء والقوة . .

ومن المرأة : الصدر والشعر الناعم والرشاقة . . ومن الثعلب : الذيل الطويل والأذن الصغيرة والخبب «أى رشاقة الجرى» ومن الأرنب : العين الكبيرة والرأس المشدود والحيوية .

ومن السيسى : الذقن والساق والحافر . .

والخيول نفسها أنواع : كبيرة القد أو الربعة أو القزمة . .

والطول : السلاهب والقصار والمتوسطة . .

ولحب العرب للخيول فكل جزء فى جسم الحصان له اسم : الصهوة والبطن والخد والصدر والإكليل والكفل والحافر والأذن والذقن والعين والجفن والذراع والجبهة والورك والرأس والعرقوب والركبة والساق والقوام والخطم والعنق والرسغ والعرف والقذال «القفا» والضلع والصدغ والفخذ والمسنبك والعضد والغارد . .

أما ألوان الخيول فهى : الأزرق والكميت «الأشد حمرة» والأدهم أى الأسود . . والأدرع أى الذى رأسه أسود . . والأغر أى الذى له غرة بيضاء . . فى جبهته . . والأشقر «الأحمر المائل إلى الصفرة» . . والأرقط .

والمحجل والحاتم . . والتخديم أى عندما يجاوز البياض الرسغ والبحيب أى الذى له قوائم بيضاء لايبلغ الركبتين .

وعشرات من الصفات والأسماء وتداخل الألوان والصفات . .
ولكن الخيول العربية هى الأرشق والأجمل . وإن كانت الخيول المهجنة أكبر كأنها فراشات تطير . . وكأنها خفيفة لا وزن لها وإنها تقفز دون أن تلمس الأرض . . وهؤلاء الحكام المدربون يستطيعون أن يقدروا كل هذه الصفات بسرعة عجيبة . .

والدرجات التى يعطونها لكل صفة من صفات الخيول متقاربة جدا . . وعلى الرغم من أنه لا صلة بينهم فإن الدرجات تكاد تكون واحدة . . أذكر أننا رأينا مهرة بديعة . . وصفق الناس لها قبل أن تقترب من المنصة . . وسمعت اللواء إيهاب عبد العزيز يقول : هذه هى الأولى . . وسوف تحصل على الدرجات النهائية . .

هذا مؤكد ! ممكن . فهو رجل مدرب وقد رأى ألوف الخيول . ولكن أحيانا لاتستطيع العين أن تدرس كل صفات الجمال بهذه السرعة . . فالصفات كثيرة والوقت الذى استغرقه لكى يصدر هذا الحكم لم يزد على دقيقة واحدة . وجاءت المهرة . واقتربت وراحت وجاءت وتمخطرت ودار حولها الحكام . . وسحبتها المدربة بعيدا وقريبا . . وأطلقتها ووقفت بها ورفعت رأسها لترى عنقها ورأسها وساقها . . ثم رجعت إلى الوراء . . ليراها الحكام وهى تمشى وهى تجرى وهى تتمخطر . وكانت أحكامهم أنها الأولى فعلا وصفق كل الناس! والمهرة مصرية وقد ذهبت إلى إسرائيل لتلقيحها . . وعادت وهى حامل لتكون على عرش الجمال فى هذا المهرجان الدولى . . وأسعدنى الحظ أن أكون الذى وقع عليه الاختيار لأعطى صاحبها ومدربها جائزة الفوز . . وأن أضع يدى على عينها وعلى رقبتها وأن أقبلها . . وأن ألتقط صورة إلى جوارها . . ولو كان الأمر بيدى لطلبت إليها أن توقع بحافرها فى سجل الذكريات . .

ثم طلبت أن أراها تجرى وحدها دون حبل يرفعه مدرب . . وانطلقت العروس الجميلة . . تجرى وتتمايل وتنثنى . . وتتعوج وتقف فجأة وتنطلق فجأة . . إنها الجمال والفتنة والشباب . .

إننى أكاد أرى فى وجهها ابتسامة «الچوكندا» رائعة دافنشى والذى حار الناس فى تفسير ابتسامتها . . وجاء التفسير الأخير بأنها كانت سعيدة لأنها حامل . . وأنها صارت أما ، وأنها لم تشأ أن تخبر أحدا بهذا الحادث السعيد فهل هى كذلك ـ يجوز . .

(٥)

هناك عبارة للأديب الروسى العظيم تولستوى تقول : إن الفن كالعدوى . . أى أنه ينتقل من الفنان إلى المتفرجين . . ويضرب لذلك مثلا يقول : لو أن طفلا رأى ذئبا فخاف وراح يروى لوالديه ما رأى فسوف ينتقل الخوف إلى والديه . . لأنه قد عبر عن ذلك بصدق . . ولا يعتبر هذا العمل الذى قام به الطفل عملا فنيا وإنما هو حادث وقع فأصاب الطفل بالخوف . . ومن الطبيعى أن يصاب أبواه بالرعب . . ولكن إذا تخيل طفل أنه رأى ذئبا ، ثم ذهب إلى والديه يحكى لهما ما تخيل . . على أنه واقع ، وراح يصرخ ويبكى فأبكى أمه وأفزع أباه . . فهذا الذى فعله الطفل هو الفن .

فالفن عدوى تنتقل من الممثل إلى المشاهد . . ولا يقوى أحد على مقاومة البلاغة فى الأداء !

وكذلك هذا الذى حدث فى دبى . . لابد أن ينتقل إلى الإمارات الأخرى . . لا محالة . . لأن الذى حدث فى دبى ، هو أن رجلا وأولاده من بعده ، قد رأوا موانئ الدنيا المفتوحة فقرروا أن يفعلوا نفس الشىء فى بلادهم . . ففتحوا عقولهم وأحضانهم وجيوبهم لكل أصحاب الآمال العريضة والخبرات الطموحة فكانت هذه الدولة الصغيرة الجديدة فى وقت قصير . . ولاتزال هناك مشاريع باهرة سوف تتحقق على أرض دبى . . وسوف يصبح من المستحيل على أية إمارة مجاورة أن تقاوم التطور والنور والتنوير والانفتاح على القارات الخمس . . فالعدوى لابد من انتقالها . . وإن لم تكن قد ظهرت بعد ، فجذورها وبذورها قد وضعت فى

نفوس الناس . . ولو سألت ألوف الناس بل ملايينهم عن أسماء الإمارات العربية المتحدة ، فلن تجد إلا عددا قليلا يذكرونها كاملة . . ولكن أكثرهم سوف يقول : أبو ظبى ودبى . . وربما ذكروا إمارة أخرى .

أما أبو ظبى فهى الإمارة الأكبر والأشهر . . ولكن دبى استطاعت أن تكون على الخريطة العالمية فى القنوات الفضائية . . وفى المباريات الدولية الرياضية . . وفى المهرجانات التى تقيمها لكل أنواع الصناعات كالطيران والسيارات والأجهزة الالكترونية وفى مهرجانات الموسيقى والغناء والأفلام . . ثم سباق الخيول . . فخيول آل مكتوم أشهر الخيول فى العالم كله . . وهى خيول عربية أو مهجنة وهى تكسب كل سباقات الدنيا فى لندن وفى غيرها . . وتظل المجلات الرياضية والقنوات التليفزيونية تتحدث عن الشيخ محمد آل مكتوم أياما طويلة ، بسبب جمال وروعة وبراعة خيوله العربية وفوزها الدائم على كل أنواع الخيول . . ولذلك ارتبط اسم دبى بالخيول العربية أو الخيول الجميلة القوية الرابحة فى كل سباقات الدنيا . . وماذا تأكل وماذا تشرب وكيف يربونها ويدللونها ويعالجونها .

ومنذ أول لحظة فى دبى وأنا أحاول أن أتفرج على الخيول - خيول الشيوخ بالذات - وحاولت وحدى . . وذهبت . . ولم لا ؟ الإصطبلات كأنها «قرية سياحية» . . لطيفة جميلة . . أنيقة واسعة ولها بوابات وأسلاك وأشواك . . أى ليس من حق أى إنسان أن يدخلها . . ولابد من إذن . . ذهبت . . وقابلت مدير أحد الإصطبلات . . إنه إنجليزى كالذين كنا نراهم أيام الاحتلال فى مصر . . له ملامح الملك وسخافة السفير البريطانى . . دخلت . .

قـدمت نفـسى . . وأبديت اهتـمـامـا شـديدا بأن أرى . . وأحب ذلك . . ولكن الرجل ليست له مـلامح ولا يهـمـه مـا يهـمنى . . وقال : إن الخيول نائمة . . ويجب ألا نزعجها .

فقلت : ولكنى لن أزعجها .

قال : ولكن الاقتراب منها ممنوع بعد أن أكلت وشربت ولابد أن تستريح من عناء السباق أمس . . واستعدادا لسباق اليوم .

قلت : سوف أمشى على أطراف أصابعى . .

ولا هذا . . لا إزعاج على الإطلاق .

فكيف أراها ؟

غدا قبل التاسعة صباحا وبعد الرابعة مساء .

آخر كلام ؟

وكان صمته دليلا على أن هذا هو آخر الكلام . . وأن الموضوع قد أقفل نهائيا .

وكان غيظى شديدا ، ولكنها غلطتى فأنا اخترت الطريق الخطأ!

لسانى عليه

(١)

فى مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء شوقى يتحدث عن خوف الناس من مواجهة الأحوال فى بلادهم . . ولذلك فالناس يقولون كلاما ولكنهم يضمرون كلاما ؟آخر . . ويرى شوقى أن هذا هو حال الناس جميعا : إذا الدنيا تلخبطت والأحوال اضطربت والناس يريدون النجاة فإنهم ينافقون ويقولون مالا يفعلون . . يقول شوقى :

إذا الفتنة اضطربت فى الباد
ورمت النجـــاة فكن إمعــــة
أحب الحســـين ولكنمـــــا
لسانــى عليــه وقلبى معه !

ولكننى أرى هناك معنى آخر . . وهو أن لسانى عليه لأن قلبى معه . . فمن كثرة حبى له وخوفى عليه ، فإننى لا أتوقف عن نقده وإيلامه . . عملا بالمثل الشعبى المصرى الذى يقول : «يابخت من بكانى وأبكى الناس على ، ولا أضحكنى وأضحك الناس على» .

فنحن عندما نهاجم بلادنا وحكامها وقادتها وأجهزتها الإعلامية والإدارية والشعبية والصحفية ، فالسبب ليس أننا نظهر مالا نبطن . . وإنما هذا هو الذى نبطنه . . فلأننا فى مصر نحب بلادنا وأهلها ومستقبلها . . ننقدها ونقسو عليها كثيرا . . والذى يقرأ الصحف القومية يجدها أكثر قسوة على الحكومة من الصحف

الحزبية . . ولا خلاف بين الاثنين . . فالهدف واحد . . وهو أن نكون أفضل حالا وأداء . . ربما أخذنا على صحف المعارضة أنها تهاجم الحكومة لأنها ترفضها . . فهى تتصيد العيوب . . بل هى تحول المزايا إلى عيوب . . فهى لاترى لها ميزة ولاترى لها نقطة بيضاء . . وإنما نجد صحيفتها سوداء وتزيدها سوادا .

ولكن هذا هو شرط الحرية التى ارتضيناها جميعا . . نحن نحسن استخدامها ونسىء استخدامها أيضا . . والمعارضة ليست شراكلها ، والحكومة والذين يؤيدونها ليسوا على حق دائما . . فكلا المعسكرين يبالغ فى العيوب ويبالغ فى المزايا . . والصواب بجانب الاثنين . . فلا يبقى إلا الاعتدال . . وهو الأصعب . . فليس أسهل من ظلم الإنسان لأخيه ، وليس أسهل من الطبل والزمر ، وليس أصعب من المواجهة بالعيوب أملا فى إصلاح كل ما التوى ، وتقويم كل الذى اعوج .

والشاعر يقول :

ومن الحب ما قتل .

أى أن الحب من الممكن أن يقتل . . والمثل الذى نضربه للأطفال هو أن ذبابة وقفت على أنف رجل صناعته تدريب الدببة على الرقص . . فما كان الدب إلا أن أمسك حجرا وألقاه على الذبابة ، فقتل صاحبه وطارت الذبابة .

ومثل آخر أن القطة من خوفها على صغارها فإنها أحيانا تأكلها . . فهى قد أخفت صغارها فى بطنها ، ولكنها لم تعرف أنها دفنتهم . . فهو الحب الذى أفضى إلى الموت . . والأم التى ينصحها الطبيب بألا تعطى لابنها المريض لحما فدفعتها الشفقة على ابنها الجائع الشاحب الذى يبكى فأعطته اللحم سرا فمات !

فهو حب أدى إلى الموت ! والذى ينافق الحكومة والحكام ولا يرى فيهم عيوبا ، فهو الجبان الذى يدفعه الحب إلى القتل .

والمثل يقول : عدو عاقل خير من صديق جاهل .

والصديق الجاهل أو المتجاهل هو أكثر ضررا من العدو الذى يبصرك بعيوبك ويضايقك بهذا النقد . . بهذا الوخز .

والمثل يقول أيضا : قل كلمتك وامش !

أى قل كلمة الحق . . وامض . . يكفى أنك قلتها . . يكفى أنك كنت تحملها على قلبك أو على رأسك ، ثم ألقيتها واسترحت . . ولكنها لا تريح .

قال الإمام الشافعى : كلمة الحق لم تترك لى صديقا !

وأنت صادق النية . . وأنت مخلص فى كلامك وفى نقدك .

والطريق إلى النار محفوف بالنيات الطيبة !

أى أن أصحاب النيات الحسنة ، هم الذين يلقون عذابا كثيرا فى دنياهم . . ولكن ما الذى يمكن عمله ؟

الجواب : هو أن تريح ضميرك وأن تقول كلمة الحق . . إن لم تكن كلها ، فبعضها . . وأن تقول دون أن تكون جارحا . . أن تقول ورزقك على الله .

وعند الإغريق أن «الحقيقة» جاءت إلى الناس عارية تماما ، فانصرفوا عنها وفزعوا من منظرها . . فذهبت الحقيقة وعادت وقد ارتدت أجمل أثوابها ، فأقبل الناس عليها . فإن استطعت فافعل ، ولكن لا تكن كاذبا . . ولا تكن طبالا زمارا ، ولا تسكت عن كلمة الحق . . فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس !

(٢)

الناس ينتظرون من الصحف المصرية ماذا تقول لهم ؟ ماذا يفعلون ؟ ماذا يفهمون ؟

فإذا وقعت أحداث سياسية فى الداخل أو الخارج ، اتجه الناس إلى الصحف يريدون أن يفهموا . . فالناس ثقتهم كبيرة فى الصحف وفى أصحاب الأقلام . . ويرون أنهم الهداة . . الذين يعرفون أكثر ويفهمون أكثر . . ثم إنهم لايكذبون .

وهى تحية عظيمة ومسئولية ثقيلة يحملها كل أصحاب الأقلام!

ولكن عندما يقلب الناس فى الصحف ويزدادون حيرة ، ولا يجدون الذى يبحثون عنه يوما بعد يوم فلابد أن تتغير الثقة فى الصحيفة والكاتب والمبادئ الأخلاقية التى تحكمنا جميعا !

ولابد أن يتساءل القراء : ما هذه الصحف ، هؤلاء الكتاب ، ما الفرق بين الصحف وبين الشارع . . صحيح أن الصحف يجب أن تعكس الشارع وتصوره وتردد أصواته . . ولكن لابد بعد ذلك أن توجه الناس . . أن تهدى الناس . . أن تقترح حلولا وعلاجا . . وأن تبحث عن متاعب الناس وأن تسجلها ، وأن تجد لها حلا . . أو ترفع صوتها لمن يعنيهم الأمر . . أى لمن يقدرون على الحل . . فليست مهمة الصحف أن تسجل أصوات الناس وصورهم فقط . . وإنما هذا هو بعض الطريق . . أما باقى الطريق فهو أن تؤكد للناس أنها ليست بعيدة عنهم . . وإنما هى بيتهم . . وإنها تملك وسائل أقوى فى أن تجد لمشاكلهم علاجا .

وأن تلح فى ذلك فإذا لم تجد علاجا وقفت مع الناس ضد الأجهزة البليدة الجاهلة أو المتجاهلة أو المتكاسلة . . ثم إن تعالج

هذه الأجهزة وأن تصارحها بالنقد . . وهكذا تقوم الصحف بالربط بينها وبين القراء .

والربط بين القـراء وبين الدولة والربط بين الدولة وأصحـاب الأقلام . . وبذلك يكون الناس رقباء على الصحف والصحف رقيبة على الدولة . . وهذا هو جوهر الحرية وأسلوب الديمقراطية .

ولكن . . ألف مرة ولكن الذى يحدث الآن ليس كذلك .

فالناس يصرخون . . وقد اعتدنا على ذلك . . والكتاب يهددون ويتوعدون والقـراء قد اعتـادوا على ذلك . . والحكومـة أيضـا . . ومعنى ذلك أن الكل يصرخ فى وقت واحد . . والكل لا يسـمع أيضـا . . ولا أحـد يسـمع لأن هناك ضـوضـاء فى كل مكان . . وليست هذه الضوضاء بين الناس وفى الصحف وفى أجهزة الدولة إلا ستارا صوتيا وعائقا للتفكير . . فكأن أحدا لا قال ولا سمع . . كأن شيئا لم يكن . . فالأصوات قد طغت بعضها على بعض تماما مثل أمواج البحر ، بعضها يدوس البعض أو يمين البعض أو يفنى فى البعض !

نرى فى الصحف نكتا ورسوما كاريكاتورية للسخرية من الوزراء ومن رئيس الوزراء . . بعضها يجعل الناس تضحك كثيرا . . وبس !

فالناس لأنهم اعتادوا على النكت وعلى الضحك فهم يبحثون عن النكت كل يوم . . ولا يهـمهم كثيرا أن يجدوا حلا . . لأنهم اعتادوا على شيئين : النكت وألا يجدوا لها حلا . . والمسئول اعتاد على النكت ، واعتاد على أن أحدا لا يطلب منه شيئا بعد ذلك .

ومعنى هذا كله : أن هناك اتفاقا سريا قد أبرم بيننا جميعا . . إننا نحن الكتـاب لا يعجبنا حـال الوزراء . . والحكومـة تتطلع إلى الذين يكتبـون والذين يرسـمـون يحاولون أن يجعلوا أدواتهم مثل

الدبابيس والمشارط والسكاكين وأن يسيحوا دم الوزراء . . وننتظر ذلك كل يوم فى كل صحيفة ومجلة ومسرح . . ويقوم المؤلفون والرسامون بالاستجابة إلى ذلك فيرسمون ويسخرون ويهددون ويتوعدون ويرضى القراء عن معايشة المؤلفين والرسامين لهم . . ويرضى المؤلفون والرسامون أنهم استجابوا لذلك . . ويسعدهم أن يكونوا عند حسن ظن القراء والمتفرجين .

والوزراء يتوقعون كل ذلك . . وهم قد اعتادوا على ذلك . . واعتادوا على أن يضحك الناس . . والوزير سعيد بأنه أصبح فى كل عين وعلى كل شفاه . . وإذا تجاهله الكاتب أو الرسام أحزنه ذلك . . فالمهم عند الوزير ألا ينساه الكاتب أو الرسام . . وإذا أوجعه يقوم الوزير بدور الشخص الغلبان المثير للشفقة لأن الأمر ليس بيده . . وأن القرار ليس من صنعه . . وأنه لايختلف على الناس فى أنه مغلوب على أمره .

والخلاصة : أن القارئ سعيد لأن له صدى . . وأن الكاتب والرسام والممثل هو الصدى . . والوزير سعيد لأن له صدى عند الناس جميعا . . وأنه سعيد بأن يكون هدفا وأن يكون شاغلا للناس . . وفى نفس الوقت ليس من الضرورى أن يفعل شيئا لأن النس قد يئسوا من الكاتب والرسام والممثل وأن هؤلاء جميعا قد يئسوا من الوزراء أن يفعلوا شيئا . . والوزراء راضون عن هذا اليأس العام . . والمهم عند الوزراء أن يطفوا على سطح القرف الوطنى والضياع القومى .

والنتيجة : صفر للجميع ـ وهذه هى الصحافة وكل وسائل الإعلام !

هات البرلمان

الدنيا مليئة بالمشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والدينية والأمنية . . مشاكل اليوم والغد . . مشاكل الذين فرضوا الأمس على حاضرهم . . والذين حذفوا المستقبل من أجل ماضيهم . . والذين قرروا أن العصر الذهبى كان ماضيا ، وأنه مضى وانتهى ولن يعود . وذلك فالبكاء على الماضى هو طعامنا صباحا ومساء . . وهناك شعوب أدمنت المستقبل . . فكل حاضرها من أجل الاستعداد لغدها . . وأنها قد قفزت بالناس إلى الغد . . فالإبداع مستمر فى الصناعة وفى الفكر . . وهم يحولون الطائرات إلى مكوك فضائى وصواريخ ترتاد الكواكب التى تبعد عنا مئات الملايين من الأميال . . بل أنهم أطلقوا سفنا إلى ما وراء المنظومة الشمسية تقطع ألوف ملايين الكيلو مترات . . ليس إلى الغد وإنما إلى ما بعد الغد . .

وكل ذلك هموم ومشاكل لايمكن أن تقضى عليها بمجرد أن ندير رأسنا إلى الوراء وخيالنا إلى العصور الذهبية التى ذهبت لن تعود . . ونحن نرى على شاشاتنا كل يوم جديدا . . وغدا أكثر إشراقا . . وحلولا لمشاكل موجودة ومشاكل لم توجد بعد . . بينما نضع لكل خل مشكلة ، هم يجدون لكل مشكلة حلا . . بل أنهم يضعون حلولا لما سوف يجيء من مشاكل . فما العمل ؟

هذا هو السؤال . تعال نبحث عن الجهات التى يجب أن تواجه مثل هذا السؤال ، وأن تجد له بنا ولنا حلا . . هات الصحف . . إنها على هامش كل شيء . . على هامش المشاكل وعلى هامش هامش

الحلول . . فلا تعرض قضية إلا إذا جاءتها من وكالات الأنباء الأجنبية والصحف والشاشات العالمية . . هم الذين يفكرون لنا وهم الذين يعلموننا كيف نحل مشاكلنا . . بل هم الذين يعرضون علينا مشاكلهم ، ويتركوننا نحلها . . ونحن لانحلها لهم ، فليسوا فى حاجة إلينا . . ولكننا ننشغل جدا بحلها وكأنها مشاكلنا . أما مشاكلنا وحلولنا نحن لمشاكلنا ، فذلك لا وجود لها . . فنحن على هامش مشاكلنا ، وحلولنا على هامش الحلول . والنتيجة : نحن نعيش على هامش حياتنا ونقدم لنا وللناس هامشا من الحلول الواجبة علينا جميعا .

هات البرلمان المصرى :

مجلس الشعب غارق فى المشاكل المصرية . ويحاول أن يجد لها حلولا . . ولكن حكاية أن نصف المجلس من العمال والفلاحين - وهذا نص ليس له نظير فى الدنيا من أولها لآخرها . لا عند الشيوعيين ولا عند قبائل الماو ماو - معناه أننا بنص الدستور قد حكمنا على نصف المجلس ألا يكون له وجود . . ألا يكون له حضور . . ألا يكون له رأى . . وأن يكون نصف مجلس . . ونصف المجلس ليس جميعا حاضرا بالرأى أو الفكر فى كل القضايا اليومية . .

ولكن لم يخرج علينا مجلس الشعب يوما واحدا بنظرية أو تفسير لنظرية . . بفكر جديد . . بتنظير جديد . . وهذه النظريات هى (العدسات الملتصقة) لعيون الدولة والشعب . . وأهم ما يحدث فى مجلس الشعب فى أى يوم هو : رفع الجلسة . . وليس افتتاح الجلسة . . المهم أن تنتهى الجلسة بسلام وأمان . ولذلك نحن نصف إدارة الجلسة بأنها إدارة حكيمة . . أى لاشغب ولا ضوضاء

ولا خناقات . . فالرئيس الشاطر هو الذى يعلم المشاغبين أن يحبوا بعضهم البعض . . وأن يبوسوا رءوس بعضهم البعض . . ويا دار ما دخلك شر !

ولكن هذه الدار لم يدخلها رأى ولا خرجت منها نظرية تساعد الناس على ما هم فيه من عذاب وغل وويلات . . ومجلس الشورى المصرى بنص القانون ليس له دور . فلا هو مجلس شعب ولا هو مجلس شيوخ أو لوردات . . ولذلك فمجلس الشورى المصرى فى حالة دفاع عن نفسه بصفة مستمرة . . يدافع عن الدور الغائب . .

إنه مجلس محترم ، يقول كلاما محترما ، ولكن الذى يقوله لا يلقى احتراما إلا بين أعضائه والقراء . . ولكن من أهم هموم مجلس الشعب ألا يكون لمجلس الشورى وما يقوله أى وزن أو أى احترام . . ولذلك فلا تكاد تتحدث مع عضو مجلس الشورى إلا وقال لك ولكننا نقدم أعظم الأبحاث . . أما كلمة (ولكننا) فمعناها أنه رغم أنه لا دور لنا ولا خطورة لنا ، فإننا نقول كلاما يجب أن يكون له دور وأن يكون خطيرا يستحق الاهتمام به . . والمعنى : أن هامشا عريضا مدويا قد أضيف إلى بقية الهوامش الدستورية فى حياتنا السياسية . . والله العظيم إن رئيس الوزراء يثير شفقتى وهو يلقى بيان الحكومة . . الذى لا يجد آذانا ولا عيونا ولا عقولا . . إنه قال ما وجب عليه ، والناس حضروا وهذا ما وجب عليهم . . وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا .

هناك غضب!

لايهزنى ولايحرك ساكنا فى رأسى وفى جسمى أكثر ما يقوله السادة العلماء وهم يتحدثون عن المتطرفين . لأن الذى يقال كلام لا معنى له أحيانا . . وأحيانا كلامهم له معنى . . ولكن ليس هذا هو الكلام المطلوب . وليس هذا هو الأسلوب الذى له صدى أو له نتيجة .

إننى لا أصدق كلمة واحدة من التى يقولها وزير الأوقاف . . لا أصدق أنه وهو (يكشر عن أنيابه) رجل يبتسم أو رجل يريد حلا . . إننى لا أصدقه . وأجد أن الحق معى . . فالرجل يقول كلاما مكررا معادا . وهو لايمل . ولكننا مللنا . زهقنا . ولم نعد نجد لذلك أى معنى !

فما هو المطلوب منهم ومن غيرهم من علماء المسلمين ؟

المطلوب هو أن «تكون مواجهة للمشكلة . فما هى المشكلة ؟ هذا هو السؤال : المشكلة عندنا أن عددا من الشبان المسلمين لهم رأى . وهذا الرأى يحتاج إلى توضيح . ولهم خطة وهذه الخطة تحتاج إلى مناقشة . ولهم أسلوب عنيف فى تطبيق هذه الخطة وهذا الأسلوب يجب أن نناقشه . وأن يكون ذلك بالعقل وبالشجاعة وبلا خوف .

شىء عجيب حدث فى مصر : المتطرفون يخيفون الناس . . والعلماء يخيفون الناس ، فما الذى ننتظره من الناس الخائفين ؟ ليس هذا هو الأسلوب الصحيح فى خلق المؤمن القوى . والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . ونحن نتكاتف جميعا على تخليق مؤمن ضعيف يواجه كل مشاكل السياسة والاقتصاد والسياحة والأمن والسلام .

الفلسفة النازية كانت تطالب بتحقيق القوة عن طريق المرح . .

أى تحقيق القوة عند الشباب عن طريق الرياضة والألعاب والتسلية وأن يكون كل ذلك بحب وفرفشة !

وأنا أكره النازية - أى الدكتاتورية بجميع أسمائها : النازية والفاشية والشيوعية والإمبريالية ولكن نريد القوة عن طريق الفهم عن طريق العقل والمواجهة . . ونحن قد ساعدنا على البلبلة فكل من يطلق لحيته فهو متطرف . . مع أن المشايخ والقساوسة والحاخامات والرسامين والشيوعيين والفوضويين يطيلون لحاهم . . فليس كل من أطال لحيته متطرفا ولا كل من كشفت وجهها ضالة خاطئة . .

ولا علاج للمتطرفين بأن نتهمهم جميعا بأنهم إرهابيين فقط كما أن تجاهل المتطرفين ليس علاجا لهم . . أو علاجا للتطرف . .

هناك غضب . . وهناك أسباب كثيرة لذلك . وليست هذه الأسباب دينية دائما ، وإنما هناك أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وبطالة وزيادة فى عدد السكان . . وزحام فى الشارع والأتوبيس والمستشفى والمدرسة والسوق . . زحمة يا دنيا زحمة . . زحمة ومفيش رحمة . . فهى فعلا زحمة . . والزحمة تدفع الناس إلى أن يدوسوا بعضهم البعض . نحن نفعل ذلك فى الشارع وفى السوق وفى الملاعب . . ندوس بعضنا البعض ولا أحد يعتذر . لأننا نعرف قبل أن ننزل إلى الشارع أن هذا سوف يحدث . . وأن الاعتذار لا معنى له . .

فالذى يلعن الزحمة ، يلعن تزايد السكان . . ويلعن المشى فى الشارع . . فهل من الممكن ألا نزيد ، وهل من الممكن إلا ننزل إلى الشارع وإذا نزلنا ألا نمشى . . إذن فحين تلعن الزحام ، ليس هو

الحل وإذا لعنت أن تكون للإنسان ساقان لكى يمشى ليس هذا هوالسبب ، فما هو السبب ؟

سيبقى هذا هو السؤال !

نحن نتجاهل الأسباب الحقيقية . . ونبسط الأمور لأنفسنا أكثر مما ينبغى ونريح عقولنا فنقول : إنهم مجرمون عاديون . والحقيقة أنهم ليسوا جميعا كذلك . . أو نقول : إنهم متطرفون مأجورون والحقيقة أنهم ليسوا جميعا كذلك . . أما الظلم الواقع علينا وعلى الدولة فى مصر إنما كما بسطنا الأسباب بشكل مخل وبشكل فيه تغيير للحقيقة فكذلك تركنا لأجهزة الأمن وحدها أن تواجه الموقف أما أن أجهزة الأمن يجب أن تواجه الموقف فلاشك فى ذلك . وهذا طبيعى . ولكن الذى ليس طبيعا أن تنفرد أجهزة الأمن بذلك . لأن الذين نواجههم ليسوا مجموعة من اللصوص وقطاع الطريق فقط . بل إن بينهم أصحاب اجتهادات دينية خاطئة أو صواب . إن لهم رأيا . نظرية . . ولكن أجهزة الأمن تنطلق من قاعدة أنهم جميعا مجرمون ! وظلمنا أجهزة الأمن لأننا جعلناها وحدها تواجه ما ليس إجراما . . تواجه الذين عندهم معتقدات خاطئة . . وكأن وزارة الداخلية هى الوزارة الوحيدة فى مصر فما الذى يفعله الأزهر وما الذى تفعله الجامعات والوزارات الأخرى . . وما الذى تفعله الصحف والشاشات والميكروفونات . . هل المطلوب هو (الشوشرة) بالصوت والصورة حتى تنسد أذن الناس وتعمى عيونهم ؟ ما هو القدر المطلوب المعقول المستساغ للمواجهة ؟ ألا أحد قد أجاب عن هذا السؤال حتى الآن . . ولذلك سوف يبقى الظلم سيدا على الجميع والفهم الخاطئ والمواجهة الخاطئة . . ويتضاعف الخطأ والرد عليه والرد على الرد . . وهكذا !!

عرف طبيعتنا..

محمد عبد الوهاب قال : تظلمنى برضه أحبك ، تلاوعنى برضه . . أحبك! . . أحبك وهو يقصد المحبوب ، وهو ذليل أمام الحب . . وفى نفس الوقت يجد لذة فى العذاب والهوان ، ويدعونا إلى ذلك !

وأم كلثوم على لسان أحمد رامى قالت كثيرا هذا المعنى :

عزة جمالك فين من غير دليل يهواك . .

أى يجب أن يكون المحبوب عزيزا عاليا شامخا ويزودها شويتين ، أما العاشق فهو الذليل . . فلا عزة لجمال المحبوب ، إذا لم يجد عاشقا ذليلا . .

والعاشق ذليل وسعيد بهذا الهوان ، ويطلب إلينا أن نفعل مثله . . ولم نأخذ هذه المعانى مأخذ الجد ، ولكننا كررناها ورددناها لجمال الصوت والموسيقى . . ولم نتنبه إلى سريان هذه المعانى فى دمائنا . . كأننا نحن المصريين فى أزمة هوان !

ولم يكن عمرو بن العاص فى حاجة إلى أن يعايشنا طويلا لكى يعرف طبيعتنا وإنما أدرك ذلك بفطرته البدوية . . عندما قارن بين البدوى الذى يظل يبحث عن العشب ولايتوقف وإلا مات هو وقطعان الأغنام والإبل ، قال عمرو بن العاص فى خطاب إلى الخليفة عمر بن الخطاب أنهم يبذرون الحب وينتظرون الثمار من الرب . .

أى أنهم يزرعون وينتظرون ولايفعلون أكثر من الانتظار ويكون الانتظار طويلا وقد فرض عليهم القهر أن تنكسر ظهورهم على

الأرض ويمضون فى صمت وقد ألجأهم الصمت إلى قبول الظلم وعلمهم الصبر أن كل الذين قهروهم من الشعوب التى احتلت مصر سوف يذهبون أو يموتون . . أن مصر مقبرة الغزاة . . أى أن الطغاة يجيئون إذا جاءوا ذهبوا . . فلا بقاء لهم فى مصر . . قد يحكمونها مئات السنين ولكن لابد أن يذهبوا . ولذلك فالمصريون لا يتعجلون خروج الطغاة ولا يتعجلون نهايتهم . لأن النهاية معروفة لهم . وقد حدثت كثيرا ، خرجوا وبقى المصريون على أرضهم . . بذورا يغرسها القهر ، وينميها الظلم ، ويطيل عمرها الصبر . .

ولما جاء الفرنسيون مع نابليون إلى مصر وبدأ شباب الحملة الفرنسية يدرس حال الفلاح المصرى ، بهرهم أنه شديد الصمت عميق الصبر . . شديد التوكل على الله . . والتواكل أيضا ، وليس بليدا ، ولكنه صبور ويحار الإنسان ـ حتى لو كان مصريا ـ فى تفسير هذا الذى يراه . . كيف يلقى المصرى كل هذا العذاب ولا يقول كلمة : آه . . مع أن كلمة آه تدل على أنه على قيد الحياة .

ثم كيف أن المصرى قد اعتاد ـ بسبب القهر الطويل والظلم اللانهائى والصبر العضوى ـ ألا يبالى بما يحدث حوله . . كأنه يتفرج على أناس فى بلاد أخرى . . كيف استطاع المصرى فى ألوف السنين أن يقتلع نفسه من أرضه ويتفرج عليها كأنه ليس مصريا . . كيف استطاع أن يكون على هوامش الأرض الواسعة . .

كيف استطاع المصرى أن يغنى ويقول : يا من يجيب لى حبيبى . .

وكيف يخطب على المنابر أيام النكسة وقبلها وبعدها : اللهم ابعث إليهم بجنود من عندك !

أى أنه يطلب من الله أن يبعث بجنود من الملائكة والشياطين لضرب اليهود وطردهم من مصر ، ونظل نحن ننتظر على أحر من الجمر إنهاء المعركة لصالحنا ، دون أن نبذل جهدا أو نريق عرقا أو دما !

يعنى إيه ؟

يعنى هل هذه حالنا ؟ هل هذه الأوصاف تنطبق علينا نحن المصريين ؟ هل هذه الاستنتاجات صادقة تماما ؟ أو هل هى ترسخت فى أعماقنا ، دون أن نفكر فيها . . وإذا كانت هذه الصفات قد ترسخت فينا ، ألم يحن الوقت بعد لكى نعيد تقليبها واقتلاعها وشرحها وتحليلها ونبذها لكى نغرس صفات أخرى . . أو هل هذه الصفات مثل البقع فى جلد النمر لايمكن إزالتها ؟ أو هى ليست بقعا فى جلد النمر وإنما هى بقع يغسلها الماء والصابون ؟

هذه هى الأسئلة ومن الواجب أن نواجهها . . نقبلها أو نرفضها لأن القضية خطيرة جدا . . فهى قضية شعب يجب أن يعيش وأن يعيش كريما قويا ، لكى يفلت من سلاسل ماضيه . وينطلق إلى مستقبله !!

لا أول لـه ولا آخر!

حتى إذا لم تستوعب كل الذى قلت فإننى أعود وأقول لك ما الذى أريده ، أريد أن أقول إن العقل الإنسانى يحاول والعقل الإنسانى منظم ولا يتحرك إلا بنظام وقواعد . . . فكل شىء يصفه الإنسان له رقم ، لابد من الأرقام الحساب : ١ و ٢ و ٣ . . . . و ٢+٣ . . . وكل شىء له وزن . . . أى أرقام . . . وكل شىء له كثافة أى أرقام . . . وكل شىء له طاقة : أى أرقام . . وكل شىء له أول وآخر وعمر . . حياة وموت . . وكلها أرقام . . . والعقل الإنسانى لايستطيع أن يتحرك إلا وفقا للأرقام .

واضح هذا ؟ نعم واضح .

ولكن فى عالم العين والأذن الإنسانية هذه الأرقام بالسنتيمتر والملليمتر . . والكيلومتر . . والجرام والميكرون .

ولكن هناك عالما آخر . . فالملليمتر تحت الميكروسكوب كأنه كيلومتر فى العين البشرية . . فهناك أجزاء تصل إلى واحد من المليون . . نعم تحت الميكروسكوب . . وهناك ما هو أقل . . . وهذه الأجسام الصغيرة جدا لها نفس القواعد . . . كما أن النملة والفيل كليهما له حياة عضوية . . . وأجهزة للتنفس والهضم والتكاثر . . . فهناك أيضا جسيمات هى جزء على مليون من الملليمتر . . هل تتخيل هذا ؟ طبعا لا أحد يستطيع ولكن تحت الميكروسكوب هذا ممكن . . . وهذه الجسيمات الصغيرة جدا جدا لها حياة . . . والله

لو رأيتها تحت الميكروسكوب لوقعت على ركبتيك راكعا ساجدا مؤمنا إيمانا مطلقا لعظمة الله التى لاحدود لها . .

يعنى إيه ؟ يعنى أن العالم من حولنا ومن تحتنا وفى داخلنا لا أول له ولا آخر . . .

ونحن لانزال عيالا نلعب بالظلط الملون على شاطئ المعرفة . . . وإننا فرحون بألوان الظلط وما أكثر الظلط على الشاطئ وما أطول الشاطئ وأوسع وأعمق محيط المعرفة . . . أحد المحيطات التى لا نهاية لعددها ؟!

ولا شىء فى هذه الدنيا يغيظنى إلا «الثقة المطلقة» عند بعض الناس ! ترى الطبيب ينظر إلى المريض ويمد يده إلى الورق ويكتب له روشتة . . كيف ؟ لا وضع يده على معدته ولا استمع إلى قلبه ولا رأى لون أظافره وعينيه ولا حلل دمه ولا بوله ولا برازه . . . أى أنه لم يطلع على بطاقته الصحية ، ثم إذا به يقرر ويكتب له الدواء - منتهى الغرور الذى أدى إلى الجهل وإلى موت المريض . . . أو إلى عدم شفائه !

إننا لانعرف حكمة الله . . . وإنما نحاول . . والقرآن الكريم يقول لنا : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» قليلا جدا جدا . . . ولكن العقل الذى خلقه الله جعل فيه رغبة عارمة وعطشا دائما لأن يعرف ولأن يفهم . . . إن العقل الإنسانى قد حقق فى الخمسين عاما الماضية مالم يحققه فى الخمسين قرنا الماضية . . . فماذا يصل إليه العلم الإنسانى بعد خمسين قرنا أو خمسين ألفا أو خمسين مليونا .

إن العلم يدعوك إلى التواضع والتواضع يوقف نمو غرورك . . . فإذا أنت تنحنى وتركع وتسجد طويلا وكثيرا وعميقا لعظمة الله . . . سبحان الله .

هل تعرف متعتى أنا شخصيا ؟ أعظم متعة لى فى كل حياتى أن أجلس أمـام التليـفـزيون أتفـرج على أفـلام عن الكون وعن الخلايا . . . أجزاء من ألف من الخليـة . . . أجـزاء من مليـون من الحيـوان المنوى - شىء رائع باهر . . . مع أن الذى قـد وصلنا إليـه ليس إلا قليلا . . . ونحن بالضبط نشبه نملة فى طريقها إلى القاهرة من مدينة سيدنى باستراليـا . . . وأنها فى الطريق ، هذه النملة تعرف أنها فى الطريق . . . ولكن الذى يراها فوق هو وحده القادر على أن يقول لنا إن كـانت فى الطريق الصحيح . . . وإن كـانت ستصل ومتى وكيف . . . إن الله سبحانه وتعالى هو وحده القادر على أن يعـرف أين نحن . . . وإلى أين . . . وإن كنا فى الطريق الصحيح . . . سبحان الله جلت قدرته .



عندك استعداد أن تهرش دماغك وتفكر قليلا ؟ صحيح أن التفكير وجع دماغ . وأن أحدا لايرتضى التفكير إلا مضطرا . . وخاصة إذا كان هذا التفكير فى قضية عامة . . عامة جدا أو صعبة . . ولذلك فالناس لا يريدون وجع الدماغ . إنهم يريدون أن يستريحوا . . أن يتسلوا قبل النوم . . أو أن يحدثهم أحد عن حالهم وكيف تجد وسيلة مواصلات أفضل ومستشفيات أحسن ومدارس أرخص ووظائف أنسب للذين تخرجوا فى الجامعة .

والناس معهم حق .

ولكن هناك أمورا أو قضايا مهمة جدا . قضايا علمية أو فلسفية أو دينية تشغل الناس ، بعض الناس . . . أو يجب أن تشغل كل الناس إذا استطعنا أن نحدثهم بعبارة سهلة . . ولا نضاعف همومهم .

مثلا نفرض أننى أريد أن أتحدث عن مرض الإيدز . ليس عن المرض وإنما عن محاولات العلماء علاج المصابين به وبالسرطان والسكر والفشل الكلوى . طبعا هذه أسماء مخيفة وتضايق الناس . ولكن لا مفر من الحديث عنها لأنها خطر على رقاب العباد خطر يجىء للناس من حيث يعملون . . فإذا جاء فهو الموت الفاضح ، أو الفضيحة المميتة .

افرض أننى أريد أن أتحدث عن طبقة الأوزون التى تدور حول الأرض بارتفاع عشرة كيلو مترات . . هذه الطبقة نحن الذين جردناها من قوتها فى منع الأشعة البنفسجية أو أشعة الموت من

الوصول إلينا . ونحن جردناها بالإسراف فى استخدام غازات إذا صعدت إلى فوق فإنها تهلهل هذا الغلاف الغازى حول الأرض . . وقد ظهرت أعراض الإصابة بسرطان الجلد عند القطب الجنوبى . . ظهرت فى الأسماك والحيتان جنوبى استراليا ، وظهرت على بعض الناس . . ومن الممكن أن تظهر فى أى مكان آخر . . والغاز الذى لانزال ننتجه هو الذى نستخدمه فى (بخاخات) الكولونيا وفى الثلاجات وفى أجهزة التكييف . . وقد انعقدت مؤتمرات دولية لحماية البيئة نصحت بتخفيض إنتاجه أو البحث عن بدائل لهذا الغاز . . فهل مثل هذا الموضوع لايهمك ؟ يهمك طبعا . ولكنك قد لاتقبل على قراءة ما يقال عنه . . وأنا أعلم أن روشتات الأطباء ليست قصائد شعر . ولكن الشعر لايجدى شيئا إذا احتجنا إلى دواء أو إشاعة أو علاج ! فما أكثر الذى قيل فى جمال القمر . . ولكن شاعرا واحدا لم ينصب لنا سلالم ذهبية للوصول إلى القمر والكواكب الأخرى . . إنهم العلماء بالأرقام والحسابات والمعادلات المعقدة فى الرياضة والفيزياء والكيمياء .

والكلام عن (الهندسة الوراثية) أى دراسة الجينات المكونة للخلايا فى الإنسان والحيوان والنبات . . وكيف يمكن التأثير فيها وتعديلها . . فعن طريق هذا العلم الجديد استطعنا أن نغير أشكال وألوان النبات والحيوان وأحجام وأوزان هذه الكائنات . . وعن طريق الهندسة الوراثية ومعرفة «الجينات» سوف نكشف ما الذى تحتويه الأمراض فى تركيبها . . أى عن طريق النظر فى تركيب الخلايا يمكن أن نعرف عشرات الأمراض وأسبابها وكيف نقضى عليها .

إن أحدث نظرية فى علاج السرطان الآن هى : أن العلماء قد اكتشفوا أن بعض هذه الجينات تأكل بعضها البعض . . وأن بعض

الجينات تنتحر . والعلاج هو تشجيع الخلايا السرطانية على الانتحار وبذلك يتخلص الجسم الإنسانى من (عربدتها) أو صعلكتها . . لأن خلايا السرطان صعلوكة أو عربيدة . . تنمو وتتكاثر على هواها بلا نظام . . إنها خلايا فوضوية . . والعلماء يحاولون تعليمها الأدب والانضباط فلا تخرج عن الإطار العلمى الصحيح . . فهل مثل هذا الموضوع لايهمك .

إنك لو جلست مع عدد من أطباء الأمراض الباطنية أو التناسلية أو القلب أو السكر أو السرطان ، فسوف تسمعهم يتكلمون ويكررون كلمات نحن ننفر منها ـ ولكنهم ليسوا مثلنا ـ إنها مفردات حياتهم اليومية . . وهى تشغلهم لأنهم مشغولون بالعلاج . . ولو نفروا وتركوا هذه المصائب ما كان طب ولا علاج .

والمثل القديم يقول : افتى معرفتى ، وراحتى ما اعرفش !

إن المعرفة آفة والجهل سعادة ـ وأنا وأنت يجب أن نرفض هذا المثل الذى يدعو إلى تعطيل العقل وشل التفكير والنوم فى عسل الجهل نوما عميقا !

يتعذبون ولايتوقفون .. !

حتى لو وضعت رأسك على مخدة من ريش النعام أو الحرير وعندك صداع أو أرق ، فإنك لن تنام !

كان لى قريب غنى جدا . وكان مصابا بالأرق وكانت له متعة غريبة هى أن ينزل قبل الفجر ليتفرج على البواب الذى نام على البلاط ووضع جزمته تحت رأسه .. ويشخر عالياً . وكان يقول للبواب ـ الذى لايصدقه ولا أنا : خذ هذه العمارة وأعطنى هذا النوم على الجزمة !

وهو لن يعطى العمارة والبواب أيضا لايملك أن يعطيه النوم .

ففى الدنيا هموم كثيرة يطير لها النوم من العين ـ عين العلماء والمفكرين . ولولا أرق العلماء ما نام الناس يشخرون على فراشهم أو على الأرض . فهم الذين اخترعوا وأنتجوا أشكال الراحة والنوم .. وهذه الراحة التى نحصل عليها : ماء فى الحنفية وضوء فى المصباح وثلاجة وتليفزيون ومعلبات وعقاقير ، لم يحققها العلماء إلا بالتعب والأرق .. وهم لن يكفوا عن مواصلة التعب والأرق .. فالعقل لايملك إلا أن يفكر كما أن الشمس لا اختيار لها فى أن تضىء .. فطبيعة العقل أن يبحث وطبيعة الشمس أن تنير .. والشمس تنير حتى للذين لايحبونها ، وحتى للذين لايرون .. والعلماء يبحثون ويفكرون من أجل الجميع ، حتى للذين لايعرفونهم ولايقدرون فضلهم .

وأحيانا نسمع من أمهاتنا فى حالة الغضب : الله يلعن البطن الذى حملك . . الله يلعن الثدى الذى أرضعك !

ولكن هل لنا دخل فى أن تحمل أمهاتنا وتتعذب فى الحمل والولادة والحضانة والتربية . . وهل كان فى استطاعة أمهاتنا أن تفعل غير ذلك ؟ هل كان فى استطاعتها أن تمنع لبنها عن إرضاع طفلها ؟ هل كان فى استطاعة ثديها أن يكف عن إشباع الطفل . .

فالأمومة غريزة تفرض على الأم كل أشكال العذاب . . ومهما تعذبت الأم فهى كالعلماء - تعود إلى الحمل والولادة والعذاب - مرة وعشرين مرة . . ولو استطاعت لفعلت ذلك مائة مرة . . بل أن الأمومة تطغى على المرأة فى سن استحالة الحمل والولادة فتذهب إلى الأطباء لعلاجها حتى تحمل وتلد فيما بعد الخمسين . . فهى ترضى أمومتها رغم أنها لاتصلح لأن تكون أما . . ثم حرام عليها أن تلد طفلا هى عاجزة عن تربيته . . وسوف تتركه يتيما . . ولكنها تريد أن تكون أما وأن تتعذب ولايهمها حتى عذاب طفلها بعد ذلك !

وكذلك العلماء يتعذبون . . ولا يتوقفون عن العذاب مهما بلغوا من العمر . . بل إن البحث والمواصلة طبع وغريزة فيهم . .

عندنا نكتة تقول إن عفريتا قد تقدمت به السن حتى عجز عن الحركة فمر به طفل صغير فناداه العفريت قائلا : يا بنى ساعدنى علشان أقوم وأخوفك !

ففى لحظات النوم لنا نحن المواطنين العاديين هناك علماء يعيشون كالرهبان فى الصوامع يشربون القهوة السادة والسجائر ويتقلبون واقفين وجالسين ونائمين . ولهم هدف واحد : مواصلة البحث عن الذى يرون فى أنفسهم فى الطبيعة والكون .

ولست فى حاجة إلى أن أقول لك الآن عن هدفهم فى هذه الدنيا . .

إن هدفهم هو أن تكون تحت رأسك مخدات من الحرير لكى تنام بعمق دون حسد لأحد . . فهل بعد كل ذلك لاتريد أن تعرف ما هذا الذى يبحثه العلماء فى كل مكان من أجلك . . وكيف يمكن استغلال هذه الاكتشافات لكى تطيل فى عمر الإنسان أو فى قصف عمره . . فكل هؤلاء العلماء يتعاطون أجورهم وتكاليف أبحاثهم من الدولة . . والدولة هيئة سياسية . . ولها مصالح وطنية وقومية ودولية . . وليست من الممكن ـ دائما أن نحصل على حقوقها وحقوقك بالذوق . . وإنما بالحديد والمواجهة . . وفجأة تجد ، كما وجد العالم كله ـ أن هؤلاء العلماء وقد استخدموا عبقريتهم فى الشر وهدم العقل والجسم الإنسانى . . أى أنهم بالعقل يقضون على كل عقل فهل بعد هذا كله ـ لايهمك الأمر ؟

يجب أن تكون مهموما لأنك مهتم كثيرا وطويلا !

أضافوا خرافات!

والغريب جدا أننا نجد تفسيرات متقاربة للدنيا والكون عند الشعوب المختلفة . نفس التفسيرات نجدها عند الفراعنة والهنود والسامريين والصينيين والبابليين والإغريق . .

ووجود هذه التفسيرات المتشابهة عند الحضارات القديمة لايعنى أنها على صلة ببعضها البعض ، ولكن معناه أن الإنسان واحد . . طبيعة واحدة وأن العقل الإنسانى يدفع الإنسان إلى التفكير والتفسير والتعليل والتنظير بنفس الطريقة . .

ولكن هناك خلاف . . فالفراعنة أقاموا عشرات الأهرامات على نظرية هندسية معمارية واحدة . ولكن لم يترك لنا الفراعنة علم الهندسة والجبر وحساب المثلثات ولا التفاضل والتكامل . . ولكن الإغريق هم الذين وضعوا النظريات الرياضية . . فالعقلية الإغريقية عقلية فلسفية فليست عند الفراعنة مثل هذه النظرية الهندسية : مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة . . وليست عند الفراعنة نظرية فيثاغورث التى تقول : إن المربع المنشأ على الوتر فى المثلث قائم الزاوية ، يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين . . ولكن الفراعنة طبقوا هذه النظرية مرات عديدة دون أن يعرفوها . . جربوها فقط ولم يوهبوا هذه القدرة الفذة على التنظير . .

والفراعنة تفوقوا فى الطب والزراعة والعمارة وصناعة العقاقير وصناعة التحنيط . . بل إن فى التحنيط ألغازا لايعرفها أحد حتى الآن . . فنحن كنا نعتقد أن الفراعنة يأتون الذهب من بلاد بنط (الصومال) لكى يستخدموه فى (تذهيب) الأثاث والتوابيت . .

وكان ذلك إسرافا سخيفا . . وكان مثل هذا السلوك يجعلنا نندهش لحكمة الفراعنة فى كل شىء وسفاهتهم فى المشغولات الذهبية .

ولم نعرف أنهم ليسوا سفهاء إلا عندما قامت الشركات الألمانية بنقل معبد أبى سمبل من تحت إلى فوق بعيدا عن بحيرة السد العالى . . فقد اكتشف العلماء الألمان أن الفراعنة كانوا يستخدمون الحلبة المغلية . فالحلبة بعد غليها وسحقها يكون لها لون الذهب . . وهى التى كانوا يستخدمونها فى طلاء الأثاث والتوابيت والعروش - فليسوا سفهاء وإنما هم اقتصاديون وعلماء فى الكيمياء . حتى هذه الحلبة لم تعرف هل كانت حلبة فقط أو فيها مواد كيماوية أخرى تجعلها لاتخرج من الخشب أو الجلود مهما تعرضت للحرارة والرطوبة !

وفى الحضارات القديمة حيوية . . هذه الحيوية تجعلها تحاول الاتصال بالحضارات الأخرى لكى تعرف وتقارن وتستفيد وتتنافس وتتفوق . . وما كتبه العالم المصرى أستاذ المسالك البولية د . بول غليونجى بلدياتى عن العمليات الجراحية عند الفراعنة يضعهم فى المقام الأول من كل الحضارات . . فكثير من العمليات الدقيقة جدا فى المخ والعظام والتربنة تبعث على الدهشة . كيف استطاعوا من ألوف السنين ؟ كيف أدخلوا الذهب فى تركيب الأسنان وصنعوا للإنسان طربوشا وكبارى . كيف ؟ كيف عالجوا الكسور وكيف عرفوا وضع المسامير فى السيقان والفخذين ؟

وكذلك أدوات العمل ومواد التجميل قد تفوق الفراعنة على كل أبناء الحضارات الأخرى .

أما كيف فسروا الكون والعلاقة الإنسانية فى الكون بالشمس والقمر والسماء والنيل وأعالى النيل والحيوانات والطيور والنباتات .

فقد كان الفراعنة فى قمة الفلسفات القديمة . . ولم تكن لديهم هذه القدرة المذهلة على وضع النظريات الفلسفية المنطقية . بل ليس فى كل الحضارات القديمة من هم فى عظمة سقراط وأفلاطون وأرسطو وفيثاغورث .

وهيرودوت أبو التاريخ قد وجد عند الكهنة أسرارا لم يجد لها نظيرا . . كانت لديهم القدرة على أن يلقى الواحد بعصا من الحديد . . فتظل العصا معلقة فى الهواء ؟! ومعنى ذلك أن الفراعنة استطاعوا أن يحققوا منطقة لانعدام الوزن قريبة من سطح الأرض . . وهذا مالم نعرفه إلا أخيرا جدا عند الروس والأمريكان . . فقد نجحوا فى خلق مناطق انعدام الوزن أى انعدام الجاذبية الأرضية فى أنفاق ألكترونية تحت سطح الأرض . .

ومعنى ذلك أن الحضارات الفرعونية قد بهرت الناس حتى تطوعوا بإضافة القدرات الخارقة لهم . . ودخلوا بها فى دنيا الخرافات . . أو كأنها خرافها !

ماهو الموت !

الإنسان فيلسوف . . أى : إنه يفكر ويحاول أن يعرف معنى الذى يراه ولماذا صارت الأشياء والحيوانات والنباتات والإنسان إلى ما هى عليه ؟ وكيف كانت ؟ وكيف ستكون ؟

نظر الإنسان قديما إلى الشمس . . وقال إنها هى التى تتحرك من الشرق إلى الغرب . . وقال إن الشمس تنطفئ فى البحر . . وتولد كل يوم من جديد . . . وقال إن الأرض عبارة عن قرص من الطين والماء . . . وتساءل وماذا عند أطراف هذا القرص وأجاب بأن هناك ظلاما دائما . . أو بحر الظلمات .

ولم يفهم الإنسان كيف حدث كل ذلك . . . أو من أين جاءت الشمس والنجوم والهواء والماء والطين وكيف خرج الإنسان حيا من كل ذلك . . . وهل خرج الإنسان من الطين وكذلك الحيوان والنبات .

وأمام علامات الاستفهام الكثير فى الكون شعر الإنسان بالعجز بالخوف . . فهو لا يستطيع أن يمنع عن رأسه حرارة الشمس والمطر والعواصف . . ولا الموت . . إذن فالإنسان ضعيف . . فهو لايقدر على قتل كل الحيوانات ولايستطيع أن ينقذ أطفاله من أنياب الحيوانات المتوحشة .

ثم ما الذى يحدث ـ وهو الأهم ـ للإنسان عندما يموت . . . أو ما هو الموت ؟ والجواب هو :

أن يسكت الإنسان فجأة فلاينطق ولايتحرك ولايقاوم . . . ماذا حدث ؟ ما الذى كان فى داخله ثم خرج ؟ ما الذى انطفأ فى عينى الإنسان ؟ ما الذى سكت فى لسان الإنسان ؟ ومن الذى فعلها ؟

وعندما تحدث الإنسان عن النفس تحدث أيضا عن التنفس . . فالحياة هى التنفس ، ، أى أن الإنسان الحى هو القادر على التنفس . . هو الذى «فيه نفس» . . والتنفس والنفس شىء واحد . . الموت هو ألا يكون نفس أو تنفس .

وفى المراحل الأولى لتاريخ الإنسان على الأرض ركع الإنسان أمام كل شىء أو حيوان أو ظاهرة لايقوى عليها . . الشمس والقمر والنجوم والعواصف والسحب والرعد والبرق والأرض والنهر أيضا . . . فأمام هذه الظواهر يشعر الإنسان أنه أمام جمال مخيف ، فالجمال والخوف معا .

فمن أى شىء يتكون جسم الإنسان ؟ أنه يتكون من كل عناصر الكون : الماء والتراب ونار الشمس وضوء القمر والهواء . . ولكن فى الحيوان شىء ليس في النبات . . . إنه قادر على الحركة وفى الإنسان شىء ليس فى الحيوان أنه قادر على التفكير وعلى تغيير وتطوير أدوات حياته . . . بدلا من أصابع اليد صنع الشوكة والسكين وبدلا من ركوب الحصان ركب السيارة والطيارة وسفن الفضاء . . . وبدلا من ضرب الحيوانات والأعداء بالطوب اخترع الرصاص والقنابل والصواريخ واخترع الغازات السامة . . . وبدلا من أوراق التوت لحواء وبناتها اخترع الفساتين وبلاطى الفرو والجزمة والجوهرات والأبيض والأحمر والعطور والعقاقير . . . وكان من بنات وأبناء حواء وآدم طيارون ومهندسون وعلماء وفنانون . . وليس أحد من ذلك من أبناء الحيوانات !

وما فعله قابيل بأخيه هابيل لايزال يفعله الأخ بأخيه . . . وما فعله أولاد يعقوب بأخيهم يوسف حقدا عليه ، لايزال الأخوة يفعلونه حتى اليوم وغدا . . . وما يفعله الرؤساء والقادة والزعماء

تفعله الدول ، تفعله الشعوب . . . وماتزال الكراهية والحقد هى أم الاختراعات كلها . . . فمن أجل الحرب اخترعنا الطائرة والصواريخ والقنابل الذرية وحرب النجوم - أى الحرب بين الكواكب بعضها وبعض بعد أن فرغنا من الحرب بين الدول وبين القارات وبين الطبقات . . كل ذلك ومن أجل ذلك استأنفنا الكراهية والحقد والطمع على مستويات أعلى .

وكما كان الإنسان متعطشا للدم عندما ظهر لأول مرة فى إفريقيا ، فهو لايزال متعطشا إليه عندما يتبارى الروس والأمريكان فى وضع سفنهم وأعلامهم على سطح القمر .

ولاتزال الحروب مستمرة ولكن بأسلحة أخرى !

لا دخل لنا !

أما الصورة الحديدية التى اتخذها الكون فكانت فى القرن السادس عشر الميلادى . فى هذا القرن أشرقت عليه أعظم عقلية خلقها الله حتى اليوم . إنه العالم البريطانى إسحق نيوتن . . فهذا العالم العظيم قد أوتى قدرة جبارة على اكتشاف القوانين الثابتة الحديدية لحركة الأشياء فى هذا الكون حركة ظلطة صغيرة وحركة الشمس والأرض والقمر والنجوم الأخرى . كل هذا الكون مربوط ربطا مطلقا أبديا بقوانين ثابتة . هذا العبقرى نيوتن هو الذى اكتشف هذه القوانين . أو الحكمة التى أودعها الله فى كل شىء . . ومنذ القرن السادس عشر نحن ننظر إلى الكون على أنه جهاز ضخم منضبط تماما ولا قدرة له على الخروج عن القوالب التى رسمها الله فالكون هندسة . . والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المهندس الأعظم ! ومعنى آخر : أن هذا الكون مخلوق هكذا . ولا يستطيع الإنسان أن يتدخل فيه . . لا قدرة له على أن يحشر أنفه فى كل الذى حوله . . مثلا إذا أنت ألقيت طوبة من الشباك إلى الأرض فأنت لا تستطيع أن تمنعها من السقوط . . . ولا أن تمنعها عندما تسقط أن تتجه إلى اليمين أو إلى اليسار . . والسبب هو دوران الأرض وجاذبية الأرض . . يقول القرآن الكريم : «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» . صدق الله العظيم .

الكل يسبح فى فلك . . الكل يدور حول نفسه وحول غيره من النجوم والكواكب الأخرى . . القمر يدور حول الأرض والأرض

تدور حول الشمس والشمس تدور هى الأخرى حول شموس أخرى فى مجاميع تضم ألوف ملايين النجوم ـ وهى التى نسميها بالمجرة . . والمجرة كلها تدور حول مجرة أخرى . . وكل المجرات وعددها ألوف الملايين تدور حول مركز للكون لانعرفه . . والله أعلم إن كان هذا الكون الذى نعرفه هو الكون الوحيد . . أو أن هناك أكوانا أخرى لا عدد لها ، لانعرفها . . كل شىء فى فلك يسبح فيه وبه ، فسبحان الله !

وفى الحساب نقول ٢+٢ = ٤ إلى الأبد ولايستطيع الإنسان أن يجعلها أقل أو أكثر . .

ومعنى هذا : أن هناك كونا لا دخل لنا فيه . . يمضى لسبيله أعلى قواعد لا دخل لنا فيها . .

ومعنى هذا : أن هناك عالمين اثنين : عالم الأشياء وعالم الإنسان . . العقل الإنسانى والوجدان الإنسانى الذى يحب ويكره ويمرض ويموت ويجوع . هذا العالم الذى حوله . . والعالم الإنسانى الذى يتغير وفق مشاعر الإنسان وقدراته العقلية وثقافته وتجاربه هو عالم الفن فى مواجهة العلم . .

فأنا أستطيع أن أقول : إننى أحب القمر . .

ولكن القمر لايحب ولايكره . .

ويقول : لو كان القمر يبقى فى السماء بدرا إلى الأبد . . ولكن القمر لايستطيع ولأن للقمر قوانين تحركه فى هذه المنظومة الشمسية . .

أما العالم المادى الذى تربطه القواعد الحديدية الصارمة مثل كل الأجسام السماوية ليس وحده الخاضع لهذه القوانين . وإنما هذه القوانين تنطبق على الإنسان والحيوان والنبات أيضا وتنطبق

أيضا على الحركات الاجتماعية الإنسانية وضروراتها الاقتصادية وقدراته السياسية . فالمجتمع بطبقاته وقدراته يخضع لقواعد مثل قواعد الفيزياء والفلك عند نيوتن - وهذا هو رأى الفيلسوف الألمانى كارل ماركس . . بل إن العواطف والدوافع والرغبات والمخاوف الإنسانية هى الأخرى ليست دخانا فى الهواء ، وإنما هى دخان مضبوط نراه ونتحكم فيه ونرى آثاره فى الطفولة والشباب والرجولة فى الصحة والمرض - هكذا قال العالم النمساوى فرويد ! إذن لقد أدت فلسفة نيوتن إلى أن أصبح العقل هو سيد الكون . وكل شىء يخرج من العقل كما تخرج الخيوط من العنكبوت . . فالعقل يفرز قوانينه ويفرز قيوده وقواعده . . قواعد حركته والقيود على نزواته . . حتى النزوات لها قانون .

وظل هذا حال الإنسان حتى القرن العشرين - وأوائل القرن العشرين .

القمة
ألمانيا واليابان

ماذا سيحدث لنا فى القرن الواحد والعشرين ؟

دعنى أجتهد . من المؤكد أنه سيكون وفرة فى الطعام فى كل الدنيا لأننا سوف نستخدم «الهندسة الوراثية» فى «التشريع» فى النمو وحماية البذور والثمار . . فمن آمالنا أن نجعل حبة البطاطس مثل البطيخة . . ممكن جدا والعكس أيضا ممكن . . وسوف نجعل الأسماك أكبر . . وسوف نجعل الأشجار أغزر زهورا وأغزر ثمارا . . وسوف أضرب مثلا واحدا . . زراعة البطاطس . . أحدث ما وصلنا إليه بدلا من أن نضع حبة البطاطس فى الأرض كنوع من البذور والجذور . . فإننا نضع شريحة بطاطس . . أى حبة البطاطس الواحدة نجعل منها عشرين أو ثلاثين «بذرة» . . وشوال البطاطس من الممكن أن نقطعه ونزرع به فدانا أو أكثر . .

تغيرت الدنيا . . والآن نزرع «نسيج البطاطس» نسيج الكمثرى . . نسيج التفاح . . ونسيج كل الثمار . . وذلك بأن نأخذ أوراق أشجار الفاكهة . . الورق فقط . . وندخل به المعمل ونقطع الورقة إلى أنسجة . . ألوف الأنسجة . . ملايين . . أحسن الأوراق وأقواها وأصحها . . وندخلها المعمل وننقلها إلى وعاء به أملاح حتى تظهر الأوراق والسيقان . . ثم ننقلها إلى أماكن أخرى لتنبت البذور . . ثم ننقلها إلى أماكن أخرى لتنبت البذور . . ثم ننقلها إلى أماكن أخرى لكى تظهر الفروع والجذور معا . . ثم ننقلها إلى الحقل . . ألوف الشتلات . . مئات الألوف وكلها جاءت من بضع أوراق صغيرة . هذا

يحدث فى مصر . نعم يحدث فى مصر . . ولذلك فنحن قادرون على تصدير هذه الشجيرات أو الشتلات إلى أمريكا اللاتينية !

فمن المؤكد أن الطعام سوف يكون أوفر فى القرن الواحد والعشرين . . ولكن وفرة الطعام سوف تكون عند الدول الغنية . . ولكن سيكون عدد سكان الكرة الأرضية قد تضاعف وأصبح عشرة آلاف مليون . . كلها تحتاج إلى مزيد من كل شىء . . وعلى الرغم من هذه الوفرة فى البذور والبقول والثمار ، فإن الناتج لن يكفى سكان الأرض الذين سيتضاعف منهم عدد الذين يموتون جوعا . . أى سوف تزداد المسافة العريضة العميقة بين الفقراء والأغنياء . . والذين لاشىء عندهم ولا حتى الستر !

ومن المؤكد أن أمريكا سوف تضعف . . وسوف تغيب الشمس عن زعامتها . . لأن أمريكا اعتمدت على ثروتها فتكاسل الملايين من أبنائها . . واعتمدت على بديهية أنها الأقوى والأغنى ، ولذلك سوف تتراخى عسكريا بسبب ثقتها الزائدة فى قدراتها فى كل المجالات . .

ولكن سوف تبقى فى القمة ولا تكف عن الإبداع والتشويق : اليابان وألمانيا وسويسرا والمجموعة الأوروبية .

فالقرن الواحد والعشرون سوف يشهد ذبول الولايات المتحدة الأمريكية . . كما شاهد القرن العشرون انهيار الامبراطورية السوفيتية وسوف يهرب العلماء إلى أوروبا كما هربوا منها إلى أمريكا من قبل . .

وحتى فى هذا القرن لم نجد أحدا من قادة أو زعماء أمريكا يرقى إلى مستوى القادة فى أوروبا ولا الزعامات السياسية ولا الفكرية ولا الاقتصادية فلم تعرف أمريكا هتلر ولا موسولينى ولا

لنين ولا ديجول ولا تشرشل ولا تاتشر ولا أتاتورك ولا فرانكو وربما كان الرئيس نيكسون هو آخر الرؤساء الأقوياء والمفكرين فى أمريكا . . فالذين قبله والذين بعده هم وجوه جديدة أتى بها الحزب . . لأن الرئيس الأمريكى عادة مثل المطرب ، الكلام ليس من تأليفه ولا اللحن ولا الموسيقى . . وإنما هو أجمل الأصوات والوجوه وأقدرها على الأداء فقط . . فهو يغنى ولايضيف شيئا من عنده . . إلا نيكسون فقد كان يرتجل ويجتهد ويضيف كلاما من عنده وقرارات غير متفق عليها . .

الروبوت يكسب !

وسوف نشهد عصرا ذهبيا للروبوت . . الذى يقوم بالأعمال الدقيقة والمستحيلة بالنسبة للإنسان . فهو الجهاز الذى لايكل ولا يمل . . ويعادل فى وقته وقدرته ألوفا من العمال أى الذى يحتل مكانهم ويصيب بالبطالة عددا كبيرا من أيدى العمال .

وقد انتشر الروبوت فى كل الدول الصناعية الكبرى . . ودخل تركيب أدق الأجهزة فى الصناعات الأليكترونية فى اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وتايلاند وسنغافورة . . وفى بعض الصناعات فى ألمانيا وأمريكا .

وقد استخدمه الأمريكان فى سفن الفضاء . . أى فى الخروج منها وتركيب وربط وتعديل بعض الأجهزة التى أصابها الخلل بسبب التعرض للسرعات الهائلة والفوارق الضخمة فى الضغط والجاذبية . . واستخدموه أيضا فى الغوص فى أعماق المحيطات . . وانتشال السفن الغارقة . . وذلك بوضع البرامج الدقيقة فى العقول الأليكترونية للروبوت مما جعله أقدر على تنفيذها بمنتهى الدقة . . وأقدر على تحمل ضغوط الماء عليه . . وقد نجحت كل تجارب الروبوت فى انتشال كنوز فى البحر يقدرونها بألوف الملايين .

كما أن شركات الطيران التى كانت تعتمد على أبرع الطيارين فى عمل تجارب الطيران على ارتفاعات شاهقة . . وبسرعات هائلة . . هى الآن تعتمد على الروبوت الذى لاتؤثر فيه السرعة والضغط ولاتتعرض لأى نوع من أنواع الأوجاع . . كما أن الأمريكان استخدموا الروبوت فى تجارب معقدة فى صناعة وإطلاق ومقاومة الصواريخ .

وكان الأمريكان قد استخدموا الطائرات التى لايقودها الإنسان باستخدام أجهزة أتوماتيكية . . ولكن لم تستطع هذه الأجهزة الصمود فى مواجهة الضغوط العميقة والمتغيرات السريعة فلجأ الأمريكان إلى الروبوت الذى ركبوا فيه عقولا اليكترونية كثيرة ومتطورة .

وكان اليابانيون يستخدمون الأيدى العاملة ـ النسائية ـ فى تركيب القطع الدقيقة فى الأجهزة الأليكترونية ، حرصا على الدقة والكمال . . وخوفا من أن يفلت الزمام من الروبوت المبرمج . . ولكن اليابانيين أفلحوا فى إتقان صناعة الروبوت وتدريبه على أصعب وأدق الأعمال وتركيب أدق الأجهزة . . لدرجة أنه فى استطاعة الروبوت أن (يلضم) الخيط الرفيع جدا فى ثقب الأبرة دون خطأ ـ أى معدل الخطأ هو واحد على عشرة آلاف من الملليمتر ـ تصور !!

بل لقد ذهب اليابانيون فى قدرتهم أنهم استخدموا الروبوت فى إجراء لحام قرنية العين بأشعة الليزر . فالمجال الذى يعمل فيه الروبوت ، هو ملليميترات معدودة ولثوان معدودة . . ومجال الخطأ يجب ألا يزيد على واحد على عشرة آلاف من الملليميتر . . ونجحت هذه التجارب البالغة الخطورة على العين والجسم الزجاجى والقرنية والقزحية وإنسان العين !

وقد قامت شركة (ميكوموتو) التى تنتج اللؤلؤ المزروع باستخدام روبوت لغرز حبات اللؤلؤ كاملة الاستدارة ـ وهذا شىء نادر فى الطبيعة . . فلا توجد حبة واحدة (كاملة) الاستدارة . . وإنما شبه كاملة . . أو مستطيلة . . ولكن برمجت الروبوت على أبعاد الحبة الكاملة ودرجة شفافيتها ومدى امتصاصها للضوء أو انعكاسه

عليها ووزنها وكثافتها . . فاكتشفت هذه الحقيقة المذهلة . أنه لم يثبت وجود حبة واحدة كاملة . . وإنما حبة واحدة بين كل ربع مليون حبة لؤلؤ !!

إلى هذه الدرجة من الدقة استطاع الروبوت أن يفرز حبة اللؤلؤ وفقا للمواصفات التى وضعوها فى عقله ، وسوف يكون إنتاج الروبوت نفسه ، أرخص . . وسوف يكون حجمه أصغر .

هذا الروبوت سوف يساعد الإنسان فى التخلص من الإنسان . . وسوف يكون أدق وأسرع وأغزر إنتاجا . . وسوف يؤدى إلى زيادة عدد العاطلين والساخطين على الرأسمالية .

فمن يدرى ربما أدت هذه الثورة الصناعية الجديدة أو القادمة إلى كفر بالنظام الرأسمالى . . ودعوة إلى نوع جديد من الاشتراكية .

طفل يقتل طفلا !

يهمنى جدا أن أتابع ما تنشره الصحف البريطانية عن المصيبة التى لحقت بالأسرة والمدرسة . وكان من نتائجها أن طفلا قتل طفلا . . أن بريئا قتل بريئا ولايزال القاتل بريئا لأنه لا يعرف حتى الآن لماذا قتل ؟ وكيف فكر ودبر .

عندما سأله القاضى : ماذا فعلت ؟

قال : نحن تشاجرنا .

– وبعد ذلك .

– وهو ضربنى وأنا ضربته .

– ولكنك استدرجته إلى مكان بعيد عن البيت أنت وواحد صاحبك ثم واحد منكما أمسك ذراعى الطفل والثانى خنقه حتى مات .

– نعم .

– هل تعرف معنى أنه مات ؟

– . . . . . .

– هل تعرف ما معنى أنه مات . .

– . . . . . .

– يعنى لم يعد يرد عليك إذا تكلمت معه . . لم يعد قادرا على أن يفتح عينيه . . ولا قادرا على أن يقف . . أو يدافع عن نفسه .

– . . . . . .

– يعنى لن يلعب معك . . لن يذهب معك إلى المدرسة . . يعنى أبوه وأمه سوف يبكيان عليه مدى الحياة . . وزملاؤك فى المدرسة سوف يكرهونك ويقاطعونك . . وسوف تجد نفسك وحدك . . حتى بابا وماما لن يتكلما معك . . فاهم ؟

– نعم . .

– لماذا جعلته هكذا غير قادر على أن يفعل أى شىء . . ما هو السبب ؟

– إنه تخانق معى . .

– ماذا فعل بالضبط . .

– ضربنى . . وعضنى .

– وأنت ؟

– ضربته . .

– هل هو حاول أن يخنقك ؟

– لا . .

– هل حاول أن يجعلك تموت . . هل حاول ؟

– لا

– يعنى أنت الذى قررت من تلقاء نفسك أن تقتله ؟

– نعم . .

– ومتى فكرت فى ذلك ؟

– الأسبوع الماضى

– الأسبوع الماضى ؟ وهل كنت غاضبا طوال الأسبوع الماضى . . هل لم تلعب معه ؟

– لعبت معه . .

– طوال هذا الأسبوع ؟

– نعم . .

– ورغم ذلك قررت أن تقتله . . هل هى فكرتك أنت أو هى فكرة صاحبك الذى ساعدك على قتله .

– فكرتى أنا .

- هل فكرت أن تطلع ماما أو بابا على فكرتك .
- نعم . .
- فماذا حدث ؟
- نمت . .
- نمت . . يعنى كنت عاوز تعرض الفكرة على بابا وماما . . قبل أن تنام . .
- نعم . .
- هل كنت تتصور أن بابا سيوافق ؟
- نعم
- لماذا ؟
- لأن بابا حاول أن يقتل ماما .
- من الذى قال لك ؟
- أنا رأيت ذلك . .
- وهل لو عرضت فكرتك على ماما كانت ستوافق ؟
- نعم
- لماذا ؟ .
- لأنها حاولت أن تقتل بابا
- من الذى قال لك ذلك . .
- لا أحد . . ولكنى رأيتهما .

ولما استدعى القاضى والدى الطفل . . سألهما . فأكدا له أن الذى قاله الطفل ليس له أساس وإنما هو الذى تخيل ذلك .

وبقيت المأساة مزعجة لكل أب وأم فى بريطانيا .

كيف يفكر طفل أن يقتل ثم كيف يقرر ويدرب ويتعاون مع طفل آخر وينفذ الاثنان الجريمة . .

والمصيبة أن الطفل لايعرف ما الذى فعله ولايدرى إن كانت هذه جريمة . . ولايعرف إن خنق أى إنسان يؤدى إلى موته . ولكن طفلا مات وطفل هو القاتل . . فكيف حدث ذلك ؟ ومن القاتل الحقيقى ؟ إنه الطفل الذى لايعرف معنى القتل . . ولكنه قتل .

وسأل القاضى والدى الطفل فعرف أنهما يعملان . . وأنه ليس لديهما متسع من الوقت للجلوس مع هذا الطفل وثلاثة أخرين من أبنائهما .

وسأل القاضى الطفل : أنت غلطان .

– نعم .

– وإذا كنت غلطانا لأنك قتلت طفلا فما هى العقوبة . . طبعا لابد أن نعاقبك لأنك حرمت طفلا مثلك من اللعب ومن المدرسة ومن أن يكبر ويتعلم ويسافر ويكون جنديا يدافع عن الوطن ويكون زوجا وله أولاد مثلك . . هل تعرف أننا لابد من نعاقبك . لابد . . هل تعرف ما هى عقوبتك ؟

– . . . . . .

– ألم يقل لك أحد إنك إذا قتلت أحدا لابد من قتلك أنت أيضا .

– . . . . .

– يعنى يجب أن تموت تماما كما مات هو . . فلا عودة إلى البيت . . ولا لعب ولا مدرسة . . ثم يلقونك فى الأرض وحدك . . ولن تعود .

– (الطفل يبكى) .

والقاضى يقول : رفعت الجلسة !

المثل الأعلى مشكلة !

الصحف البريطانية تقول فى عناوينها الكبرى وبالأحمر والأسود الغليظ : القاتل طفل والقتيل أيضا . . القاتل لايعرف كيف ينطق أو يكتب كلمة قاتل . . القاتل الصغير يكذب أيضا . . القاتل يقول للقاضى : أريد أن أعتذر له ـ أى للقتيل ؟!

انعقدت عشرات اللجان فى كل المؤسسات العلمية والتربوية والأمنية والجنائية والنفسية والتليفزيونية والسينمائية تتساءل : لماذا وكيف قتل ؟

رجال ونساء التربية والتعليم يقولون : لاشك أنها غلطة الأب وجريمة الأم . . فالطفل الذى لايلقى توجيها من أحد هو طفل ضال . . والطفل الضال هو أول من يهتدى إلى الطريق الخاطئ والأسلوب الخاطئ والعنف .

فالطفل برئ والقاتل أبوه وأمه . . أو القاتل الحقيقى هى الأم . . إنها هجرت البيت لكى تعمل . . وتركت الطفل يتخبط فى دنيا العنف الذى اقترفه الكبار فى الصحف وفى كل وسائل الإعلام : الجريمة الفردية والجريمة الجماعية والحرب وهى أعظم الجرائم بين الشعوب بعضها وبعض .

ويقول د . أرننج هانسير أستاذ التربية المعروف : إن الذى وصل إليه الطفل هى النتيجة . . أما المقدمة فهى الإهمال من الأبوين واللامبالاة ، إن النتيجة البشعة دليل على أن الأبوين يفضلان الزوجية على الأبوة والأمومة . . ومن أخطاء هذا الزمان أن الأجيال الجديدة الشابة تتقدم للزواج دون فهم لنتائج هذه العلاقة التى

يحترمها المجتمع . . أو يقدسها الدين . . لأن معناها أن شابا قرر أن يعيش مع شابة أحبها أو جذبته جنسيا ولم يفكر كثيرا فى معنى أن يكون له طفل أو أكثر . . أو أنه فوجئ بالأطفال . . فإذا جاءت الأطفال قال هو وقالت هى أيضا : إنها غلطة . . فالطفل ليس هو الغلطة وإنما الزواج هو الغلطة التى ترتبت عليها غلطات كثيرة . . أقصاها الجريمة . . وليست الجريمة أن يقتل طفل طفلا آخر . . وإنما الجريمة أن يكون الطفل ضالا ، مستعدا لأن يقوم بأى شىء . . كأن يقتل والديه . . أو كأن ينتحر . . أو ينحرف مع آخرين . . أو يكون سببا فى انحراف الآخرين .

أما الآباء فيقولون : بل هو التليفزيون الذى يعرض ما لانهاية له من القصص البوليسية السرقة والقتل والدم . . حتى اعتاد الصغار والكبار على سماع طلقات الرصاص ورؤية الدخان والدم . . وانتصار أحد الطرفين . . والأطفال فى مثل هذه السن ينظرون إلى رجل الشرطة على أنه أقوى رجل فى العالم . . وفى هذه المسلسلات يتساقط رجال الشرطة ويموتون وهم يطلقون النار على المجرمين .

فكيف ترى رجلا يحمى القانون والناس ثم يموت فى النهاية . . كأن حماية المجتمع عقوبة يفرضها اللصوص على رجال الشرطة وعلى الأطفال الصغار الذين لايجدون أحدا يسألونه عن معنى الذى يرون . . وأكثر من ذلك مسلسلات الحرب . . ومن الصعب على الطفل أو حتى على المشاهد الكبير أن يفرق بين المعارك الحقيقية والمعارك السينمائية . . بل إن المعارك السينمائية والتى يقوم بها أبطال معروفون ومحبوبون عند الطفل وعند والديه هى الأحب والأقوى أثرا . . فكل ما يقوم به النجم المحبوب محبوب أيضا .

فالطفل يرى فى هؤلاء الأبطال مثلا أعلى وقدوة . . وليس غريبا أن يقلدهم . . ورجال السينما يقولون : بل هناك ما هو أسوأ من الأفلام والمسلسلات . . هناك الكرتون . . حيث المعركة دائمة بين القط والفأر . . فالقط القوى الغاشم يحاول القضاء على الفأر ولكن الفأر الذكى هو الذى يتغلب فى النهاية بالذكاء والحيلة . . وكل عبقريات الكرتون تقف وراء الفأر وضد القط . . ولكن الفأر عنيف والقط أيضا . . فهذا الكرتون يغرس فى أعماق الطفل : الكراهية وهى لا علاج لها . . الرغبة فى الانتقام التى لا شفاء منها . . فليس هناك سلام . . وتعايش سلمى . . ولا تسامح . . فالكرتون الظريف المضحك هو فى غاية العنف أيضا . . بل هو عنيف مكثف . . والطفل الصغير لايرى قصة واحدة فى اليوم . . بل عشرات القصص . . مئات المعارك بين القط والفأر . . وأكثر من ذلك فشبكات التليفزيون العالمية سوف تخصص قنوات للطفل ». أى أنها سوف تنفرد به رغم أنف والديه ، وتحقنه بالدم والعنف والكراهية والانتقام والتشفى والراحة بعد النصر على العدو . . ألف عدو وألف انتصار عليه !

فهنا تكمن كل النزعات العدوانية عند الطفل الصغير !

ليست جريمة طفل !

هل الإنسان خير بطبعه أم هو شرير ؟ هل الإنسان لا خير ولا شرير ، ولكنه يصير كذلك ؟ فما الذى يجعله كذلك ؟ هل هو شرير بالفطرة أم بالتكوين . . أو أن الظروف العائلية أو المدرسية أو الاجتماعية هى التى تجعله مجرما ؟

من المعروف أن الطفل عنده استعداد لكل شىء . . ولكن الذى يثير فيه الحب والسلام والتسامح أبواه والمدرسة والتربية الأخلاقية والقومية فى كل مكان حتى يصبح قادرا على أن يفكر وحده ويدبر لنفسه .

وكان أستاذنا العظيم سقراط يقول : إن كل شىء موجود فى أعماق الإنسان . . ونحن نذكره فقط بما لديه . . بالخير والشر . . والحب والكراهية . . والعنف والرحمة . . والغطرسة والتواضع . . والكرم والبخل . . كل هذا موجود فى أعماقه . . ونحن لا نعلم الطفل شيئا وإنما نحن نجعله يتذكر بالحوار . . بالحديث إليه . . بالتفاوض معه . . بالحسنى .

أما رجال الدين فى بريطانيا فهم قد وجدوا صيدا سمينا . . ورأوا فى هذه الجريمة «العيالى» أكبر دليل على اختفاء الضمير الأخلاقى عند الأبوين والطفل . . فالطفل لم يشعر لحظة واحدة أنه ارتكب جريمة . . أو أنه فى الطريق إلى ذلك .

فمن الذى يقول له ؟ يقول له صوت فى أعماقه . . هو صوت الله . . صوت الدين هو الذى يقول له : حرام . . لا تقتل . . حرام لا توجع طفلا

آخر . . حرام أن تجعل طفلا آخر يبكى . . وتجعل أمه تحزن . . حرام أن تأخذ منه اللعبة التى يملكها . . وحرام جدا أن تأخذ منه حياته .

ورجال الدين يقولون : إنها ليست جريمة طفل . . بل هذا الطفل هو المجنى عليه . . أبواه والمدرسة والكتب والتليفزيون كلها تعاونت على تحويل الأصابع الناعمة الصغيرة إلى أنياب ومخالب . . فلينظر كل إنسان إلى يده وهى تشير إلى الطفل بأنه مجرم . . سوف يجد أصبعا واحدا يتبعه إلى الطفل والأصابع الباقية تتجه إليه هو هذا هو العدل . . فالقاتل قد جعله المجتمع مجرما . . وهو لم يفعل أكثر من أنه نفذ مشيئة الأكبر سنا !

ويقول رجال الدين : إن التربية الحديثة حذفت الحياء والأدب من مقررات المدرسة . . فالدولة تتبنى برنامجا لتعليم الأطفال ألف باء الحياة الجنسية بالصورة والصوت . . لقد دفعت المدرسة كل الأطفال إلى أعمق أعماق حب الاستطلاع .

وبدلا من أن تقف المدارس عند هذا المدى فقد نشرت الصحف البريطانية أن وزارة الصحة قد أباحت حبوب منع الحمل عند الأطفال !

إلى هذه الدرجة انحط المجتمع البريطانى . . وبعد ذلك يشكو رجال التربية من غفلة الآباء والأمهات ؟!

ويطلب رجال الدين بعودة العقاب الجسدى للأطفال فى المدرسة . . لابد من توجيه الطفل بالقوة . . تماما كما نفرض الدواء المر على الطفل . . فلأنه صغير فهو لايعرف ما الذى ينفعه وما الذى يضره . . ولكن الذين يرون إكراه الطفل على الأدب نوعا من إفساد الطفل وإهانته كإنسان . . هؤلاء يجب أن يجلسوا وأن يفكروا

كيف قضوا على أجيال كاملة انحرفت أخلاقيا وجنسيا واجتماعيا وسياسيا .

يقول رجال الدين : عند كل جريمة يجب أن نفتش عن الضمير . . هل هو هناك ؟ هل صوته مسموع ؟ هل للضمير أنياب وأظافر ؟

هل للضمير فرامل توقف الطفل عند حد لا يتجاوزه . . إنها جريمة بشعة تكشف عن أعماق الفراغ الأخلاقى عند الطفل وعند والديه ورجال التربية أيضا !

الفرق بين الإنسان والحيوان !

كيف لايكون المواطن الألمانى قاتلا ؟ كيف لايكون اليابانى؟
إن ألمانيا دخلت الحرب ومسحت الخريطة الأوروبية ذهابا وإيابا وأغرقتها بالدم وأحرقتها بالنار . . وبلغ ضحايا الحرب العالمية الثانية خمسين مليونا ويقال أكثر . . فماذا حدث للألمان بعد الحرب . . تحالفت كل وسائل الإعلام فى أوروبا ضد الشعب الألمانى . . كلها تسخر من الألمان ومن وحشيتهم وهمجيتهم . . وكيف أنه شعب ذليل فى استطاعة أى إنسان أن يدفعه إلى القتل والموت ـ وكذلك فعل هتلر ؟

والذى يصدر هذا الحكم يغفل طبعا عبقرية الشعب الألمانى فى كل العلوم والآداب والفنون . . وإنما يرى أن كل هؤلاء العباقرة أيضا أذلاء وأن أى إنسان يستطيع أن يسخرهم للدمار العالمى . . أى يسخر عبقريتهم فى تدمير الدنيا كلها .

وشرب الشعب الألمانى المر أشكالا وألوانا فى أعقاب الحرب . . ولكن العبقرية الألمانية واليابانية لم تمت . . فقامت ألمانيا وتفوقت على كل الذين احتلوها ولا يزالون ، وعاود الخوف كل الشعوب الأوروبية من ألمانيا ذلك العملاق الأشقر . . ومن اليابان ذلك العملاق الأصفر . .

ولكن الهوان والاحتقار وتعميق الشعور بالذنب عند الألمان ، والذى تولته أمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصهيونية العالمية . . كل هذه الضغوط ولدت فى الشعب الألمانى شعورا قويا قاسيا

بالمرارة وشعورا بالظلم الذى وقع عليه . . فلم تكون هناك جريمة واحدة ارتكبها الألمان ولم يرتكبها الروس والحلفاء أبشع - إن الإنجليز كانوا يقتلون الأسرى من الأرجنتين فى حرب الفوكلاند . . معركة صغيرة فى جزيرة نائية . . وكان الإنجليز يقتلون الأسرى الذين استسلموا . . أما الروس فهم أكثر وحشية من أى مقاتل فى التاريخ . . والذى ارتكبه ستالين وحده فى شعبه ليس إلا شيئا رمزيا . . أما الذى ارتكبه مع الألمان فهو الوحشية نفسها - فقد قتل ستالين عشرين مليون روسى . . وشردهم فى بلادهم . . فما الذى لم يفعله بالألمان فى هذه الحرب ؟!

والذى حدث للشعب الألمانى كان أضعاف ما حدث للشعوب المهزومة فى الحرب . .

وهذا الشعور بالمرارة والانتقام هو الذى جعل الحروب أبدية . فالحروب لم تنته فى أى وقت . . بل إن فى عصرنا هذا أكثر من عشرين حربا دائرة . . فى القارات الخمس .

إن المؤرخ الأمريكى ول ديورانت يقول إنه فى التاريخ الإنسانى المسجل وطوله ٣٤٢١ سنة لم نعرف السلام إلا ٢٦٨ سنة . . السلام المهتز . . أى الذى هو توازن ضعيف بين الحرب وبين وقف إطلاق النار .

فكما أن الحضارة الإنسانية لم توقف الحروب ، فكذلك كل أدوات التسلية واللعب عند الطفل . . وكذلك الحياة المودرن التى يعيشها فى البيت وفى المدرسة ، لم تمنعه أيضا من أن يكون غليظا فظا فى سلوكه .

أو معتديا أو قاتلا صغيرا أو كبيرا .

بل إن بعض فلاسفة التاريخ يرون أنه لولا الحروب ما تطورت كل وسائل المواصلات . . من أجل الحرب اخترعت السيارة والطيارة والصاروخ وكل أدوات الدمار للعدو والانتصار عليه والاستيلاء على ممتلكاته فالسيارة المصفحة كانت أسبق من الأتوبيس . . والطيارة المقاتلة وقاذفة القنابل كانت أسبق من الطيران المدنى . . وكذلك الصواريخ عابرة القارات وسفن التجسس والسفن قاتلة السفن . . كلها تدور فى الفضاء حولنا . . وليس من بينها الآن سفينة ركاب واحدة للسفر بين الكواكب .

والمعنى هو : أن العدوان والكراهية والقتل أعمق وأطول ذراعا وساقا ولسانا وخيالا من المحبة والمودة والسلام بين الصغار والكبار . . بين الدول والشعوب .

ومن هنا كان الفارق بين الإنسان والحيوان . . أو الإنسان العنيف والإنسان اللطيف .

فالفرق بين الحيوان والإنسان هو : الفرامل . .

فالحيوان إذا جاع خطف ، وإذا قاتل قتل . .

ولكن الإنسان لايخطف مايريد ، إنه ينتظر . . إنه يشتريه . . إنه يحاسب قبل أن يخطو خطوة . . هذه الفرامل صناعة منزلية ومدرسية اجتماعية ودينية .

ولذلك كان أهم ما يجب أن نتولاه جميعا هو أن نركب لدى الطفل فرامل قوية . . تحول بينه وبين السكين إذا غضب ، وبينه وبين المسدس إذا فقد أعصابه . . أى يجب أن يمسك لسانه ويده . . وهذه هى التربية . . أى هى الحضارة ـ وهى أصعب مهمة نقوم بها جميعا !

الأطفال اليتامى !

أعجبنى مقال كتبه أحد علماء النفس الإنجليز . . المقال يقطر خجلاً وصاحبه غارق فى العار الشخصى والقومى أيضا . وهو يتحدث عن هذه الجريمة البشعة ؛ طفل يقتل طفلا . .

يقول وهو ينعى الشعب البريطانى : كنا فيما مضى نفخر بأن نطلب إلى أى إنسان أن يمسك خريطة العالم . . ونشير إلى كل مكان فى القارات الخمس ويقول : إمبراطوريتنا لاتغيب عنها الشمس ـ أما الآن فقد غابت الشمس عن بلادنا . لقد أصبحت «فجأة» إمبراطورية لاتشرق عليها الشمس ؟

وقال : كنا نباهى الأمم بأنها مصدر الثورة الصناعية . . نحن الذين صنعنا القطار نحن الذين صنعنا المكوك لصناعة النسيج ونحن الذين اكتشفنا ونحن الذين أرسينا الديمقراطية والأصول البرلمانية . . ونحن الذين نحترم حقوق الإنسان . . ونحن الذين اكتشفنا العلاقة بين الفقر وزيادة النسل . . ونحن الذين اكتشفنا أن زيادة السكان وتزاحمهم تخلق العنف الذى يولد الكراهية التى هى أم الحروب . .

ويقول : فى عصر الملكة فيكتوريا الذى دام خمسين عاما نادينا والتزمنا بالضبط والربط وإمساك اليد والنفس عن الإسراف وعن الانحلال ، فى هذا العصر تقدمنا وتطورنا وكانت أرباحنا الشخصية هائلة ، ورفاهيتنا الوطنية شاملة . . فليس ـ إذن ـ من قبيل الصدف أن يكون عصر الضبط والربط ، ضبط النفس ، وربط كل شىء بالواجب والضمير ، هو نفسه عصر التطور والرخاء والرفاهية !

وقال : إننا فى عصر الزوجات وليس فى عصر الأمهات . . إن المرأة تخجل من أمومتها ، ولكنها لاتخجل من أن تأتى بالأطفال وتتركهم فى الشوارع !

فما الذى يجده الإنجليز الآن فى صحافتهم يقول :

١ ـ كانت الجريمة ٢٤ فى كل مائة ألف ، سنة ١٩٦١ أصبحت الآن ٥٢٣ .

٢ ـ تضاعف عدد الأطفال اللقطاء سبعة أمثال ما كانوا عليه من ثلاثين عاما . .

٣ ـ تضاعف عدد الأسر التى لها عائل واحد . . الأب أو الأم ـ أى أطفال بلا زواج . . إلى أربعة أمثال ما كان عليه فى الخمسة والعشرين عاما الماضية . .

٤ ـ ارتفع عدد الأطفال الذين لهم أب ولايعيشون معه من ٨٠ ألفا سنة ١٩٧١ إلى ٤٦٠ ألفا سنة ١٩٩١ .

٥ ـ زاد عدد الذين يدمنون المخدرات ثمانية أمثال ما كانوا عليه من عشرين عاما .

٦ ـ ثم إن الأطفال يدخلون المدرسة ويتركونها ولم يتعلموا شيئا .

وتساءل الكاتب البريطانى : فمن الذى نلوم ؟

قال : يجب أن نلوم هؤلاء المبشرين بالقيم الاجتماعية الجديدة . . الذين ينادون بمجتمع أكثر تساهلا مع كل الحريات ـ أى مع كل أنواع الانفلات من القيم الأخلاقية والصحية والاجتماعية والتربوية . .

فما الذى عندنا وما الذى ينقصنا الآن أى فى كل المجتمعات الحديثة؟

عندنا أباء وأمهات نشاهدهم كثيرا فى بيوتنا ، وليس لديهم أى شعور بالأبوة والأمومة .

عندنا أطفال يتامى ـ أو كأنهم يتامى . . مع أن الأب حى والأم حية أيضا . . ولكن لاوجود لهما . فليس اليتيم هو الذى مات أبواه ، وإنما الذى كأن أباه قد مات وأمه أيضا . فأطفال اليوم يتامى ضالون . . وآباء اليوم : أزواج . . وأمهات اليوم : زوجات ينقصهن فقط ما لدى كل الحيوانات : غريزة الأب وغريزة الأم . . وغريزة حماية الصغيرة حتى يكبر ـ آه لو نظرت إلى الحيوانات فى الغابة . . كيف تنزوى وهى حامل . . وكيف تخلق لنفسها جوا هادئا . . نوعا من الحضانة حتى تلد . . وكيف تتجمع كل الذكور حولها لحمايتها . . لقد رأيت غزالا يقاوم أسدا ، خوفا على مولوده الصغير . . غزال يقاوم أسدا . . ويقاوم نمرا . . طبعا اختفى الصغير . . وظلت الأم فى حزن عميق . . والباقى نحن نعرفه . . ففى الغابة يتربص الجميع بالجميع . . القوى بالضعيف ـ تماما كما هو فى حياتنا الاجتماعية ؟

يعنى : يجب أن نرعى غريزة الأبوة والأمومة ورعاية الصغير وحمايته . . والإبقاء على كل العلاقات العائلية . . التى هى أساس المجتمع السليم . .

وليس غريبا أن نجد الأطفال يتزوجون لكى يقيموا أسرة . . عائلة . . ويحققون فيها لأنفسهم ولأطفالهم أيضا ، مالم يجدوه فى بيوتهم . . ولكن الموقف الأليم هو : أن الأطفال يتزوجون وينجبوا أطفالا يرعونهم برجولة . فأى الطفلين كان أولى بالرعاية : الطفل الزوج أو هو الطفل الابن ؟!

إن زواج الصغار دليل على أنهم يريدون حياة فاضلة . . نعم . ولكنهم صغار لايعرفون كيف يكون آباء لأطفال مثلهم ؟

وهذه هى المشكلة الجديدة التى تواجه المجتمعات الحديثة على جانبى الأطلنطى !

البوليس المصرى أسرع

البوليس المصرى أسرع ، صدقنى . وعندى تجارب عديدة . مثلا فى لندن سرق اللصوص فى عشرين ثانية حقيبتى وكنت قد وضعتها على الأرض وحولها البالطو واستدرت أصافح صديقى وبلدياتى أحمد قدرى وكان قنصلا عاما . . والتفت فلم أجد الشنطة . . اختفت بالفلوس وجواز السفر وتذاكر الطائرة ودفتر أرقام التليفونات فى مصر والخارج والذى جمعته فى سنوات والبطاقات البنكية . . طبيعى جدا أن أتجه إلى قسم الاستقبال فى الفندق . ولا حاجة . ولا عنده معلومات ولايستطيع أن يساعدك وأنت لاتعرف من هم اللصوص . . من داخل الفندق أو من خارجه . اللصوص كثيرون لدرجة إننى رأيت فى جامعة لندن وعند الباب الرئيسى هذه العبارة : احترس من النشالين ؟!

وطلبت اسكتلاند يارد . . ذلك البوليس الذى تقرأ عنه وتراه فى الأفلام يعرف دبة النملة ولبن العصفور إلى آخر الكلام الذى يقال عن البوليس البريطانى والمخابرات البريطانية . . وينظر رجل البوليس فى ذكاء شارلوك هولمز وخفة دم كولومبو . وكل عشر دقائق اسأل استعلامات الفندق إن كانوا قد أبلغوا البوليس فيؤكدون أنه حصل . . والبوليس فى الطريق . . ولا أعرف هذا الطريق ولا بد أنهم بسرعة قد سألوا العقول الإلكترونية من الحرامية . . ولابد أن البوليس قد أتى بالحرامى من رقبته ومعه الشنطة . هذا مؤكد . . وبعد أربعين دقيقة جاء شاب لطيف رقيق حليوه . . وقدم نفسه لى . . وأمسك

ورقة وقلما بدأ يسألنى عن اسمى وسنى وبلدى ووظيفتى ، وما الذى ضاع منى وبالضبط وإن كنت أعرف رقم الباسبور أو رقم تذاكر الطائرة والبطاقات البنكية .

وأشهد أن رجل اسكتلاند يارد البريطانى فى غاية الوسامة والرشاقة والأدب . سألته : قل لى من فضلك هل هناك أى أمل ؟ فأجاب بسرعة : طبعا لا أمل . .

قلت : إذن ما جدوى هذا التحقيق . .

قال : هذا بناء على طلبك .

قلت : إذن لا فائدة ؟

أجاب بمنتهى الهدوء وبصورة قاطعة : أنت وحدك الذى تعرف إن كانت هناك فائدة فى الحصول على صورة من المحضر لتقديمها للبنوك أو للداخلية المصرية أو التأمينات أو مصر للطيران .

- بس كده .
- نعم بس كده .
- شكرا .
- عفوا

ولا يجرؤ أى إنسان أن يهاجم البوليس . فقد قام بواجبه !

مولود من ورق

(١)

جئت من المنصورة لأكمل دراستى فى الجامعة . . وتخرجت وأقمت فى القاهرة والجيزة منذ ذلك الوقت . . ويشاء القدر أن أتحرك وأعمل وأعيش فى منطقة واحدة ، وأمشى فى شارع واحد . . وفى جميع المرات أجدنى أمر ذهابا وإيابا بالجامعة . . وأشعر أن هذا طبيعى ، فأنا لا أزال طالبا للعلم .

والذى أطلبه كثير جدا . . والذى أحصل عليه قليل جدا ، فمن رغبتى فى أن أعرف ، ومن عجزى عن أن أعرف ، تولدت كل مشاعر الكبرياء والتواضع ، والإحساس بأننى شىء ، والإحساس الأقوى بأننى لا شىء .

وعندما أحس بأننى شىء فإننى أكتب ، وعندما أحس بأننى لاشىء فإننى أقرأ لعلى أفوز بشىء ، أو أجدنى بين هذه الأشياء . . وراح العمر وراء القراءة ووراء الكتابة .

وسوف تروح كل أعمار الناس بحثا عن الشىء الذى ينفع والذى يرهف الحس ، ويضىء الطريق أمام المعانى والقيم والمبادئ . . وأمام كل الناس .

وإذا كان ما يقال عن الأغنياء أنهم ولدوا وفى أفواههم ملاعق ذهبية أو فضية ، أو ملاعق من أى معدن ، فقد ولدت تحتى وفوقى وأمامى أوراق مطبوعة .

الورق فى عينى والحبر فى أنفى والصلوات والدعوات فى أذنى . . لقد نذرت نفسى لهذا الورق المطبوع . . أقرؤه وأضيف إليه

ورقا آخر . . والله وحده هو الذى يعلم ما هى الأوراق التى ستبقى من بعدى . . لست مشغولا بذلك الآن .

ولكننى أحسست دائما بأنى طالب وأننى لن أتخرج أبدا . . لأن الجامعة التى دخلتها هى جامعة بلا أبواب ولا برامج ولا امتحانات ولا أعرف أحدا من أساتذتها . . ولا أعرف أحدا من طلبتها . . . إنها جامعة واسعة تشمل كل البلاد ، وكل الكتب وكل فروع المعرفة ، وأننى أحمد الله على أشياء كثيرة ، وفى مقدمتها أنه جعل جوعى وعطشى وأرقى وعذابى وتعاستى كلها فوق كتفى . . فأنا أطلب العلم وفى طلب العلم أضحى وسوف أضحى بالكثير ، وفى مقدمتها حياتى . . هل هى لعنة ؟ هل هى نعمة ؟

لايمكن أن يكون العلم لعنة ، ولا طلب العلم لعنة ولا العرق والدمع والدم المبذول بكل نفس راضية من أجل أن أعرف ، وأن أنفع الناس ، لا يمكن أن يكون لعنة ، وإنما اللعنة أن نقنع من العلم بالقليل . . واللعنة أن نتصور لحظة واحدة أن هذا هو العلم كله ، وأنه لا علم بعد ذلك . . وإن الإنسان يعلم من أجل نفسه .

فالعلم هو الذى يبنينا ويحيينا ويقدمنا أفرادا وشعبا . . وليس أروع ولا أجمل ولا أعمق من أن أرى مئات الألوف من الطلبة فى طريقهم إلى الجامعات . . إن قلبى يدق فى رأسى لمجرد أن أراهم فأنا لا أزال وسوف أبقى طالبا للعلم ، «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ـ صدق الله العظيم .

(٢)

الإنسان حيوان «عادى» - أى له عادات تتكون بمرور الوقت . فإذا تكونت فإنه يؤديها دون أن يفكر فيها . فكأن الغرض من هذه العادات هو ترشيد الطاقة الفكرية والعملية عنده . فإذا أقلع عن عادة تكونت له عادة أخرى .

والإدمان نوع من العادة التى يصعب على الإنسان أن يغيرها ، حتى إذا حاول ذلك الإدمان أن يكون لشىء غير مستحب ، ولكن اعتدنا عليه ، فإذا تمكنت هذه العادة الفريدة منا ، نحاول الإفلات منها فلا نستطيع : التدخين مثلا . . القهوة والشاى والمهدئات والمهلوسات . .

ولكن هناك أنواعا من الإدمان لم نعد نفكر فى التخلى عنها : كالشاى والقهوة . بل إذا خيرنا بينها وبين أشياء أخرى مهمة ، فإننا نختارها ولأننا أدمنا الشاى والقهوة فمن الصعب أن نستغنى عنهما ، أو نعدل عن طقوس تناولهما . وعندما يطلب إليك الطبيب أن تنقص وزنك . فإن أول شىء يطلبه منك أن تتوقف مرة واحدة أو بالتدريج الحاد عن تناول المكيفات فإذا حدث لم تعد لديك رغبة فى الأكل أو فى النوم . . ونقص الطعام والنوم معا ، يساعدان على نقص الوزن .

جاء فى كتاب د . هاوزر طبيب التجميل الشهير : أن كواكب هوليوود أقدر الناس على زيادة ونقص الوزن ، لأنهم أكثر ارتباكا فى حياتهم اليومية ، وأقل الناس استمتاعا بالطعام والشراب ويمكن إعطاؤهم أو منعهم من أى طعام فى أى وقت وبأى كمية .

وهم بحكم عملهم أكثر الناس طاعة للأوامر . . وأكثر تمردا عليها . ولكن النجم السينمائى عندما يتعلق الأمر بجماله وصلاحيته للتمثيل فإنه لايتردد لحظة فى أن يعيش جائعا مدى الحياة !

ولكن بسبب الإرهاق العصبى والعضلى والملل اليومى من النادر ألا يدمن الإنسان شيئا . .

إذن هو تغير بسيط طرأ على تعريفنا للإنسان .

وضع الأمريكان مرصدا حول الأرض . . المرصد عبارة عن سفينة فضاء بها أعظم وأروع تليسكوب صنعه الإنسان التليسكوب تكلف ألف مليون دولار ، أطلقوه من ثلاث سنوات . أما الهدف فهو أن نعرف مجاهل الفضاء حولنا . . وما أكثر الألغاز وعلامات الاستفهام ، وكلما تقدمنا فى البحث تراجع الكون أمامنا ووراءنا وتحتنا وفوقنا وانطبقت علينا الآية الكريمة : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ـ إلا قليلا جدا جدا جدا .

وقد بعث إلينا هذا التلسكوب بألف مليون صورة حتى الآن . . التليسكوب اسمه : هابل . . تيمنا باسم الفلكى الأمريكى العظيم إدوين هابل (١٨٩٠ ـ ١٩٥٣) وهو أول من تحدث أن هناك ملايين المجرات فى هذا الكون . . والمجرة الواحدة تشتمل على ألوف الملايين من النجوم مثل الشمس . . وحول كل نجم عشرات الكواكب مثل الأرض والمريخ وعطارد وزحل وغيرها .

ويبدو أن عينا أصابت المرصد الجبار ، فقد لاحظ العلماء أن بعض الصور تجىء مهزوزة . . وبعض الصور غير واضحة . . وبعض الألوان ليست صافية ، وقرر العلماء أن هناك خللا قد أصاب العدسات والمرايا والعواكس فى داخل المرصد . . وأن هناك عددا من التوصيلات الكهربية قد تفككت ، وأن كارثة وقعت أو توشك ، ولذلك تقرر إرسال سفينة فضاء وبها ثمانية من رواد الفضاء يحملون معهم معدات تزن أربعة أطنان . . ولابد لهؤلاء الرواد أن يمشوا فى الفضاء الخارجى ساعات طوالا لفك وتركيب أجهزة جديدة ، هذه الأجهزة تتكلف هى والرحلة نفسها مائتى مليون دولار .

والمطلوب من المرصد الجبار أن يسجل لنا بعض العواصف وقد توقع العلماء هبوب هذه العواصف منذ سنوات ، ولكن ليس لديهم أى دليل واضح على هبوبها بهذه الصورة .

ومطلوب أيضا قياس الطاقة الشمسية المنبعثة من الشمس . . ومعرفة أكاليل الشمس ولماذا هى قد نقص ارتفاعها بضعة ألوف من الكيلومترات . . ورصد مقبرة النجوم فى السماء . . أى بما يبعد عنا نصف مليون سنة ضوئية . (والسنة الضوئية سنة مسافات وليست سنة زمنية ففى السنة الضوئية فى هذا العدد من الكيلو مترات ، ٣٦٥ يوما مضروبة فى ٢٤ ساعة مضروبة فى ٦٠ دقيقة مضروبة فى ٦٠ ثانية مضروبة فى ١٨٦ ألف ميل وهى سرعة الضوء فى الثانية) .

وإذا لم يدرك العلماء هذا المرصد الجبار قبل أن يتعطل تماما فسوف تكون هذه أكبر هزيمة يصاب بها علماء أمريكا . . فالمرصد قد تكلف الكثير من المال والوقت ، وقد كان تحديا من العلماء لكل لجان الكونجرس التى تحفظت على هذه الأموال الطائلة .

وقد تدرب رواد الفضاء على كل ما سوف يقومون به من المشى فى الفضاء ومن فك وربط قطع الغيار . . وقد أطلعهم العلماء على ١٦ ألف صورة للمرصد الجبار . . من الداخل والخارج . . حيث لايشعر رائد الفضاء بأنه مفاجأة . . كما أنهم يدربون تماما على ربط وفك كل القطع المطلوبة وغير المطلوبة ، وقد انتهى تدريبهم منذ أيام ، ويقام لهم جلسات للمناقشة فى كل صغيرة وكبيرة .

وعندما شكا أحد رواد الفضاء بصداع بسيط أتو برائد آخر احتياطى ، ولكنهم عدلوا عن ذلك ، فلم يكن سبب الصداع إلا إمساكا خفيفا للرائد . . شفى منه تماما .

وسوف ينطلق الرواد بعد شهور فى أول عملية إصلاح فى التاريخ وإحلال وإبدال . . وأعظم التحديات العلمية . . وفى نفس الوقت إما أن تتحقق معجزة علمية أو فضيحة علمية وانهيار لن

تقوم منه مؤسسة الفضاء الأمريكى ، وهناك شعور عند الساسة الأمريكان أنه لاداعى لاستعجال النتائج مادامت المنافسة بين روسيا وأمريكا قد انتعشت تماما .

ولكن يؤكد العلماء الأمريكان أن روسيا رغم ما أصابها ماتزال عندها مشاريع متفوقة ، وكل ما ينقص روسيا هو الفلوس . . فالروس منذ شهور أطلقوا أشعة من الفضاء لإضاءة المدن فى أوروبا . . وهى تجربة فى غاية الطموح . . ثم إن اليابان دخلت عالم الفضاء وعندها أفكار بديعة ـ فهى الخطر الجديد . . فإن اليابانيين بعد أن تفوقوا على كل الإبداعات الأمريكية والأوروبية على سطح الأرض ينقلون تحدياتهم إلى السماء !

(٣)

صدق أو لاتصدق - أنا شخصيا لا أصدق أن الشيخ عمر عبد الرحمن قد ضحك على القنصل الأمريكى فى السودان فأعطاه تأشيرة دخول أمريكا !

ولما وصل إلى أمريكا ضحك على الأمريكان مرة أخرى حتى أعطوه حق اللجوء السياسى . . ثم ضحك عليهم مرة ثالثة فأعطوه بطاقة خضراء . . وكان فى نيته أن يضحك عليهم كمان مرة ليصبح مواطنا أمريكيا متزوجا من اثنين فى أمريكا وواحدة فى القاهرة . . والقانون الأمريكى يحرم تعدد الزوجات !

ويقول الأمريكان أنه ليس الوحيد الذى ضحك على أمريكا بل إن رجلا اسمه كانس «باكستانيا» ضحك على إدارة الهجرة سنة ١٩٩١ حتى أعطوه تأشيرة لدخول أمريكا . وفى أمريكا طلب اللجوء السياسى . . ولم يمض سوى وقت قصير حتى اشترى مدفعا رشاشا واغتال اثنين من رجال المفاوضات . . وليس هذا فقط بل هناك أكثر من عشرة الآف مهاجر من جزر البحر الكاريبى تسللوا إلى داخل أمريكا من شواطئها ومن المكسيك ومن كندا - كلهم أناس أذكياء استغلوا السذاجة الأمريكية وتسللوا . واختفوا داخل القارة الأمريكية الواسعة .

ولابد من يقرأ هذا الكلام يكون قد احتفظ إلى جواره بقفص عصافيره . . كلما طارت عصفورتان مرسومتان على جانبى وجهه وضع اثنتين أخريين - دليلا على السذاجة والعبط . . سذاجة وعبط القارئ إن صدق كلمة واحدة مما تقوله الصحف الأمريكية!

ولا أعرف ما هو الاسم الذى يمكن أن تعطيه لشبكة «سى . إن . إن» التى أجرت حديثا مع الشيخ عمر رآه مئات الملايين حول العالم . . وفى هذا الحديث يهاجم مصر حكومة وشعبا ويستعدى الشعب على الحكومة وعلى الحكم وعلى رئيس الجمهورية والشبكة تذيع كلام الشيخ عمر بمنتهى الاحترام والهدوء . . والحرص على أن كل كلمة يقولها تصل إلى من يريد . . بل إن المذيع هادئ تماما حتى يشير إليه زملاؤه بأن الرسالة قد بلغت الملايين فى مصر وفى العالم العربى . . واحدا واحدا .

ويقال إن السذاجة هى التى أوقعت الشبكة والمذيع فى فخ نصبه الشيخ عمر . . وأنه هو الذى استدرجهم إلى هذا الحديث . وأنهم لم يقصدوا شيئا من ذلك ـ لابد أنك فى حاجة إلى مزرعة دواجن من العصافير فقط لكى تتغطى بها . . دليلا على أنك والملايين من أشد الناس سذاجة !

ولهذا السبب فإن الرئيس كلينتون قرر تدارك هذا الخطر الذى استشرى فى إدارة الهجرة الأمريكية التى يضحك عليها الناس بسهولة فطلب من نائبه ال جور أن يتولى بنفسه إصلاح هذه الإدارة الضعيفة التى لاتدرى حجم الكوارث التى أوقعت فيها أمريكا . . ويقال إن ال جور قد وجد أن إدارة الهجرة عدد موظفيها قليل جدا . .

وأن صلاحيتها ضعيفة وأنها بلا سلطات ، وأنها لاتستطيع أن توجد على الحدود الأمريكية ، ولذلك لابد من تصحيح مسارها وصلاحيتها حتى لايدخل أمريكا عباقرة التسلل من أمثال الشيخ عمر . والإدارة الأمريكية لاتخفى إعجابها بالشيخ عمر الذى

استطاع أن يضحك على الإدارة الأمريكية - تصور أنهم يقولون ذلك وأنهم على يقين من أننا سوف نصدق ذلك !

وبناء على هذا التكليف من الرئيس لنائبه ، فسوف يعاد النظر فى كل التأشيرات التى اعطيت لمئات الألوف فى السنوات الماضية . لكى يعرف الأمريكان كل أماكن الخلل فى إدارة الهجرة وفى قناصل أمريكا وفى العالم كله .

هل المقصود أن تعتذر أمريكا عن دعوتها للشيخ عمر واللعب ضد العرب وضد الإسلام وضد مصر ؟ وهل معنى ذلك أن أمريكا لاتريد شيئا من كل ذلك . . لاتريد إثارة المسلمين على المسلمين ؟ هل هى لاتريد الاضطرابات فى الشرق الأوسط بين كل دولتين متجاورتين فى الخليج أو حول البحر الأبيض المتوسط .

أننى أترك الإجابة عن مثل هذه الأسئلة . وتصبح أنت ساذجا وابن ساذج وفى شعب ساذج إذا تصورت لحظة واحدة أن أمريكا زاهدة تماما أن يكون الشرق الأوسط ليس صورة أخرى لما يحدث فى البلقان وفى روسيا !

(٤)

عندنا مشكلة : العنف . .

ليس عنف الكبار وإنما عنف الصغار أيضا . . الذى يضرب كلبا والذى يضرب قطا والذى يقطع شجرة والذى يصيد العصافير لمجرد أن يقتلها ويتركها . . ثم الشبان الذين يقتلون ويذبحون . .

هذا العنف ما مصدره ؟

إننا نعرف مصدرا واحدا مؤكدا هو أفلام الفيديو وبعض أفلام السينما . .

كل دول العالم تفرض رقابة على الأفلام قبل عرضها فى التليفزيون حماية للنشء وحماية للمجتمع كله . . فالعنف الشديد ممنوع . . ممنوع أن يضرب واحد أباه أو أمه . . ممنوع أن يتلذذ أحد فى تعذيب أحد . . وممنوع الفعل الفاضح . . ومسموح الحب وبشرط ألا يخدش الحياء وألا نخجل منه . .

فمن المؤكد أن هذا النوع من العنف قد تعمق فى نفوس الشباب والصغار واستقر هناك على أنه حقيقة . لا اعتراض عليها . ولا مانع من إتيانها .

أما المشكلة الدولية الآن فهى أفلام الفيديو أى التى ينتجونها لتعرض فى البيوت لا فى التليفزيون ولا فى السينما . وهذه الأفلام فيها كل الانحطاط والسفالة والعنف الدموى والعنف الجنسى ـ كل أنواع الانحراف والدعوة إليه والتشجيع عليه . . هذه هى أكبر مشكلة تواجهها دول العالم . ولذلك تتسابق الدول الآن فى إصدار التشريعات التى تحد من نشرها وتحد أيضا من تداولها حتى لا تفسد أخلاقيات الصغار والشباب .

وبريطانيا هى أول دولة تسعى لدى مجلس اللوردات فى استصدار قوانين توقف وتعاقب كل من ينتج العنف على شكل أفلام يشتريها الناس من كل مكان . . وبريطانيا تعيش الآن فى حداد تام بسبب أن طفلا قتل طفلا . . قاتلا بريئا قضى على طفل برىء ! فمن أين جاء هذا العنف ؟ من الذى علمه ذلك ؟ ومن الذى شجعه فى غياب الأب والأم والمدرسة والدين ؟ وهذه هى أخطر قضية يواجهها رجال التربية والتعليم والعلاج النفسى ورجال الدين !

ومن أخطر الحوادث التى كشفها البوليس فى لندن أن بعض الشركات قد أنتجت أفلاما لتعليم الأطفال الجنس . . ولتعليم الأطفال السطو على المحلات التجارية والسيارات ووضع السموم فى الطعام لقتل الطيور وحيوانات الحديقة تصور !

كأن جرائم قتل الإنسان لاتكفى فاتجه هؤلاء المجرمون إلى قتل الإنسان للحيوان . . بعد أن قتلنا النبات فى الغابات وفى الأرض المزروعة . . وقتلنا الأسماك والشعب المرجانية بسبب تلوث المياه وانسياب الزيت من ناقلات البترول !

إن الجريمة لم تعد ـ إذن ـ حادثا شاذا ينحدر إليه أى إنسان صغير أو كبير . . وإنما هناك هيئات تعمل على تنظيم الجريمة وعلى تعليمها وتعميقها . . هدما للمجتمع والعلاقات الإنسانية والقيم الأخلاقية . . ومن أجل أن يتقاضى عن ذلك جنيهات معدودة . . ولكن الخسارة فادحة . ولذلك يجب أن يتدارك العالم هذه الكارثة الجديدة التى هدفها الطفل ثم المجتمع اليوم وغدا !

جريمة

القنبلة الذرية ؟!

براءة تهم العلماء فى كل مكان .

أرجو أن تتابعنى فى هذا الطريق الصعب قليلاً .

هل تعرف العالم الفيزيائى الألمانى هيزنبرج . . أنت لاتعرفه ولكن الطلبة الصغار قد سمعوا به وقرأوا عنه عدة سطور فى كتب الفيزياء . . وهم لايعرفون الثورة العلمية الجبارة التى استحدثها هذا الرجل فى الفيزياء .

المهم أن هذا الرجل ـ وهذا رأيى ـ هو أعظم عالم فيزياء فى العالم كله . ولكن أشهر منه عالم ألمانى آخر اسمه أينشتين . وقد وقفت كل وسائل الإعلام اليهودية وراءه . لأنه يهودى . وقد رفض أن يكون أول رئيس لدولة إسرائيل . . فتماما كما رفض الفيلسوف الإيطالى كروتشه الحكم وكما رفض لطفى السيد أيضاً . إن الحكم عبء وهم رجال يريدون أن يتفرغوا لما هو أبقى وأعظم .

هذا الرجل هيزنبرج الحاصل على جائزة نوبل فى الفيزياء قالوا عنه إنه نازى ـ يعنى إنه رجل يؤيد القتل والمذابح النازية . يعنى مجرم . وأن فلسفته إجرامية !

ولم يثبت بأى دليل أن الفيلسوف كان نازيا . بل إن فلسفته قائمة على احترام حرية الفرد ، وليس احتكار فرد واحد لكل حريات الناس . بل إن فلسفة هيدجر تعتبر فلسفة ناقصة . . وأنه لم يستطع أن يكملها لأنه من الصعب عليه أن يفعل ذلك .

وهذه قضية فلسفية صعبة ليس هنا مكانها . المهم أنه ليس نازيا . . ولم تسترح المنظمات الصهيونية لذلك .

وفجأة صدر كتاب يتحدث عن براءة العبقرى فرنر هيزنبرج . فقد كان يعرف أسرار القنبلة ويعرف أيضاً أهوالها . . ولما سألوه قال : إن هناك صعوبات كثيرة . وإن الألمان الموجودين فى أمريكا قد اهتدوا إلى كل شىء وإن الدولة ساعدتهم بالملايين على تنفيذها .

والألمان الذين هناك هم : أينشتين وأوينهايمر وتللر .

وكذلك العالم الإيطالى فرمسى .

وهم الذين صنعوا القنبلة الذرية . ولم يوافق هيزنبرج فى أى وقت على صنعها ، خوفا من آثارها المدمرة للبشرية .

وقد طلب منه هتلر ذلك . ولكنه أكد له أن صناعتها فى ألمانيا شىء مستحيل !

والنازيون الذين حوكموا اعترفوا جميعا بأن هيزنبرج كان يعرف أسرارها .

ولكنه لم يصنعها !

أما أهم ما فى فلسفة هذا العالم العظيم فهى أنه لاشىء مؤكد فى هذا الكون . . فكل شىء بالتقريب أى أن الكون يخضع لقوانين أخرى نحن لانعرفها . . ولذلك فنحن عاجزون تماما على ضبطه ووضعه فى قوانين وقواعد من اكتشافنا . . مثلا من الممكن أن نعرف مكان كوكب أو نجم ولكن لانعرف من أين جاء وإلى أين يذهب .

يعنى المبدأ الذى يحكم الكون هو : مبدأ عدم اليقين أو عدم الحتمية .

فعلى العالم أن يتواضع قليلا أمام هذا الكون الهائل الذى لايعرف منه ولا عنه إلا القشور والباقى مجهول عندنا تماماً !

ولم يكن أحد على يقين من أن هيزنبرج نازى أو ليس كذلك . أما الآن فمن المؤكد أنه عالم عبقرى يرفض الدمار !

إلى الخالدة : جولييت !

(يصل ويسلم إلى يد الآنسة المعذبة جوليت ـ مدينة فيرونا ـ إيطاليا) .

أكثر من عشرين ألف خطاب تتلقاها مدينة فيرونا التى شهدت قصة غرام روميو وجوليت وكانت هذه الخطابات تتجمع عند مجلس بلدية المدينة كل سنة . ولايعرفون ما الذى يمكن عمله . . ولا ما هو المطلوب . ولاتزال الخطابات تجىء من كل مكان فى العالم . . أحد الشبان الانجليز أرسل فى سنة ١٩٧٣ عشرة آلاف خطاب . خمسة خطابات كل يوم يحكى فيها لجوليت ما يلاقيه من عذاب يومى بسبب أنه يحب فتاة لايمكن أن يتزوجها . . فأهلها لن يوافقوا على هذا الزواج ولو قطع نفسه ألف قطعة تحت أقدام أبيها وأمها . .

وبعض الخطابات يكون عنوانها هكذا : جولييت كابوليت . . أو روميو مونتاجو . . أو جولييت مونتاجى لأن جوليت قد تزوجت سرا من روميو . .

٥٪ من هذه الخطابات موجهة إلى روميو . .

وأخيرا تشكلت جميعة اسمها (نادى جولييت) . مهمة هذا النادى أن يتلقى الخطابات ويحتفظ بها ويرد عليها . . وقد طلب النادى من شبان النادى فى الجامعات أن يتولوا الرد على تساؤلات أو رغبات هؤلاء الشبان المعذبين فى الدنيا .

وعلى الرغم أن هذه القضيـة قديمة وقد تناولها عدد كبير من الشعراء . فى مقدمتهم شكسبير ، فإن أحداث هذه المأساة ماتزال حية عند الشبان فى كل الدنيا . .

ومن أهم المعالم السياحية فى مدينة فيرونا البيت الذى كانت تسكنه جولييت . أما البيت فلا أحد يعرف كيف أنهار . وكيف أن الأرض التى كان قد أقيم فوقها البيت قد اشترتها أسرة ارستقراطية . وقد اشترت البلدية البيت الذى أقيم على هذه الأرض فى القرن الثامن عشر . . وجعلوه بيتا لجولييت . ولكن ظهرت مشكلة هامة وحادة : البلكونة . . ومن غير بلكونة جولييت يختفى مشهد تاريخى عندما كانت تطل من فوق وروميو كان تحت . . ثم يحاول تسلق البلكونة ليلتقى المحبوبة . . فاشتروا بلكونة وحاولوا قدر المستطاع أن يجعلوها شبيهة بالبلكونة التى جاءت فى مأساة هذين الشابين . . واستقرت البلكونة المناسبة فى الفيلا ولم يدخلوا عليها أية تعديلات إلا فى سنة ١٩٧٤ . وقد أعدوا الفيلا بكل ما فيها من أثاث لتكون المقر النموذجى لأشهر قصص الحب فى التاريخ .

وزودوها بالموظفين الذين يكتبون الخطابات ويردون عليها . . بعض الخطابات تطلب صورا . . وبعضها تطلب صورا من إمضائها . . أو شعرة واحدة من رأسها . . أو أى شعر فى لون وطول شعرها . . أو بعض الهواء من داخل الفيلا . . ويطالبون أن يكون ذلك فى زجاجة مغلقة . . وأن يبعثوا بكل ذلك فى البريد . .

من أعجب الرسائل خطاب جاء من عاشقة عمرها ١٤ سنة من استراليا ـ تقول : أنا أعرف أن روميو مات وشبع موتاً وأن

جولييت أيضا . . ولكن أريد فقط أن تقرأوا خطابى هذا بصوت مرتفع فى الباب المطل على البلكونة وأن تبعثوا لى بتسجيل للصوت وصداه فى هذا المكان . . ووردة من الشجرة التى تحت البلكونة مباشرة . ولكم الشكر .

وخطاب آخر من الأرجنتين من فتى وفتاة يقولان معا : قررنا أن نموت معا . فهل من الممكن أن ندفن تحت البلكونة . .

وجاء الرد : مستحيل . . فعشرات الألوف طلبوا ذلك ! وخطاب من شيلى يقول : إننى أحس أننى جولييت . شكلى وشعرى . . وكل الناس يؤكدون لى ذلك . . وإليكم صورتى . . فهل أطمع فى أن أعيش ليلة واحدة فى غرفة جولييت . وبعدها أموت !

وكان الجواب : مستحيل طبعا . . فهذه أمنية عشرات الألوف أيضا !

فالحب لايموت . . وقصص العشاق أطول عمرا فى التاريخ !

قانون "فى" و "عن" !

أقدم مدينة عرفها الإنسان هى مدينة أريحا فى فلسطين التى ازدهرت منذ ثمانية آلاف سنة ، وأقدم حضارة عرفها الإنسان هى حضارة «سومر» فى العراق التى عرفت الإدارة والعمارة والطب والمواصلات ، وكانت المدن السومرية صغيرة تضم ما بين سبعة وعشرين ألف نسمة ، وفى هذه المدن تحولت القبيلة الصغيرة إلى قبيلة أعلى والفرق بين القبيلة البدائية والقبيلة العليا أن العلاقات بين أفرادها أصبحت غير شخصية ، فقط علاقات الجوار أو الزمالة فى العمل أو العضوية أو الإقامة فى مدينة واحدة ؟ وهذا التغيير الجوهرى سيكون ينبوع العذاب للإنسان ألوف السنين ، فنحن لم نتغير نفسيا وحيويا لمواجهة هذا العدد الهائل من الغرباء ، الذين هم فى نفس الوقت أفراد قبيلتنا الكبرى ، فنحن لانزال نعيش معهم وبهم وضدهم نعاونهم ونحاربهم سرا وعلنا ؟

إنها بداية الشعور بالغربة والغرابة والضياع .

ولما كبرت القبيلة كان لابد من وضع القيود عليها لحراساتها وضبطها ، ولذلك ظهرت القوانين أى الأقفاص الحديدية والحريرية فى نفس الوقت .

ومن الواضح فى الحضارة الفرعونية والإغريقية والرومانية حرصها على القانون والتشدد فى التطبيق ، ولم يكن أبناء هذه الحضارات كبيرة العدد ، فأهل بابل كان عددهم سنة ٦٠٠ ق.م لايزيد على ثمانين ألفا ، وأهل أثينا لايزيدون على ثمانين ألفا .

وكانت مثل هذه الدويلات تضاعف مواردها بالتجارة أو بالغزو ، روما نفذت الاثنين وكان اهتمامها بالغزوات أكثر ، وفى نفس الوقت تفوقت فى الإدارة وفى الفنون العسكرية حتى أصبحت أكبر مدن العالم فى ذلك الوقت فقد بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة وأصبحت نموذجا لدول كثيرة زمنا طويلا .

وبعد ذلك كبر المجتمع وتشابك وتعقد ، وأصبحت العقدة أعقد ، والجماهير أكثف ، والأقلية الارستقراطية أقل والعلماء أعلم والضبط أعنف ، والحرمان أوجع والعلاقات الإنسانية أقل إنسانية ، والعلاقات غير الشخصية اتسعت واستقرت حتى أصبحت اللامبالاة قانونا يبالى به الناس ، وكل ذلك يؤكد عظمة الإنسان ، إذ كيف استطاع رغم هذا كله أن يصل إلى ما وصلنا إليه ؟!

والإنسان لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بالقيود والتحرر منها والدخول فى قيود جديدة ، والإنسان يعطى قيادته لواحد من أبنائه ، ومن المألوف فى عالم القرود أن نجد أقوى الذكور يحكم القبيلة وعلى الرغم من قسوته فإنه فى ساعة الخطر يتقدم الجميع لحماية أفراد القبيلة وإذا تضخمت القبيلة انفصلت منها جماعة تكون قبيلة أخرى ، ولم نجد فى عالم القرود أن قردا واحدا يعيش بمفرده ، ومن المألوف عند القرود أيضا الذكور تختلف فيما بينها ولكن إذا هوجمت القبيلة اتحدت القرود ، وإذاانتهى الغزو عادت الذكور إلي خلافاتها التى لاتنتهى .

وإذا عدنا إلى الإنسان نجد أن الإنسان يتعاون فى مواجهة الخطر الخارجى ، ويتنافس فى مواجهة الخطر الداخلى ، فالتعاون والتنافس قوتان تشدان الإنسان وتتحكمان فيه والإنسان عندما

تحول إلى صياد كان فى حاجة إلى التعاون فى مواجهة الوحوش ، ولكنه بعد ذلك يتنافس فى الحصول على فائدة أكبر ، ومنذ فقد الإنسان العلاقات الشخصية بين أفراد قبيلته ، وهو يواجه ضرورة التعاون وضرورة التنافس بصورة مهلكة ، ولأن معظم الناس لاتربطهم صفة شخصية أصبح التعاون جادا والتنافس حادا ، وهذا التنافس أتاح الفرصة لقيادات وزعامات أقوى وأخطر وكلما ظهر أقوياء جدا ظهر ضعفاء جدا ، وإذا كانت القسوة تفسد فإن الضعف يفسد أيضا ، والضعفاء ينظر إليهم المجتمع على أنهم من قبيلة أخرى ، على غرباء وهؤلاء الضعفاء يسلمون بهذه الصفة ، ويعتدون على المجتمع باعتباره غريبا عنهم هو نبذهم فنبذوه .

فالذى يسرق مثلا لماذا ؟ لأنه يقع تحت ضغط المجتمع الكبير يعانى من التعب والظروف العجيبة ، ويواجه الغرباء من الملايين الذين لايرتبط بهم بأية صلة شخصية ، فاللص لايسرق أحدا يعرفه ، وإنما يسرق من لايعرف ، أى أنه عندما يسرق فهو لايعتدى على أحد أقربائه أو على قبيلته ، وإنما يعتدى على شخص خارج أسرته .

لذلك كان لابد أن يصدر قانون ، ونحن كثيرا ما نتحدث عن كلمة الشرف بين اللصوص . . أو قانون الليل أو قانون ما تحت الأرض ، وهذه التعبيرات وغيرها تدل على أننا ننظر إلى اللصوص والمجرمين من أبناء القبيلة العليا على أنهم أبناء مجتمع آخر ، جنس آخر ونعامل المجرم على أنه كذلك ، فنضعه فى سجن مع مجرمين آخرين علاجا مؤقتا ، ولكن وجوده مع المجرمين يقوى صلته بهم ، ويخلق من الجميع قبيلة أخرى متماسكة متضامنة لها قانون هو الاعتداء على المجتمع الكبير .

فهناك قانون دائما للبقاء «فى» المجتمع وللخروج «عن المجتمع ، وإلى جانب مثل هذه القوانين هناك العادات والتقاليد ، فمثلا هناك شعوب ترتدى الأسود فى أيام الحداد ، وشعوب ترتدى الأبيض أو الأصفر لا خلاف بين هذه الشعوب ولكنها جميعا تتفق فى شىء واحد ، هو أن هناك زيا خاصا أو لونا خاصا يميز بين بعض الناس أحيانا ويعزلهم عن غيرهم ، وهذا يتضح أكثر فى الاحتفالات والأعياد والمناسبات القومية !

رئيسهم الجديد ؟

إسرائيل اختارت لها رئيسا جديدا هو عيزر فايتسمان . . عمه حاييم فايتسمان كان أول رئيس لإسرائيل . . ووظيفة الرئيس فى إسرائيل مثل وظيفة الملكة فى بريطانيا . . تملك ولاتحكم وإنما تقوم ببعض الأعمال الاجتماعية والشكلية . ولكن الحاكم الحقيقى هو رئيس الوزراء الذى أتت به الانتخابات .

وعيزر فايتسمان كان وزيرا للطيران . . وكان له دور بارز فى التخطيط لحرب سنة ١٩٦٧, . ثم انتقل من حزب الليكود إلى حزب خاص به كان له مقعدان فى الكنيست ثم انضم إلى حزب العمل واختاروه فأصبح رئيسا لإسرائيل .

وطبعا فإن عيزر فايتسمان مثل كل زعماء إسرائيل له مكاتب تجارية واستشارية . وهو يستورد السيارات ويبيعها . . وعنده ابن وحيد . . هذا الابن أصيب فى حرب ١٩٧٣ وهو يشكو من تخلف عقلى . . ولكن عيزر فايتسمان ابن نكتة وهو رجل سليط اللسان . . وسوف يكون أول متمرد على المركز الذى يشغله وسوف يطلق لسانه فى كل الناس . ولابد أن يجد بعض النكت فى الوظيفة الشكلية التى أسعدته فى السنوات الأخيرة من عمره العسكرى والسياسى .

ولما قابلت عيزر فايتسمان فى العالم الماضى قال لى : أن مناحم بيجين معتكف فى بيته ليس حزنا على زوجته عليزه رفيقة المعتقلات والكفاح . . وليس ندما على ما حدث فى معسكرات

صابرا وشاتيلا . . ابدا . وإنما هو كرجل صهيونى مؤمن بإسرائيل الكبرى ، أحس أن السادات قد ضحك عليه . . خدعه . . وأنه عطل قيام هذه الدولة من النيل إلى الفرات مائة سنة أخرى !

وكان السادات يحب عيزر فايتسمان ويعتمد عليه فى بعض الوساطات بينه وبين الحكومة . ويوم ذهب السادات إلى حيفا بحرا . وقف الزعماء صفا واحدا فى انتظاره . وكان من بينهم عيزرا فايتسمان الذى يتوكأ على عصا . . وصافحهم السادات واحدا واحدا . . أما عيزرا فايتسمان فقد عانقه وصفق الناس لهذه الصداقة بين السادات وأحد رموز العسكرية الإسرائيلية .

وكانت للسادات مقولة فى ذلك الوقت عن رابين وعن بيجين قال : إن حزب العمل أكبر من رابين ولكن بيجين أكبر من حزب الليكود . . وأن عيزر سوف يكون بديلا عن واحد من الاثنين !

ولم تصدق هذه العبارة الأخيرة . . ولعل عيزر كان يحاول تحقيقها فانتقل من حزب إلى حزب .

ولاينتظر أن يعكف عيزرا على كتابة الجزء الثانى من مذكراته فالدستور يمنع أى موظف فى الدولة أن يكتب مذكراته أو يستغل أى مادة أو أجهزة بسبب وظيفته .

وقد أرسل عيزر فايتسمان برقية تعزية إلى أسرة صديقه كمال حسن على وأرسل إلى الرئيس مبارك يعزيه فى فقد هذا القائد والسياسى البارع .

ومن المؤكد أن عيزر فايتسمان سوف يبدأ نشاطه بزيارة إلى مصر التى زارها كثيرا وله فيها أصدقاء عديدون من المصريين ومن الفلسطينيين أيضاً !

اختاروا الفقر!

الشيوعية هى التى جعلت الفقر موضة والانحطاط سلوكاً والسفالة فلسفة والوضاعة أصالة . . فلا يقال عن إنسان أنه ابن ناس . . وإنما يقال : إنه لقيط . . وإنه جاهل . . وإنه لم يكن يجد طعاما ولا شرابا . . ومعنى ذلك أنه لايملك أى شىء . . وأنه من الطبيعى أن يكون الإنسان فقيراً «عريان ملط» . . فالأصل فى الإنسان أنه لايملك . . وبعد ذلك يبدأ فى الامتلاك . . فإذا امتلك دخل منطقة الكراهية والحقد . . الحقد الفردى والحقد الطبقى . . أى حقد طبقة على طبقة . . أى حرب الطبقات . . ولاتزال الحرب دائرة بين الطبقات . . حتى تجىء الشيوعية وتنحى هذه الفوارق ويتساوى الناس أمام القانون فلايملك أحد شيئا . وإن كان هذا لم يتحقق فى ظل أقوى النظم الشيوعية . . فهناك دائما طبقات : طبقات الحكام وطبقات كوادر الحزب . . فالحزب الشيوعى هو الطبقة الرأسمالية ذات الامتيازات فى داخل الحزب . .

أى أن الشيوعية حرمت الامتيازات على الأغلبية أما الأقلية فاستمتعت بهذه الفوارق .

وفشلت الشيوعية وذهبت فى ستين داهية غير مأسوف عليها من أحد ـ من الشيوعيين السابقين !

وحتى أصحاب الملايين أو الذين كانوا ينشرون الشيوعية ، كان ذلك نوعامن التفضل على الشيوعيين . ولكن أحدا من

أصحاب الملايين لم يذهب إلى البحر ويلقى بملايينه . . وإنما احتفظ بها ليجمع الصفتين فيكون شيوعيا بالقلب رأسماليا بالعقل . .

فكارل ماركس كان فيلسوف الشيوعية وبناته انتحرن من الجوع . . وهو نفسه كان لايدفع ـ وهو طالب ـ ثمن السندوتشات التى كان يشتريها . . ولولا صديقه المليونير فريد ريش انجلز لمات جوعا هو وزوجته . .

ذهبت الشيوعية . . وتطلعت كل شعوب الدنيا إلى اليمين . . إلى الفلوس . . إلى الأبهة إلى الأناقة إلى الترف والكماليات والكواكب الأخرى وأعماق الماء وأعماق الفضاء بعد أن امتلأت الثلاجات والدواليب بالكماليات . . وظهرت الملابس الممزقة : موضة والمرقعة موضة . . والقذرة : موضة

فأصبحت مظاهر الفقر هى الأناقة . .

فما المعنى ؟ المعنى أن الناس اختارت مظاهر الفقر .

فهذا النوع من الفقر مظهرى فقط . . أى أنهم اختاروا «مظهر» الفقر وليس الفقر نفسه . . فإذا كان الشيوعيون قد تشرفوا بالفقر وفرضوه على أنفسهم . فإن الأغنياء قد تظاهروا بالفقر . . وكان ذلك نوعا من التفضل على الفقر . . أى الفقر الكريه ، اختاره الأغنياء . . اختاروا الشىء الكريه . . وجعلوه موضة . . جعلوه شياكة . . كما يختار الإنسان أن يكون عاريا ، لا لأنه لايجد الملابس ولكن لأنه يجدها ويكرهها . . أو يلقى بها بعض الوقت . . ويمشى عاريا ليتعرض لأشعة الشمس ويستعرض عضلاته إن كان رجلا ، وجماله إن كان امرأة . .

فالفقر شرف يدعيه الشيوعيون ويرفعونه إلى أعلى الدرجات إنه البداية الحقيقية لأن يكون الإنسان كارها ، وأن يجد المساواة فى الكراهية والحقد على الأغنياء مع مئات الملايين . .

وعند الأغنياء فالفقر لعبة . . أكذوبة يدعيها ويتباهى بها الأغنياء . . لا مساواة مع الفقر . .

فالشيوعيون هم الفقراء القدامى . والرأسماليون هم الفقراء الجدد . . انظر إلى كل عروض الأزياء . . تجد أن فساتين المرأة طالعة نازلة ومرفوعة من هنا ونازلة من هناك . . كأنها ثوب من القماش لم يتم تفصيله أو خياطته وكأنها قطعة من القماش لم تجد صاحبتها خياطة تذهب إليها . . أو كأنها هربت من البوليس عندما ضبطها تسرقها فوضعتها على كتفيها ولفتها حول وسطها بسرعة ونزلت إلى الشارع عجبى !

هناك عداء عميق!

ولايزال العالم فى دهشة من موقف الولايات المتحدة الأمريكية التى فى استطاعتها أن تفعل الكثير. ولكنها فى غاية التردد والحذر من الأوضاع المنهارة بين الصرب والبوسنة .

ولكن الموقف الأمريكى واضح تماما وهو :

أولا : أمريكا لاتريد أن تدخل فى أى صراع فى يوغوسلافيا ، خوفا من أن يؤدى إلى مواجهة أمريكية أوروبية . أو أمريكية روسية .

ثانياً : إن أمريكا قد جربت فى الماضى كل أنواع التدخلات . ولم تكن النتيجة لصالحها . . فتجربة الحرب فى لبنان . . ثم كارثة الحرب فى فيتنام وقد أفقدتاها سبعين الفا من الجنود . . . ولم يتحقق فى فيتنام أى نوع من النصر لأمريكا . . وكذلك تدخل أمريكا فى لبنان كان فاشلا .

حتى الحرب فى الخليج التى أسفرت عن هزيمة صدام حسين فى عدوانه على الكويت ، لم تسلم أمريكا من النقد الموجه إليها من قادتها وساستها أيضا .

ثم إن أمريكا لاتريد أن تقف حارسا على حدود دول الخليج . . ولذلك طلبت من الدول أن تتفق على حمايتها لنفسها ، وألا تلجأ إلى أمريكا فى مثل هذه الأحداث الصغيرة على الحدود .

حتى عندما تدخلت أمريكا لإنقاذ الشعب الصومالى من الجوع والموت لم تكن أمريكا وحدها . . وإنما كانت هى التى تقود عددا من

القوات الحليفة .. ثم بسرعة تخلت عن هذا الموقف وتركت للأمم المتحدة أن تتوالى ذلك وتحت زعامتها .. وأخيرا قرر مجلس الأمن إرسال أكبر قوة بعثت بها الأمم المتحدة إلى أى مكان فى العالم «٢٨ ألف جندى» تبلغ تكاليفهم فى السنة الأولى مليارين من الدولارات .. وتحت قيادة الأمم المتحدة ، وليس الولايات المتحدة !

ثالثا : إن سياسة الحزب الديمقراطى الذى يمثله كلينتون تقوم على أن تراعى أمريكا مصالحها وسلامتها وأمنها قبل أى شىء آخر .. وأن تدع الدول القوية الغنية تساهم .. فأمريكا مشغولة بوضعها الاقتصادى ورفاهية الشعب الأمريكى .. ولكن ليست على استعداد لأن تضحى بكل ذلك من أجل أية دولة .. أو أية قضية مهما كانت إنسانية .. وإنما القضية التى تساوى كل شىء هى : مصالح أمريكا فى أى مكان .

رابعا : إن أمريكا مسئولة جدا عما يحدث فى روسيا .. فهى ترى أن الرئيس يلتسين هو أهم زعيم فى التاريخ الحديث لروسيا .. لأنه أول رئيس ينتخبه الشعب ديمقراطيا من ألف سنة .. ولذلك سوف تساعده أمريكا وألمانيا والدول الأوروبية .. وكما قال المستشار الألمانى كول : إن تكاليف مساندة يلتسين أقل كثيرا من إصلاح الدمار الذى يترتب على إقصائه من السلطة . وأمريكا إن لم تساعد يلتسين فإنها تخاف من النكسة البشعة التى قد تصيب الروس الذين لم يعرفوا بعد مزايا الديمقراطية .. لأنهم حتى الآن لايجدون إلا الحرية والفقر !

ويرى الأمريكان إنهم إذا ساعدوا يلتسين ، فسوف يساعدهم أيضا فى حل أزمة الصرب والبوسنة ، لأن روسيا تقف وراء الصرب بالسلاح والمرتزقة .. فقد وقفت الصرب مع روسيا ضد هتلر فى

الحرب الماضية . . ولاتزال روسيا تقوم بتهريب الأسلحة إلى الصرب . . وفى نفس الوقت لاتزال أمريكا تهدد بتهريب الأسلحة إلى البوسنة .

ولاتزال أمريكا والحلفاء معها يصرون على وقف إطلاق النار على كل الجهات ليتمكن الوزيران أوين وفانس من مناقشة بنود السلام التى وافق عليها رئيس البوسنة ، ولم يتضح بعد موقف الصرب وإن كان الرئيس الصربى أقل تطرفا من كل الذين حوله . . وغير موافق على الأعمال الوحشية التى يقوم بها الجنود بمساندة كوادر الحرس الشيوعى السابق ؟!

وكان الرئيس بوش قد استطاع أن يجعل الأمم المتحدة تعمل لحساب الولايات المتحدة الأمريكية . . أو كأنها الولايات المتحدة وليس الأمم المتحدة .

ولكن سياسة كلينتون هى أن يكون للأمم المتحدة دور رئيسى . ولكن بشرط ألا تصدق هذا (الدور) ـ أى أنها تتخيل دورا للأمم المتحدة ويجب ألا تتوهم ولو لحظة واحدة أنها ذات قوة فريدة وأنها قادرة على الربط والحل دون مباركة الولايات المتحدة .

ولذلك عندما قرر مجلس الأمن إيفاد قوات كبيرة إلى الصومال ، أعلنت مندوبة أمريكا أن هذا قرار يتجاوز به مجلس الأمن كل سلطات الأمم المتحدة ؟!

المهم هو أن أمريكا سوف تتدخل بشكل ما ، وليس تدخلا كاملا . . ولن تسمح بأن تتدخل أية دولة أخرى تدخلا كاملا . . حتى لو مات مئات وألوف ، فإن أمريكا لاتمانع مادام هذا الصراع لايؤدى إلى تدخل أية دولة كبرى !

هناك قصة للشاعر الفارسى سعدى تقول : إن رجلا سأل فيلسوفا . قال : ممن تعلمت الأدب ؟ قال الفيلسوف : من واحد قليل الأدب . . كلما فعل شيئا امتنعت عنه !

وهذا بالضبط ما يجب أن نفعله إذا نظرنا إلى ما حدث فى الاتحاد اليوغوسلافى . . فبهذا الشكل يجب ألا تكون دولة واحدة . . فيوغوسلافيا كانت تضم ست جمهوريات هى :

١ ـ البوسنة والهرسك .

٢ ـ كرواتيا .

٣ ـ مقدونيا .

٤ ـ مونتجرو «الجبل الأسود» .

٥ ـ سلوفينيا .

٦ ـ الصرب . .

ومنطقتان كل منهما تستمتع بنوع من الحكم الذاتى هى : كوسوفو وفوجيفودينا . .

وعاصمة هذه الجمهوريات هى بلجراد .

وهذه الدويلات تتكلم ١٥ لغة . واللغات الرسمية أربع فقط هى الصربية والكرواتية والسلوفينية والمقدونية .

وتقع هذه الدويلات على حدود سبع دول : إيطاليا والنمسا والمجر شمالا ورومانيا وبلغاريا شرقا . . واليونان وألبانيا جنوبا . .

ومن أهم معالمها أن لها ساحلا على البحر الأدرياني طوله ١٦٠٠ كيلومتر ـ أى ساحل طويل على المياه الدافئة . . وهذه المياه الدافئة هى حلم روسيا والنمسا وتركيا . .

ومساحة هذه الدويلات ٢٢٨ ألف كيلو متر يعيش عليها ٢٥ مليون نسمة . تضم ٢٢ جماعة وقومية وأقلية عرقية من الصرب

والكروات والسلوفين والمقدون والبلقان والأتراك والسلوفاك . ويدينون بالأرثوذكسية والإسلام . .

وليس على الكرة الأرضية وفى مساحة ضيقة مثل هذا التجمع المتنافر الشاذ الذى لم يهدأ من مئات السنين . وعلى الرغم من أن الزعيم الشيوعى تيتو قد ربط هذه الدويلات بالحديد والنار ، فإن الصراعات بينها لم تنته يوما واحد . . وقد حاول تيتو بكل الطرق لتهدئة الصراعات وليس للقضاء عليها . . فكان ينقل مجموعات كاملة من أهالى البوسنة إلى الصرب . . وينقل مجموعات أكبر من أهالى الصرب إلى البوسنة وإلى كرواتيا . . أو يحاول أن يجعل هذه الكيانات العرقية ممثلة فى المؤسسات الدستورية . وكل ذلك لم يؤد إلى أى نوع من التعايش السلمى . . فالرغبة فى الانفصال والانتقام موجودة دائما . . وتظهر من حين إلى حين . . ولكن تيتو حاول بمنتهى القوة أن يخفى هذه الصراعات الدموية .

ويكفى أن تعود إلى الأدب الشعبى والأغانى العاطفية والوطنية لتجد أن فى أعماق هذه الكيانات عداء عميقا وانتظارا لساعة الخلاص . فهناك أغنية فى البوسنة تقول :

لو سألنى القمر :
هل أنت سعيد بنورى ؟
هل أنت عاشق فى نورى ؟
هل أنا حاكم على جبينك ؟
هل أنا حاكم جبينك على قلبك ؟
لو سألنى القمر فى ليلة الزفاف
لو سألنى القمر فى شهر العسل
فى آخر أيام لشهر العسل

لو سألنى القمر : أما تزال تحبنى ؟
لأجبت القمر وأنا أنظر إلى عينى حبيبى : لا . . يا قمر . .
إننى لا أحب أن يشاركنى فيك أحد . .
كما أننى لا أحب أن تشاركنى فى حبيبى . .
لو سألنى القمر لقلت له :
أنت لست لى وحدى يا قمر . .
حبيبى لى وحدى يا قمر . .
أما أنت فقد جئت إلينا من بلاد تضمر الحقد والدم والكراهية .
لقد تلوثت أثيابك الفضية برموش عيونهم الشريرة .
لست لى يا قمر .
لست قمرى يا قمر .
قمرى حبيبى وحبيبى قمرى .
يا قمر . . اذهب إليهم يا قمر .
سوف أتخيلك وأنا مغمض العينين يا قمر . .
لست قمرا يا قمر !

الله على الكلام الحلو والمعنى الجميل والحب الصادق . . والمرارة التى فى كل قلب فى البوسنة . . والذكريات السوداء التى يحملونها لأهل الصرب . فقد ثبت للعالم كله أنهم وحوش منحطة دنيئة سافلة حقيرة . .

ويغور القمر إذا كان يظهر فى بلادهم قبل أن يجرجروا أذياله الفضية إلى بلاد البوسنة الإسلامية التى تحسدها الشعوب الأخرى على طيبة أهلها وجمال نسائها وشواطئها الدافئة . .

ولا أنت قمرنا يا قمر إذا كنت ترى ما يفعله أهل الصرب ولاتبصق عليهم يا قمر !

لا جديد فى الجديد

(١)

أطلق الرئيس بوش تعبير «النظام الجديد» . . أى إعادة تنظيم العالم كله من أوله لآخره على مزاج الولايات المتحدة الأمريكية . ولابد أن يكون على مزاجها فلم يعد فى الدنيا إلا مزاج واحد هو أمريكا . فهى الأقوى والأغنى . . وقد سقطت الولايات المتحدة الشيوعية . . وتحولت هذه الولايات إلى دول مستقلة ارتبطت مصالحها فى كيان مهلهل اسمه «كومنولث الدول المستقلة» والنظام الجديد سيكون بدون روسيا . . أو بروسيا التى هى دولة كأية دولة أخرى . ولم تعد دولة عظمى ولكن من المؤكد أنها دولة كبرى - الآن وغدا . . والشعب عدده كبير . . وبها موارد طبيعية من البترول والذهب والفضة والماس والأرض الزراعية والمياه وعشرات الألوف من علماء الذرة . . وعلماء الفضاء وكل فروع المعرفة الإنسانية .

وفى القرن العشرين كان «النظام الجديد» هو تقسيم العالم بين أمريكا وروسيا وشىء هلامى مضحك اسمه دول عدم الانحياز المنحازة كلها إلى روسيا وبعض الانتهازيين ينحازون إلى أمريكا . . فلم تكن دول عدم الانحياز، غير منحازة فى أى وقت وبقيت دول العالم الثالث تحت ستار عدم الانحياز وكما عاشت تفككت هى الأخرى . . وكل دولة سارعت بإعلان الانحياز إلى الدولة التى تنفع وتساند عند الضرورة . وما أكثر الضرورات عند الدول الفقيرة !

وفى كل مرة تظهر دول كبيرة تجتاح الدول التى حولها وتسمى هذا الذى حدث «نظاما جديدا» ـ أى سيطرة دولة كبرى على دول أخرى صغيرة وتعليمها الأدب والهوان لخدمة الدولة الكبرى . وتسمى الدولة العظمى هذا الاستيلاء على أرض الغير ومقدراته «مجالا حيويا» . . أى المجال الضرورى لحياة الدول الكبرى . ولا يهم إن كانت حياة الدولة الكبرى تدوس حياة الدول الصغيرة . لأن مهمة الدول الصغيرة مثل مهمة الأسماك الصغيرة ، أن تكون طعاما سائغا للدول الكبرى !

وكذلك إذا ظهرت فلسفة جديدة . فإنها هى الأخرى تعيد تنظيم وتنظير العالم بما يتفق معها . . وتبدأ النظرية الجديدة بأن تنتشر بالذوق ، فإن لم ينفع الذوق لجأت إلى القوة ـ أى فرض النظام الجديد والنظرية الجديدة بالقوة . .

وكل الامبراطوريات القديمة هى دول عندها قوة وعندها نظرية . . أو عندها نظرية تساندها قوة . . أو عندها قوة ترشدها نظرية . . وعندما تتسع إمبراطورية فإن الإمبراطور يشعر أنه فى السماء . . وأنه فوق البشر ويظلم ويقتل ويسفك الدماء ولذلك فطاعته واجبة ، والناس جميعا فداء لحياته ـ كل الأباطرة كانوا كذلك . . وأباطرة العصر الحديث أيضا لينين مثلا كان يطاع دائما والرئيس الأمريكى صاحب السلطات فوق العادية .

وكذلك كانت بريطانيا وفرنسا فى القرن التاسع عشر . لقد اقتسمنا الدنيا وبعد الحرب العالمية الثانية اقتسمت أمريكا وروسيا هذا الكرة الأرضية واتجهتا إلى الكواكب تنقلان إليها كل مصائب الكرة الأرضية وعيوبها وأمراضها وأحقادها فكأن الإنسانية عندما تقدمت ارتفعت بمستوى السفالة والحقارة . لم تغير شيئا من سلوكها الحقير ، وإنما نقلته إلى ملاعب أعلى من الأرض . هذا كل ما حدث !

(٢)

إذن هناك : قوة . .

وهناك : نظرية . .

وصاحب القوة يريد أن يكون أيضا صاحب نظرية . .

أى أن الحاكم يريد أن يكون فيلسوفا .

والمثل الأعلى هو أن يكون الفيلسوف الحاكم . . وهذا هو حلم الفلاسفة وحلم الحكام .

وصاحب النظرية يريد أن يكون حاكما . . أى الفيلسوف يريد أن يكون حاكما قادرا على نشر هذا الرأى بين الناس .

والقوة بلا فلسفة غاشمة .

والفلسفة بلا قوة هلوسة .

وقد حاول أستاذنا العظيم أفلاطون أن يرسم لنا الدولة المثالية المنضبطة القوية الواعية . . أى التى تتوازن فيها القوة والنظرية . . فأقام «المدينة الفاضلة» . . وفى اللغة اليونانية يسمونها «يوتوبيا» أى التى ليس لها مكان . . أى دولة بلا مكان . . أى فى خيال صاحبها .

ولكن أفلاطون كان مؤمنا بإمكان قيام هذه الدولة . . مادام على رأسها الفلاسفة . . فالفيلسوف هو أعظم كائن إنسانى . . والفلاسفة إذا كانوا رءوس دولة فهى الدولة الفاضلة التى تتوازن فيها حقوق الإنسان ورغباته . . وإرادته ونزواته . . فهى دولة علمية فلسفية .

ولما طلبوا إلى أفلاطون أن يحتل إحدى الجزر اليونانية وأن يجعلها دولته المثالية فشل . . وكان فشله أكبر دليل على أن

صاحب النظرية ، ليس دائما أقدر الناس على تطبيقها . . فالمسافة كبيرة بين النظرية والتطبيق . . بين القول والعمل . . بين الفيلسوف والحاكم .

ولكن الإنسانية لم تيأس . . حاولت أن تحقق خيال الحكام وأحلامهم . . أن تدوس الصعوبات المستعصية التى تواجهها . . فلجأت إلى العنف . . فقامت الدولة الشيوعية مثلا بالحديد والنار . . وكان لينين أحسن نموذج للفيلسوف الملك . . فهو صاحب النظرية وهو الذى يطبقها بالنار . . فقتل الملايين وعاشت النظرية على أنقاضهم . . وجاء ستالين إمبراطورا فقتل عشرات الملايين ، ونفذت النظرية بدمائهم . . وفرض على الحضارة الإنسانية نظرية جديدة هى : الكتاب والقنبلة . . وانتشرت الشيوعية فى الدنيا بالكذب والغش والنصب والاحتيال والسفالة والعمالة وبالفلوس .

والمثل القديم يقول : دولة الظلم ساعة ، ودولة العدل إلى قيام الساعة !

واستمرت دولة الظلم هذه سبعين سنة !

وظل حلم الإنسانية كلها أن تجد حاكما عادلا . . أو حاكما فيلسوفا .

إيطاليا بعد الحرب طلبت إلى الفيلسوف بندتو كروتشه أن يكون أول رئيس لها بعد موسولينى ـ وهو الفيلسوف الملك . . واعتذر كروتشه لأنه يستطيع أن يكون فيلسوفا ولكنه لم يتدرب على أن يكون ملكا !

وإسرائيل طلبت إلى العالم الفيزيائى العظيم أينشتين أن يكون أول رئيس لها . . فاعتذر لأنه يستطيع أن يحصى عدد النجوم فى السماء ولايستطيع أن يحصى عدد أوراق أى شجرة فى أية

حديقة . . فإذا كان الرجل حاكما فشعبه هو النجوم والكوكب ، وليس البشر . . فاعتذر .

والثورة المصرية عرضت على مؤرخ الفلسفة لطفى السيد باشا أن يكون رئيسا ، فاعتذر ولنفس الأسباب .

ولذلك عندما تعذر أن يكون الحاكم فيلسوفا فإنه يختار إلى جواره عددا من المفكرين . . فإلى جوار الاسكندر الأكبر كان أستاذنا العظيم أرسطو ، أعظم فلاسفة الإغريق . . وإلى جوار هتلر كان الفيلسوف الألمانى الفرد روزنبرج ، ومن قبله كان الفيلسوف العظيم نيتشه .

وإلى جوار موسولينى كان الشاعر البديع دانتسيو .

ولم تنجح هذه الإمبراطوريات لأنها فرضت الفكرة بالقوة . . ولأنها وضعت الناس فى قوالب من الحديد ، مع أن الناس مختلفون . . ولدوا كذلك وسوف يموتون كذلك . . ولأنها بالعنف قضت على إرادة البشر من أجل إرادة شخص واحد . . ولأنها سخرت مئات الملايين من أجل شخص واحد .

فمات الشخص الواحد ، ولابد أن يموت ، وسبقته إلى القبر نظريته أيضا !

(٣)

وقد حاولت كثير من الدول أن تحقق لنفسها نوعا من النظرية . . أو نوعا من «إطار العمل» . . وأن يكون هذا الإطار ثابتا . . وبذلك تمشى الشعوب فى نظم ثابتة ممتدة من الماضى إلى المستقبل فى رعاية الحاضر القائم على النظرية القوية . . أو القوة الرشيدة .

فكانت النظم العديدة .

ولكن يمكن أن تختار شكلين من أشكال النظم هى أكثر انتشارا . وأكثر استقرارا أيضاً . .

هناك نوعان من الحكومات :

حكومة علماء .

وحكومة علمية .

حكومة العلماء هى التى تضم عددا من العلماء المتخصصين . فيكون وزير الصحة طبيبا ووزير الدفاع ضابطا ووزير الداخلية ضابطا . . ووزير التعليم مدرسا . . ووزير الثقافة أديبا فنانا . . ووزير الزراعة مهندسا زراعيا . . الخ .

وكل واحد منهم فى حالة . . «قرموط» فى بحيرة من الماء يعرف كيف يطفو ويغطس ويدور ويتحرك . . إنه فى مكانه الطبيعى .

ولأنه «القرموط» الوحيد فى البحيرة أو فى الحوض فهو يعمل ما بدا له . . دون أن يشعر بزملائه الآخرين من الوزراء . . وهو يبنى ويهدم على مزاجه . . ويبدأ من أول وجديد ، كأن أحدا لم يسبقه إلى منصب الوزير . . وبدلا من أن يكمل ما بدأه سلفه ، فإنه يؤكد للشعب دائما أن سلفه كان جاهلا . . وحتى يثبت هو لنا أنه ليس مثله يكون قد فشل وجاء دوره لكى يعود إلى الظل الذى جاء منه

ويجىء من بعده من يؤكد أنه كان وكان . . وتتكرر نفس الإسطوانة المشروخة التى تدور على الفاضى . . والنتيجة المؤكدة أن الدولة والوزارة لم تتقدم على يديه خطوة واحدة !

وعيب هذه الوزارة : أنها ليست حكومة . وإنما هى مجموعة من الحكومات . كل وزير حكومة تعمل لحسابها . ولاتعمل مع الجميع ومن أجل الجميع !

وكان ذلك شكل كل الحكومات التى سبقت قيام الثورة الصناعية فى أوروبا . . وقيام الدولة العلمية : الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية أيضاً .

والحكومة العلمية . . هى الحكومة التى لها سياسة ثابتة . فلسفة محددة . لها أول ولها آخر . ولها عمر . هذه السياسة قد أقرتها السلطة السياسية أو الحزب الذى له نظرية . وهذه النظرية هى التى تستوعب حاضر ومستقبل الدولة وشعبها ومواردها . أما الوزراء فهم أشخاص اختارهم الحزب لكى يطبقوا سياسة الحزب . فإن نجحوا ظلوا فى أماكنهم وإن فشلوا جاء غيرهم . ولكن السياسة ثابتة . لاتتغير بأسماء الوزراء . . بل إن الوزراء قادمون ذاهبون ولا يبقى إلا الحزب ونظرياته .

والحكومة ليست «عزبة» يملكها الوزير ورئيس الوزراء ورئيس الدولة . . والشعب ليس «خدم السيادة» . . وليس عبدا اشتروه بأبخس الأثمان فى سوق العبيد . . وإنما الوزير خادم الشعب ، وعلى مستوى رفيع . هذا هو شرط الحكم والحكومة .

ومعنى ذلك أن كل وزير يجب أن يرفع الصورة التى يحلم بها المجتمع إلى التطبيق يوما بعد يوم . . أى يقترب بالشعب من الخريطة المثالية . . فإن فشل جاء غيره . . وليست الوزارة تركة ورثها الوزير عن الذين خلفوه . وإنما هى مهمة مؤقتة قصيرة أو طويلة . . وهو وشطارته !

فى مسجد الرسول ..

(١)

لا أعرف عدد المرات التى سافرت فيها إلى السعودية . . ربما عشرون ربما خمس وعشرون مرة . . ربما أكثر ، وفى كل مرة لا بد من أداء العمرة ولقد أديت الحج سبع مرات وصليت فى داخل الكعبة ١٤ مرة وفى كل مرة أشعر إننى أرى الكعبة والطريق إليها وإلى مسجد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأول مرة . . وأنظر حولى ولا أتبين معالم الطريق والأشياء بوضوح ، لأننى لا أرى بعقلى وإنما بشىء آخر أقوى وأكثر حرارة ولذلك فكل شىء يبدو كأنه جديد ، أو كأننا حديد ، واحد آخر . .

وأسأل غيرى ويكون لديهم نفس الشعور وربما أقوى بل إننى عرفت من بعض الأصدقاء أنهم لايرون الطريق إلى مكة بوضوح فهم مشغولون بالتلاوة والقراءة والتلبية ، أو هم مشغولون عن كل شىء حولهم بما هو فى أعماقهم .

وكنت أول الأمر أندهش لذلك ، ولا أتصور أن يكون الإنسان مستغرقا فى وجدانه لدرجة أنه لايرى ولايسمع ما حوله وجربت ووجدت عندى ما يشبه ذلك وإن كنت أحب أن أناقش أهل الذكر والعلم . . وكثيرا ما أخذتنى المناقشات إلى نفس النتيجة : لا أرى ماذا طرأ على الطريق أو حتى مدينة مكة أو المدينة . .

وفى كل مرة أحاول أن أركز وأن أقارن بما رأيت من قبل وما أراه الآن . فكل شىء فى السعودية يتغير ويتبدل . .

فالطرق تتسع أكثر ، وتضاء أقوى ، والبيوت تظهر والجسور . . والمحلات تمتلئ والناس كثيرون فى كل وقت ومن كل بلاد المسلمين .

سألت صديقا من علماء المدينة المنورة أستمتع بالجلوس إليه فأرى فيه الصفاء والنقاء والطيبة . .

وكل أهل المدينة طيبون فكان يقول لى : إننى أضحك على نفسى فى كثير من الأحيان .

فقلت له : كيف ؟

قال : من عادتى أن أدخل إلى مسجد الرسول من باب معين . . ولكن يحدث أننى أدخل من باب آخر . رغم حرصى على أن أدخل من الباب الذى أعرفه والذى أتفق مع أصدقائى على أن نلتقى هناك .

لماذا ؟

يا أخى مش عارف . . شىء ما أقوى منى يدفعنى هنا أو هناك رغم أننى من أهل البلد . . وأعرف كل شىء وكل الناس وكل المداخل .

يعنى إيه ؟

يعنى أن شعورى الداخلى يتدفق ويوجهنى إلى وجهة لدرجة أننى أنظر إلى الباب وكأننى أراه لأول مرة . . وأضحك من أن هذا غير صحيح . فكل الأبواب فى مكانها . . ولكن أنا الذى لست فى مكانى !

فى كل مرة أذهب إلى جدة أحاول أن أجد الأماكن التى رأيتها أول مرة من ثلاثين عاما ، لم أعد أجدها فقد كان هناك مطعم على البحر ، وهذا المطعم به حوض من أسماك الزينة . . والماء يتدفق من نافورة صغيرة فى داخل المطعم وكان الناس يهربون إليه من حرارة جدة . . وكان من معالم المدينة !

وظهر فى المدينة مئات المطاعم الجميلة والفخمة الشرقية والغربية . وأصبح السؤال عن هذا المطعم كالسؤال عن أهل الكهف . . لم يعد له أثر . . هل ابتلعه البحر . . أو هدموه ليوسعوا الشارع . . أو أن صاحبه قد أقام مطعما أجمل وأفخم . .

كان لى صديق يبيع البخور والعطور وهو من أصل أفغانى . وقد درس فى مصر ولما مات أبوه جلس فى دكانه ومن حوله أخوته الصغار . . وكنت أجلس إليه وأستمتع بحديثه وبعطوره . . وبالمناقشات الهادئة بين الزبائن ، وكان يقول لى : لقد حاولت أن أكون مختلفا عن والدى فى مقابلة الناس . فلم أستطع . ولذلك عدت إلى ما كان يفعله أبى ، فهو أحكم وأعقل .

واستوضحته . فقال إننى قررت أن أكون جادا صارما . فالكلمة واحدة . والسعر واحد . وكدت أفقد كل الناس . فالناس يحبون أن أحييهم وأن أداعبهم وأن أجاملهم . . ويحبون إضاعة الوقت فى الفصال . . فالوقت عندهم أكثر من الفلوس ولذلك فهم على راحتهم فى الشراء . . وإن لم يكونوا على راحتهم فى الدفع . . فلابد أن أدخل معهم فى مناقشة ولابد أن أساعدهم على أن يشعروا بأنهم ضحكوا على . واشتروا بأقل الأسعار . . وأصبحت الآن أضيع معظم الوقت فى المساومة . . إنهم يحبون ذلك . ويجب أن أحب ذلك .

فالزبون على حق مهما كان سخيفا ، وأنا لص فى نظره مهما كنت جادا وصارما .

وفجأة ظهر زبون يقول : يا أخى أنت ضحكت على . . فالبخور فى المحل المجاور لك أرخص بريال واحد . . ما رأيك ؟

اتفضل ياسيدى الريال ولاتزعل ثم أعطاه ريالا وهو يقول لى : والله العظيم : إنه كذاب . . لأننى صاحب المحل الآخر !

كل الناس يحبون مدينة (جدة) . . لأنها مدينة ولأن بها أناسا كثيرون . ففى كل مكان زحام . المحلات والفنادق . والشوارع يمكنك أن تمشى فيها . . وأن تتحرك بسيارتك نصف ساعة أو ربع ساعة . على عكس مدينة الرياض الواسعة جدا . . ولاتستطيع أن تمشى فى شوارعها . لأن الشوارع بعشرات الكيلومترات . ولابد من السيارة . والسيارة تحتاج إلى ثلاثة أرباع الساعة أو الساعة لتنتقل من طرف إلى طرف . وفى الرياض تشعر بالغربة . فالمسافات بين الناس وبين المحلات والمعالم بعيدة . . ولكن فى جدة كل شىء قريب منك . . وعلى مسافات قصيرة . فمن الممكن أن تجد إلى جوار الفندق الذى تنزل به أربعة أو خمسة تجمعات كبرى للبيع . . أى أن أمامك خيارات هائلة لكى تشترى وتتفرج . . أو تتفرج ولاتشترى . .

وفى جدة إلى جانب الجو الحار ، هناك نوع من الدفء . . هذا الدفء سببه أن هناك أناسا من كل لون ولغة . وأنهم جميعا موجودون فى كل ساعات الليل والنهار . .

أما مكة فلها مذاق خاص ومدلول خاص تنفرد به بين كل مدن الدنيا . . والمدينة التى لها رائحة مميزة عن كل مدن المملكة السعودية . .

وسوف تجد أن مدينة جدة دائما هى المدينة الدولية . . أو هى التجمع العالمى . . ففيها الخواجات الذين لاتجدهم فى مكة أو فى المدينة . . وترى فيها الأزياء الأوروبية . . وفيها كل ما فى المدن الأوروبية من حيوية فى الشارع والأسواق والمطاعم والمستشفيات والفنادق . وأبناء جدة أكثر أهل المملكة السعودية ثقافة وأوسعهم أفقا . وفى جدة تذوب الفوارق بين الألوان واللغات والقارات . . ففى جدة تلتقى القارات الخمس . .

ولو كـان عندى خـمس سـاعـات لزيارة جـدة ومكة والمدينة والرياض . . لوزعتـهـا هكذا : نصف سـاعـة فى الرياض وسـاعـة ونصف فى مكة وساعة فى المدينة وساعتين فى جدة . . وإن كان كثيرون يفضلون أن يبقوا فى مكة والمدينة معظم الوقت وما تبقى لديهم من دقائق يمضونها فى جدة ؟!

ولكن هذا يتوقف على ما الذى تريد والذى يريحك ويمتعك . .

سألت د . عبد القادر حجازى وهو متزوج من سعودية وعنده ستة من الأولاد الذكور وأربع من الأناث . قال لى : إنه جاء إلى السعودية بقصد الحج والعودة بعد ذلك إلى مصر شاكرا حامدا لله أن وهبه نعـمـة الحج والعـمـرة ولم يخطر على باله أن يعيش فى السعودية . وأن يموت فيها ـ هذا ما يرجوه من الله . . وقال لى : إننا لايتسع وقتنا عادة لفهم الناس والبلاد . وإننا نتعجل الحكم على الناس من معايشتهم ساعة أو بعض ساعة . تماما كما يخطئ الأجانب فى فهم المصريين من مجرد الحديث مع سائق التاكسى أو بائع الصحف . .

فعلا ـ لأن الذين ربطوا البلدين بعضهما ببعض ، هم الذين عـايشـوا وعـاشـوا وأحـبـوا وطالت أيامـهم فى مـصـر أو فى السعودية . . هؤلاء الذين أقاموا الجسور بين الشعبين . . وإليهم يرجع الفضل فى قوة العلاقات بين الشعبين . . وقال لى أيضا أنه كلمـا قـرأ عن خـلافـات بين البلدين أيقن أنهـا من صنع أناس لم يأتوا إلى السعودية . أو مروا بها ساعات ثم عادوا إلى بلادهم . ولو مكثـوا بعض الوقت . . ولو فـهـمـوا . ولو أدركـوا خطورة العلاقات الحميمة ، لكانت مصر والسعودية معا أعظم ركيزة للعرب وللإسلام .

ولكن شعوبا أخرى لاتريد لنا ذلك . . والأمثلة عندنا وعندهم كثيرة . والغلط جريمة مشتركة . فلا أحد برىء !

ثم نظر إلينا وكنا عشرين ضيفا فى بيته وقال : المضحك أن لهجتى سعودية . . ولكن زوجتى وأولادى لهجتهم مصرية . والناس يظنوننى سعوديا وزوجتى مصرية . . وهذا يدل على توجهات هذه الأسرة الصغيرة .

أنا أحب هذه البلاد . . وأولادى يحبون مصر وكلنا ندعو إلى علاقات دائمة قوية بين الشعبين . وليست هذه إلا أسرة واحدة صغيرة من مئات الألوف من العائلات السعودية والمصرية المختلطة الآباء والأمهات . وهذا هو الطبيعى . والمنطقى . صدقونى . .

وقالت لى زوجته السيدة نفيسة القحطانى : إننا فى مصر عندما ندخل المطاعم يقولون : سيادتك عاوزه إيه . . نحن لانعرف كيف نتفاهم مع سمو الأمير . . ويشيرون إلى زوجى الذى ارتدى ملابس عربية وأطلق لحيته . . ونضحك لأنهم لايفهمون ما يقول لأنه لهجته سعودية بالقوى . . فعندنا ما يجعلنا نضحك ونعود إلى السعودية نحكى مثل هذه النوادر . .

إنها أسرة نموذجية للسعادة والأمان وراحة البال . . ويتمنون أن نفهم لكى نعايش ونعيش ونعدل بين الشعبين !

(٢)

كيف تتكهرب العلاقات بين مصر والسعودية؟ كيف تتطاول الألسنة بهذه السرعة . . كيف تطيش كلمات وعبارات ؟ وكيف تستقر المواقف العدائية ؟ كى تقول : هم . . ونحن . . هم كذا ونحن لسنا كذا . . وكل ذلك فى وقت قصير وبسرعة . . كأن لا هذه مصر ولا هذه السعودية . . إنما دولتان غريبتان . . كأننا لا رحنا وكأنهم لم يأتوا . . وكأن مصر ليس لها مليون ونصف المليون من العاملين فى السعودية وكان مئات الألوف من السعودية لاينفقون مليارات من الجنيهات فى مصر سنويا ، فى الشقق والبيوت والفنادق فى القاهرة وفى المصايف وفى أسوان . . كيف يحدث ذلك ؟

مثلا : سيارة مصرية صدمت سعوديا فى الطريق العام . . فمات . . أو سيارة سعودية داهمت مصريا فى الطريق فمات هو وابنه وأنا أقول مثلا لأن هذا قد حدث أو من الممكن أن يحدث .

ومن الطبيعى أن تنشر الصحف ذلك . . ويكون المعنى : إنه سوء حظ . . أو إنه القدر أو إنه إهمال من السائق أو استخفاف من الشاب الصغير الذى كان يقود السيارة . . أو غفلة من الرجل الذى كان يعبر الشارع وفى مكان غير مخصص للمشاة .

ومكان هذا النبأ فى صفحة الحوادث . . وإذا كان الضحية مشهورا فمكانه فى الصفحة الأولى . . ولكنه فى جميع الأحوال : حادث عادى يقع فى كل مكان .

أى أن هذا الخبر لايشغل إلا مساحة صغيرة من الصحيفة . . لماذا ؟ لأنه حادث عادى . . صحيح حادث مؤسف ولكنه واحد

من ألوف الحوادث التى تقع كل يوم فى أى بلد أو واحد من ملايين الحوادث التى تقع فى الدنيا . . ولايترتب على ذلك الحادث أن يفكر أحد فى عدم استيراد السيارات أو وقف تراخيص قيادة السيارات أو منعها نهائيا من الحركة . . أو عدم رصف الشوارع أو إغلاقها كلها فى وجه السيارات ، حتى لاتكون سيارات أخرى أو حتى لاتكون شوارع ؟!

مثل هذه التفسيرات العنيفة والإجراءات الخاطئة لاتحدث عادة . . لأن الحادث عادى جدا .

ولكن إذا قالت الصحف فى مصر أو فى السعودية : إن هناك خطة مدروسة لتصفية المصريين جسديا أو القضاء على السعوديين ، فهذا هذيان . . وهذا عبث واستخفاف بعقول الناس ولعب بمصالح الشعوب . . وإهدار للتقاليد العريقة بين البلدين . . فليس فى نية السعودية أن تقضى على شعب مصر العامل فيها . . ولا فى نية مصر أيضا .

ولكن إذا حدث ونشرت الصحف ذلك ألا يكون سببا قويا لعواقب تبعث على الأسف؟ حدث فعلا . . وطالت الأقلام وتطاولت الألسنة وفى يوم وليلة وجدنا العلاقات المصرية السعودية فى النار والدخان . . إنها نهاية العالم . . كيف حدث ذلك ؟

إنها غلطة الصحافة المصرية التى جعلت من الحبة قبة . . التى حولت حادثا فرديا سخيفا مؤسفا إلى موقف شعبى ورسمى سعودى . . هل من المعقول أن يكون من آمال وأحلام الشعب السعودى وحكومته الشقيقة الصديقة «تصفية جسدية» لشعب مصر . . لستين مليونا ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ أو تكون سياسة مصر الخفية والمعلنة هى القضاء على كل ما هو سعودى ؟ لماذا ؟

غلطة أخرى : أن تسكت الدولة عن ذلك . . تسكت وتتفرج مع أنها تتدخل فى كل شىء . . ومن الطبيعى أن تفعل ذلك . . لأن الموقف هنا ليس حرية أن نشتم وأن نلعن . . ولكن هناك تخريب لما بين شعبين كبيرين عريقين شقيقين . . والسكوت عن التخريب تشجيع على مزيد من الانهيار بين البلدين !

وكما هى العادة فى مصر : رد الفعل عندنا إما بطيئا جدا وإما سريعا جدا . . وفى الحالتين . . إنها غلطتنا . . أن نندفع وأن نتراخى !

والذى يبعث على الأسى والأسف أن نفاجئ المواطن المصرى والمواطن السعودى بتغيير شامل مفاجئ ، فإذا بالكتاب يكتشفون أن السعودية هى جنة الله التى وعد بها المصريين . . ويكتشفون أنه لاصديق لنا فى كل دول العرب إلا السعودية . . وأن الملك عبد العزيز مؤسس الدولة كان على حق عندما أوصى أولاده بأن يكونوا رجلا واحدا وأن تكون مصر والسعودية دولة واحدة قائمة على الحب والتعاون والاحترام !

يعنى إيه ؟ يعنى أن الأقلام التى شتمت بلا سبب قوى ، تمدح الآن بلا سبب واضح . . فهل هذا هو الأساس المتين لعلاقة أبدية! ليس كذلك !

والمعنى : إنها مواقف انفعالية . . ولأنها انفعالية فهى غير مسئولة . . وهى خطيرة . . ولايصح أن نجازف بمستقبل وحاضر الشعبين فنجعلهما عرضة لمثل هذا العبث الصغير . . والخطير أيضا!

هذا هو النجاح !

الناس نوعان : ناجحون وشعراء . .

فالشعراء هم أطيب الناس ، فقد أعطاهم الله القدرة على وزن الكلام . . على موسيقى الألفاظ وغريب التعبيرات . . فشغلتنا موسيقاهم عن التهاوين والتهاويل . . وأسعدنا ذلك . . ولكن لم نقتسم معهم أموالنا . . وهم سعداء بهذا التعبير النبيل . . ونحن أكثر سعادة بالنتيجة . . هم يتعذبون ويقلقون ويضعون رءوسهم فى مكان أقدامهم . . أو يقفون على رءوسهم . . والناس لايشغلهم ذلك . . فالمهم ماذا قالوا . . أو ماذا سيغنى لهم المطربون .

أما الناجحون فى الصناعة والتجارة فأكثرهم لايتذوق الكلام الحلو . . ولايتذوق موسيقى الكلام . . ولايبهرهم الخيال والفراشات التى تركبها معانى الشعراء . .

وقد عرفت عددا كبيرا من الناجحين . . لقد بهرتنى الملايين . . وأدهشنى الناس الذين حصلوا عليها كيف ؟ ومعنى هذا التساؤل هو الاستنكار . . كيف استطاع رجل بهذه المواصفات المتواضعة أن يكون مليونيرا . . هل الطريق إلى المليونير أو الملايين يبدأ بالجلباب والشبشب ؟ فكثير من أصحاب الملايين كانوا كذلك . وبعد أن غيروا الشبشب إلى سيارة كاديلاك ، فمازالوا يعطونك الانطباع بأنهم بالشبشب أو حفاة . . هل الفلوس تحب الحفاة ؟ هل الفلوس كالذباب لاتنحط إلا فوق القذارة فى الشارع وبين الناس ؟ هل كل

الأغنياء كذلك ؟ ليسوا كذلك . . رأيت كثيرا من الناجحين الذين بدأوا ولا حاجة ثم صاروا حاجة أو مئة مليون حاجة مش فاهم .

ها هو النجاح ؟

النجاح أن تبذل جهدا أكثر من اللازم ثم تمضى فى ذلك !

النجاح هو أن تصنع شيئا له وزن ولايتوقف من حين إلى حين تزن هذا الذى صنعت .

الناجح هو الذى إذا تسلق شجرة تعلق بأغصانها لا بأزهارها .

الناجح هو الذى يعمل بالنصائح التى يدعو الناس إليها .

الناجح هو الذى يعمل فوق وتحت . . لأن الشخص الوحيد الذى يعمل فى القمة هو : الحلاق .

والرجل الناجح هو الذى يحمل كل الأعباء وكل اللوم . . ولكنه يوزع المديح على الذين يعملون معه .

الكفاح يدفعك إلى أعلى ، والصبر يجعلك تبقى هناك طويلا .

النجاح الذى يدير رأس الإنسان هو الذى يجعله يلوى طريقه ويبعده عن الناس .

الحقد هو الذى يمد الفشل بالطوب والحجارة التى يلقيها على الناجحين .

الفشل يصيب الذين يقعدون دائما وينتظرون النجاح أن يجىء .

كثير من الناجحين يشعرون بالعزلة لأنهم فى طريقهم إلى القمة قد ضحوا بالأصدقاء .

والنجاح فى الزواج ـ مثلا ـ ليس اختيار الشخص المناسب فقط ، بل أن تكون أنت الشخص المناسب .

أن تجعل النجاح رفيقك فى شيخوختك معناه أن تستعد لذلك فى شبابك .

مشكلة الناس فى هذا الزمان أنهم يريدون أن يبلغوا أرض المعاد دون أن يضيعوا فى الصحراء .

عندما تقترب سفينتك سالمة من الشاطئ فسوف تجد عددا كبيرا من الأقارب فى انتظارك .

ليس أصعب من ضبط النفس فى زمن النجاح !

ليس الرأس هو مصدر النجاح دائما إنه اللسان أيضا !

مصدران للنجاح : أرق وعرق !

لايمكن أن يكون الإنسان ناجحا إلا إذا اعترفت حماته بذلك .

النجاح الذى يقاس بالفلوس : نجاح رخيص .

حدث كثيرا عندما تسلق الرجل الناجح السلالم الطويلة ، أن راح أصدقاؤه يهزون هذه السلالم .

النجاح : حظ ـ هذا ما يقوله الفاشلون .

نحن لانطيق النجاح ـ إذا كان نجاح الآخرين .

النجاح : إذا بدأت شيئا أن تمضى فيه حتى النهاية .

إذا كان النجاح حلو ، فالطريق إليه شديد المرارة !

لم يصعد أحد سلم النجاح ويداه فى جيوبه .

الناس العاديون يؤدون ما هو مطلوب منهم ، والناجحون يفعلون أكثر قليلا .

يجب أن نعالج مشاكل النجاح كما نعالج الإنهيار العصبى : بهدوء . الله أعطى الإنسان الحواس الخمس . . وأعطى الناجحين حاستين أخريين : الصبر والاستمرار .

لقد نجح كل من عاش طويلا وضحك كثيرا وأحب عميقا .

كل إنسان يريد أن ينجح فى مكان ما ، فلماذا لايحاول أن ينجح حيث هو .

إذا لم تنجح فابحث عن سبب الفشل قبل أن تحاول من جديد .

أسوأ استغلال لنجاحك هو أن تفخر به .

قانون النجاح هو : أن يكون لديك تصلب فى ظهرك لا فى عقلك .

كثير من الناس يرون أن الناجح هو إرادتهم . . وأن الفشل هو إرادة الله .

سر النجاح مثل سر السعادة : ليس أن تفعل ما تحب ، ولكن أن تحب ما تفعل .

النجاح هو أن تعمل كل ما هو عادى ، بصورة غير عادية .

سر النجاح هو أن تحول التراب تحت أقدام الآخرين إلى تبر فى يديك .

إذا نظرت إلى الأمس بلا ندم ، وإلى الغد بلا خوف : هذا هو النجاح .

كيف نجحوا ؟

(١)

ذهبت أتفرج على مستشفى د . سليمان فقيه فى مدينة جدة بالسعودية وكنت أريد أن يحدثنى أى طبيب متخصص عن سر نجاح هذا المستشفى ، وقد علمت أن عددا كبيرا من الأطباء المصريين يعملون فى هذا المستشفى . وقد جاءنى الرد من طبيب مصرى ظريف ، وقال لى إنه على استعداد لأن نمر على كل أقسام المستشفى ، وذهبت وفوجئت بأنه ليس الطبيب المصرى فقط الذى وقف ينتظرنى على الباب بل صاحب المستشفى د . سليمان فقيه ، وهو رجل نحيف القوام شديد اليقظة والذكاء والحيوية أيضا . . وأصر د . فقيه أن يرافقنى فى كل مكان وأى مكان ، وقد فهمت أن د . فقيه يفعل ذلك كل يوم . . كل يوم فى كل مكان فى المستشفى القديم والجديد . . يعنى إيه ؟

يعنى أن جميع العاملين يتوقعونه فى أى وقت وفى أى مكان . . فلديهم إحساس بأنه سوف يجىء . . ولذلك يعملون له ألف حساب وهو من النوع الذى يحب أن يعملوا له ألف حساب لأنه شديد وصارم ولاتسامح مع الخطأ من أى نوع ولا أى أحد .

وسرت إلى جواره . . طبعا كل شىء يلمع . . كأن الأرض سقف لايمشى عليها أحد ، كيف ؟ هذا ما تراه طبعا الأرض

كالسقف كالجدران كالسلالم كالمصاعد تلمع . . كأنها مرايا . . فهو مكان لم يسمع عن التراب والذباب والهباب . .

أذكر أننا مررنا على مكان قد تزاحم فيه الناس وارتفعت أصوات بعضهم فلابد أن هناك خطأ وتسلل د . فقيه دون أن أشعر به . وذهبت إلى حيث الناس ، وظهرت أمامه ممرضة . وسكت الناس فلابد أنه كانت هناك مشكلة وبسرعة وجد لها حلا فهدأت الأعصاب ومضينا من قسم إلى قسم من طبيب إلى طبيب . . إلى غرفة انتظار . . إلى غرفة عمليات إلى استراحة إلى مطعم .

وطال المشوار بين الأقسام والتخصصات طالعين نازلين . . والرجل أمامى ويشرح بحماس وشهية . . كأنه يرى ذلك لأول مرة ، فالناجحون لايعرفون الملل ، والنجاح يبدأ من الاهتمام الشديد وبأن يكون صاحب العمل من العاملين . . أكثر حيوية ويقظة وحضورا وحسابا للصغير والصغيرة والكبير والكبيرة .

وقال لى د . سليمان فقيه : إن أكثر الأطباء من مصر ، وليس حبا فى مصر فقط ، ولكن لأن الطبيب المصرى مقتدر وعنده ضمير فى العمل . . وأنه لا أحد يشكو من أى طبيب مصرى . فهو يعرف واجبه وهو متمسك بأداء الواجب : والمرضى يفضلون الأطباء المصريين لأنهم أكثر أدبا وصبرا واحتراما لمرضاهم .

سألت طبيبا مصريا قال : إن د . سليمان فقيه نموذجى فهو ليس صاحب عمل ولكنه قدوة لكل صاحب عمل ولكل طبيب . ونحن نشعر به دائما معنا فى أى وقت وفى أى مكان . . وهو لايكاد يستمع إلى مشكلة حتى يجد لها حلا سريعا .

فما هو سر نجاح د . سليمان فقيه ؟

التواضع الشديد والصبر والاستمرار وأنه لايجلس واضعا ساقا على ساق فى مكان آخر من السعودية أو من الريفيرا الفرنسية وينتظر الأموال تجىء إليه . . إنه هناك وليس وحده بل إن ابنه طبيب فى المستشفى وابنته أيضا فهو مستشفى عائلى أو هى عائلة أقامت مستشفى وجعلت كل العاملين أعضاء فى هذه الأسرة .

ونظرت حولى فوجدت أن المستشفى الذى يملكه أو يديره صاحبه هو المستشفى الذى ينجح لأن المستشفى جزء من صاحبه ونجاحه نجاح له . . ولكن نجاح د . سليمان فقيه هو مثل الماء السلسبيل العذب الذى يروى وينعش ويملأ النفس بالرضا ويدفعها إلى المزيد !

(٢)

عرفت الصديق المهندس محمد سعيد فارسى . . حضرت مناقشة رسالة الدكتوراة التى حصل عليها من جامعة الإسكندرية ،لقد كان الحاضرون قليلين ، وكان يجلس إلى جوارنا فى الصف الأول الممثل الكوميدى أحمد بدير . . الذى انطلق بسيارته بعد المناقشة عائدا إلى القاهرة .

وأعجبنى كلام د . سعيد فارسى وإن كنت لم أستوعب تماما كل الذى قال ، فهو مهندس عنده خيال وعنده ذوق فنى بديع ، وهو يتخيل ويتصور وقادر على أن يصنع لوحات على الأرض وعلى الجدران وأن يجعل القبيح جميلا ، والفارغ مليئا بالمعانى . . وأنه يؤمن بأن الجمال يمكن غرسه فى النفوس لا عن طريق الكتب فقط . . ولكن عن طريق النماذج التى نختارها والتى يراها الناس ذهابا وإيابا . حتى تصبح هذه الأعمال الجميلة جزءا من منظورهم اليومى ومن طعامهم ومن شرابهم ، فإذا ترسخ الذوق الجميل عند الناس ، كان سهلا أن ينقلوه إلى أولادهم . . ثم إذا أصبح الذوق الجميل والفن الرفيع من مقتنيات الناس فمن الصعب أن يحبوا القسوة والعنف لأن الفن يدعو إلى الحياة ، والفن الجميل يدعو إلى السمو والرحمة وحب الحياة . . حبا لحياتنا وحياة الآخرين وحياة النبات والحيوان ، فالفن يدعو إلى السلام بين الناس ـ كلام حلو . حتى رأيت مدينة جدة التى كان د . سعيد فارسى مسئولا عن عمارها وجمالها .

ورأيت مالم يخطر لى على بال ، بل رأيت مالم أره فى أمريكا نفسها . لقد أقام د . سعيد معرضا . . متحفا دائما على كورنيش

مدينة جدة . . لقد أعاد تخطيط ورسم الكورنيش الذى لم أر له مثيلا فى أى مكان . . لقد أقام على الكورنيش أكبر متحف للتماثيل من الحجارة ومن الحديد . . ومن فنون حديثة جدا وفنون شعبية وفنون رمزية من التماثيل ومن أدوات البيت ووسائل الانتقال . . شىء عجيب وجرىء كيف استطاع ذلك ؟ كيف سمحوا له بذلك ؟ كيف اعتاد الناس على ذلك ؟ كيف أحبوه ؟ كيف يفخرون به ؟ كيف نجح ؟

كيف مضى فى نجاحه ؟ كيف رضى عنه الناس ؟ كيف أقنعهم؟ كيف اقتنعوا واعتادوا على ذلك ولديهم استعداد فى كل المدن السعودية الأخرى أن يقيم لهم مثل هذا المتحف الجميل . . كيف أقام فى أكبر ميادين جدة دراجة بعجلات كبيرة جدا كيف أقام فى الميادين آنية للشاى والقهوة ضخمة . . ما المعنى ؟ المعنى أن هذه الأدوات أكثر جمالا إذا انتقلت إلى ميدان ضخم هى ضخمة . المعنى : أنه فى استطاعة أى انسان أن يتذوق ما يعتاد عليه ، وأن يعتاد على الذى يتذوقه . . مع أن العادة تقتل الإحساس بالجديد . . ولكن استطاع الفنان المهندس د . سعيد فارسى أن يقنع الناس بفلسفته فى تذوق الجمال فى الحياة . . أبسط ما فى الحياة !

كيف نجح الفنان المهندس د . سعيد فارسى فى أن يطلع على الناس بشىء غير عادى . . شىء غير تقليدى . . غير مألوف ؟

لقد نجح بأن عرض الفكرة عرضا جميلا دون أن يؤذى شعور الناس . . وإنما قدم لهم روائع الفن العالمى وروائع الفنان العربى كل ذلك فى شارع واحد . . حتى العمارات والفلل كانت من تصميمه أيضا . . ووفقا للشروط التى ألزمت الجميع .

وإن كان هناك الآن خروج ونشوز عن فلسفته الجمالية ، فقد ظهرت المبانى على البحر مباشرة . . تفسد الجمال الطبيعى والجمال الفنى الذى يحترمه ويتحنى له ويحنو عليه . وعلى الرغم من أن الإدارة المعمارية فى جدة قد سمحت بهذه النتوءات المؤذية للفن وللذوق فإن الناس يرفضون ذلك ، لماذا ؟ لأنهم عاشوا فى ظل فلسفة جمالية راقية .

وصاحب هذه الفلسفة هو مواطن سعودى فنان هو د . سعيد فارسى . أما أعجب ما سمعت عن القبح والقذارة التى أصابت مدينة الإسكندرية سمعت من د . سعيد . . لأنه عاشق للإسكندرية وعارف لكل شوارعها وحواريها . . وهو حزين بسبب ما أصابها .

آه لو كان الأمر بيدى لفتحت الإسكندرية صفحة أمام الفنان الصديق المحب لبلادنا وعلمائها د . سعيد فارسى ليفعل بها ما فعله فى مدينة جدة . وعندما كنت أستمع إليه فى تنقلاته فى شوارع الإسكندرية وحواريها وكورنيشها الضيق أعترف بأننى لا أعرف معظم هذه الأسماء والأماكن فصلتى بالإسكندرية سطحية جدا . . لا أذهب إليها - إذا ذهبت - إلا لبعض الوقت . . أسبوعا على الأكثر . . ولايكون ذلك فى المدينة وإنما فى قراها السياحية . . أراها من بره . . بره أما هو ففى قلبها وهى فى قلبه أيضا . . ولذلك حزنه أعمق وألمه أعنف ودهشته من سكوتى على ذلك أعجب .

فالنجاح : أن تعمل المستحيل ويكون باهرا وأن تكون قدوة للآخرين !

هزيمة لأمريكا ..

هناك حدث علمى رائع قد زلزل أنجح وأقوى دولة فى العالم أمريكا :

الحدث هو أن الروس أطلقوا أول جسم يدور حول الأرض .. تابع للأرض وباللغة الروسية يسمونه «اسبوتننك» أى تابع قمر صناعى يدور مثل القمر الطبيعى حول كوكب الأرض ، وكان مفاجأة للدنيا كلها . المفاجأة هى أن روسيا سبقت الدول الرأسمالية فى الوصول إلى الفضاء الخارجى .. وبعد ذلك أطلق الروس قمرا يحمل أول كلبة .. الكلبة لايكا التى دارت وماتت فوق .. وكان نعشها يدور حول المشيعين لها فى القارات الخمس .. ثم أطلق الروس أول إنسان جاجارين إلى الفضاء الخارجى .. ودار جاجارين حول الأرض وهبط سالما لينتقل بين عواصم الدنيا دليلا على نجاح الفلسفة الشيوعية فى إطلاق خيال العلماء وإبداعهم إلى مالا نهاية .. وأن تسبق الشيوعية العلمية كل أحلام الدول الرأسمالية وفى مقدمتها أمريكا .

كان زلزالا عنيفا .. هز أمريكا و«هزأها» أيضا .. وأحس الأمريكان أنهم لا أسياد الدنيا ولا حاجة وأن علومهم وعلماءهم كلها مكسحة لاتقدر على الارتفاع فوق الأرض !

إنها أكبر هزيمة لأمريكا وأعظم انتصار للشيوعية ، وعلى الرغم من أنه لايوجد علم شيوعى وعلم رأسمالى .. وأن الحقائق العلمية لا دين لها ولا وطن فإن التطبيق العملى هو الذى له لون سياسى واقتصادى .. فقد وجهت روسيا كل قدراتها المالية إلى الفضاء

الخارجى وإلى تطوير السلاح .. فهم اخترعوا أخطر الأسلحة الحربية ولكنها لم تقدم للمواطن فرنا أو ثلاجة أو سيارة جيدة أو رخيصة .. وإنما ألوف الملايين اتجهت إلى الفضاء للدعاية وللتفوق على الرأسمالية الغربية !

وفى ذلك الوقت كان الكونجرس الأمريكى قد اعترض على مشروع تقدم به العلماء الألمان الذين أسرهم الأمريكان ورحلوهم إلى أمريكا ، وهم مجموعة الصاروخ «ف ـ ٢» الذى اخترعه فرنر فون براون .. وكانوا قد تقدموا باختراع صاروخ قادر على حمل أى شىء إلى الفضاء الخارجى ، وعندما انطلق الروس يفضحون الأمريكان حول الأرض ، وافق الكونجرس على المشروع الألمانى ، ولم يمض سوى شهور حتى انطلق الصاروخ الألمانى .. ومن بعده صاروخ ومن بعده إنسان وانطلقت العبقرية العلمية الأمريكية وتسابق الرواد إلى الفضاء وإلى المشى فى الفضاء يصلحون سفن الفضاء .. وأرسل الروس إنساناً آليا إلى القمر .. ولكن الأمريكان أرسلوا اثنين إلى القمر والثالث يدور حول القمر فى انتظارهما ليعود بهما إلى الأرض .. ونزل رواد آخرون على القمر .. وانطلقت سفن الفضاء الأمريكية إلى الكواكب الأخرى فى المجموعة الشمسية .. وأخيرا دارت سفينة فضاء حول كوكب المشترى على مدى ٦٠٠ مليون كيلومتر من الشمس وسوف يبقى هناك سنتين .. وانطلقت سفن فضاء أخرى إلى خارج المجموعة الشمسية كرسالة من سكان الأرض إلى الكائنات الأخرى ـ إن كانت هناك ..

وفى العام الماضى أعلن الرئيس كلينتون أنه مهموم جدا .. لماذا يا سيادة الرئيس ؟ لأن اليابان قد تفوقت على أمريكا فى كل

شىء ، وأن الخطر الذى يهدد أمريكا فى كل الأسواق هو الإبداع الياباني الذى لايعرف حدا . . ولايعرف نهاية . . ولن يتوقف ، فالسيارات كما يقول كلينتون تهدد السيارات الأمريكية وتوقف حالها . . وكذلك فى الألكترونيات ، ثم إن هناك جواسيس لليابان فى كل الصناعات الأمريكية وليس أمام الأمريكان إلا التعاون مع اليابانيين حتى لايخرجوا بيوتهم - بيوت الأمريكان ، وانتقل اليابانيون إلى غزو أمريكا بالاختراعات وإلى شراء الشركات الكبرى فى الصناعات وشراء شركات السينما أيضا .

ولكن المشكلة كما أعلن الرئيس كلينتون وسط عمال السيارات فى مدينة دترويت هى أن قدرة الأمريكان على الاختراع والإبداع قد انحسرت فأمريكا ليست مطالبة بأن تتقدم وإنما بأن تتفوق ، فأمريكا اعتادت على قيادة العالم نحو الحرية والتسامح والنجاح عن طريق الإبداع !

وقبل ذلك أحس رؤساء أمريكا أن هناك خللا فى التربية والتعليم ، وأن هذا الخلل هو الذى سحب الأمريكان من منافسة اليابان وألمانيا ، واكتشفوا أن الخلل هو فى برامج التعليم ، وأن البرامج عاجزة ، وأن الطلبة ينصرفون عن الدراسة مشغولين باللعب والرقص . وهم يفضلون السندوتش إذا أكلوا ويفضلون الكتب السندوتش إذا قرأوا . . معلومة من هنا ونكتة من هناك . . فالسندوتش ليس طعاما لذيذا ، وإنما هو سد حنك سريع لقد انتهى عصر المآدب أن يجلس الناس ويأكلوا على مهل ويستمتعوا بتذوق الطعام . . وكذلك فى القراءة .

إذن لابد من إعادة القراءة الجادة . . إعادة الكتب والبحث العلمى وإلا تحول المواطن الأمريكى إلى أراجوز أو ممثل كوميدى

مهرج همجى مشغول طوال الوقت بالبنت التى يحبها . . بينما اليابانيون صاعدون متقدمون متفوقون مكتسحوا الأسواق فى العالم وفى أمريكا نفسها .

ووجد الأمريكان أيضا أن «المدرس» هو المشكلة فليس مؤهلا ولا مدربا ولا راضيا عن مرتبه الشهرى فكيف يخلق الرضا والتقدم بين الطلبة ، ولذلك أصلحوا حال المدرس والمدرسة والبرامج التعليمية . . أما الذى عجزوا عنه فهو أن يكون للأب والأم دور فى تربية الأولاد . فقد تركوا ذلك للخدم الزنوج الكارهين للبيض والمجتمع الأمريكى وهم يرضعون الأطفال البلادة واللامبالاة والحقد على أنفسهم وعلى والديهم .

إن أنجح دولة فى الدنيا تشكو من خوفها من الفشل أمام الشعب اليابانى وهم لم يكتفوا بالشكوى بل ذهبوا إلى الإصلاح والعلاج فورا . . ولايزالون !

اليابان دائمًا !

لابد أن نتحدث دائما عن نجاح اليابان . . لأنها الدولة النموذجية فى التاريخ الحديث . . دولة آسيوية متخلفة فقيرة . متخلفة علميا ، وفقيرة ليست عندها موارد طبيعية . فهى فى حاجة دائما إلى الغير . . وأن تحصل على الذى لدى الغير بالقوة العسكرية أو القوة الاقتصادية . ولكى تكون لها قوة عسكرية ، لابد أن تكون عندها قوة علمية ، وأن تكون وراءها قوة اقتصادية . وأن تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . . إلى نصر . .

واليابانيون يندهشون من كلامنا المستمر عنهم ومن النظر إليهم على أنهم معجزة علمية . . أى أنهم المستحيل . وأصبح المستحيل ممكنا مع أن اليابانيين لايرون ذلك . . فهم أناس عاديون . عرفوا ماذا يريدون . ثم اتجهوا إليه .

مع أنه ليس أصعب من أن يعرف الإنسان نفسه . ويعرف ماذا يريد . ثم يعرف كيف يحققه . وكان أستاذنا سقراط يدعو تلامذته فى كل العصور إلى أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم . وأن المعرفة هى بداية العلم ـ والعلم قوة .

وكان أستاذنا أرسطو يقول : إن الدهشة هى بداية المعرفة . أى الإنسان يندهش لما يراه ويسأل ويحاول أن يفهم . وسوف يعرف ويفهم مادام يندهش للأشياء وحدوثها وتركيبها وتغيرها . وكل العلوم بدأت هكذا . فالعالم البريطانى نيوتن اندهش عندما رأى تفاحة تقع على الأرض . . مع أن الثمار كلها تقع على الأرض

وكل الأشياء المادية . . تسأل لماذا ؟ وكيف وعلى أى أساس . . ومن هذه الأسئلة البسيطة استطاع أعظم العقول العبقرية أن يكتشف قوانين الجاذبية بين الأشياء على الأرض والكواكب والنجوم فى السماء . والبداية هى أنه اندهش حتى علم وعلمنا أيضا !

فالذى رآه اليابانيون سهلا ، ليس سهلا . ولكنهم أدركوا فى بساطة شديدة حقيقتهم . وكان ذلك الإدراك فى منتصف القرن الماضى . . لا بأن رأوا تفاحة تسقط من شجرة . . ولكن بأن رأوا الأسطول الأمريكى واقفا فى ميناء طوكيو . . رأوا سفينة عليها مدافع ـ وكان ذلك لأول مرة . . رأوا جنود البحرية الأمريكية بملابسهم البيضاء . . ورأوا سفنا عائمة من العلم والتطبيق . . أنها البارجة الأمريكية التى تطلب توقيع اتفاقية بين أمريكا واليابان لكى توافق اليابان على تزويدهم بالماء أو الطعام أو الدواء وأن تتعهد أمريكا بنفس الشىء للسفن اليابانية . ولم تكن هناك سفن يابانية .

هذا هو الحادث الزلزال . .

وكان أمامهم موضوع خطير : أين نحن ؟

وكان الجواب : نحن جاهلون فى آسيا . ولكن تريد أن تتعلم ويجب أن تتعلم وسوف تتعلم !

واجتمعوا عشرين مرة . واتفقوا على أن الغرب هو الذى يجب أن يعلمهم . كيف ؟ بأن يذهب عشرة منهم إلى أوروبا وأمريكا ويعرفوا كيف تقدمت هذه الشعوب . وفى أى شىء . . وكيف يمكن أن يتعلم اليابانيون فى أسرع وقت .

قالوا لأنفسم : نحن جهلة . ويجب أن نتعلم . وأن نتعلم من الغرب . وبسرعة . وسوف نتعلم . وسوف نتقدم . وسوف نعتمد

على غيرنا أولا . . ثم على أنفسنا . وسوف نوالى العلم والتقدم سرا دون أن يلاحظ ذلك أحد من جيراننا الذين هم أعداؤنا - انتهى القرار اليابانى والفلسفة اليابانية والعزيمة التاريخية .

فذهب عشرة إلى أوروبا وأمريكا وعادوا - تماما مثل العشرة الذين أرسلهم موسى - عليه السلام - وهو على حدود أرض كنعان ليعرف سكان هذه الأرض . فعاد العشرة وهم يؤكدون أن أرض كنعان - أى الأراضى الواطئة - هى أرض اللبن والعسل . . لبن يعنى بها حيوانات كثيرة ، والعسل لأن فيها حدائق وفيها زهور يمتص رحيقها النحل . .

عاد اليابانيون العشرة . وعكفوا على الدرس والبحث والتحليل وكانت لهم عشرون جلسة سرية . وخرجوا بخطة بسيطة واضحة جدا - هى البداية الحقيقية للانطلاق العلمى والإبداعى الذى لم يتوقف إلا عندما ضربها الأمريكان بالقنابل الذرية وبعدها انطلق العملاق اليابانى يضرب أمريكا فى مصانعها وفى أسواقها وشركاتها . . وليست أمريكا فقط ولكن أوروبا أيضا . . وإذا نزل الأمريكان مرة أخرى على كوكب بلوتو أبعد كواكب المجموعة الشمسية فسوف يجدون اليابانيين هناك يبيعون الأرز الذى يقطعونه بالسكين !

أما قرار اليابانيين العشرة فهو : إن يأتوا بالإنجليز لكى يعلموهم بناء السكك الحديدية والمواصلات . . ويأتوا بالفرنسيين ليعلموهم وضع الدستور والقانون . . وبالألمان ليعلموهم صناعة الأدوية وبناء المتشفيات . . وبالإيطاليين ليعلموهم الرسم والموسيقى . . وبالأمريكان ليعلموهم بناء المدارس ووضع البرامج التعليمية . هذه هى (الوصفة) البسطة للتقدم اللانهائى فى اليابان . .

وجاء العلماء الغربيون إلى اليابان وعلموا المئات . . ثم الألوف فى سنتين . وعادوا إلى بلادهم . ولتقفل اليابان الأبواب والنوافذ وليعكفوا على تعليم الشعب اليابانى كل الذى تعلموه من الأوروبيين والأمريكان .

ووقع حادث واحد هز الدنيا كلها . فقد عرف العالم أن اليابانيين تعلموا وأتقنوا الذى تعلموه . فقد ضربوا الأسطول الروسى وتغلبوا عليه ـ أكبر مفاجأة فى أوائل القرن العشرين .

ولم يتوقف نجاح الشعب اليابانى : بعلمائه ومهندسيه ومخترعيه . ولم يحتج الشعب اليابانى ولا الألمانى إلى معجزة أو وصفة سحرية . لأنهم يحملون المعجزة فوق أكتافهم : فى أدمغتهم . . فالدماغ هو أعظم كنز عند الإنسان . ومن هنا يبدأ النجاح والفشل أيضا !

أين الخطأ ؟

ألمانيا وهى أم الاختراع والتفوق العلمى والفلسفى والموسيقى فى الحضارة الغربية ، كانت لها مشكلة مدهشة - أدهشتنا . فقد ظهر المستشار الألمانى هيلموت كول يعيب على الشعب الألمانى أنه لم يعد ناجحا متفوقا فى مجال الاختراع . لقد تخلف كثيرا . وضرب مثلا لذلك أن براءات الاختراع فى سويسرا قد بلغت فى عام ١٩٩٤ حوالى ٣٥١٤ اختراعا . بينما ألمانيا سجلت ٢٨١٤ فقط !

وأعلن : أن هذا الانهيار والتخلف لم تبلغه ألمانيا فى أى وقت من الأوقات . وأن هناك خطأ ما . وهذا الخطأ يجب أن نعرف مكانه وأن نعالجه فورا . . تماما كما يحدث حين تصاب سفينة بخلل . فلابد من إصلاحها وهى ماضية فى طريقها . وقال : لن نتوقف لأى سبب . والذين توقفوا انقرضوا وماتوا بعد ذلك . وألمانيا لم تولد لتموت وإنما لتكون فى مكانها الطبيعى : فى القمة !

وقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أن تنافس الروس والأمريكان على خطف العلماء الألمان . . فخطف الروس عددا كبيرا . وكذلك الأمريكان . والنكتة تقول : أن قمرا روسيا التقى بقمر أمريكانى . والأمريكى لايعرف اللغة الروسية والروسى لا يعرف الانجليزية فقال أحدهما للآخر : فى استطاعتنا أن نتكلم الألمانية !

وكان لابد من البحث عن الخطأ . . أين هو : فى البيت فى المدرسة فى الجامعة فى الشركات فى المصانع . . فى التليفزيون .

لقد وجد الألمان بعد الحرب مباشرة أن الشباب الألمانى منهار يائس . . فالاحتلال الأمريكى كان طويلا والبهدلة للشعب الألمانى

مستمرة فى التليفزيون الأمريكى والأفلام الأمريكية . وقوات الاحتلال الأمريكى والبريطانى والفرنسى والروسى قد حطمت كل شىء . . كما أن قوات الحلفاء إلى جانب خطف العلماء الألمان ، قد فككوا المصانع ونقلوها إلى بلادهم . .

وكان الهدف هو تخريب ألمانيا ووقف نموها . . وتأديب وتهذيب الشعب الألمانى الذى أشعل حربا أهلكت خمسين مليونا من البشر !

ولم يستطع الحلفاء أن يقضوا على كل العقول الألمانية المبتكرة والمبدعة . فبسرعة انتفض العملاق الألمانى واقفا متقدما متطورا غنيا متفوقا على الدول الأوروبية وعلى أمريكا أيضا .

وكان الشباب الألمانى قد وقع تحت جاذبية الحياة الأمريكية التى تختلف تماما عن الحياة التقليدية للشعوب الجرمانية . التى تقوم على الانضباط الشديد وأداء الواجب .

وفوجئ الألمان بأن الشباب يضع ساقا على ساق فى حضرة الأب ، وأنه يدخن ويرقص ويلقى بالكتب من النافذة ويمضغ اللبان فى الفصل . . ولم يعد يهتم بالنطق الألمانى الصحيح . . وإنما يحشر الكلمات الأمريكية فى لغته . .

أما بعض المصانع فقد أعادت نظام الضرب للعمال الذين يتدربون لابد من النظام . وألمانيا لم تقف على قدميها عملاقة إلا بالنظام والانضباط والتضحية بكل شىء من أجل الواجب نحو البيت والمصنع والشركة والواجب نحو الدولة . وقد سئل أحد الفلاسفة الألمان عن سرق تفوق الشعب الألمانى فأجاب : إننا قبل أن نذهب إلى الجامعات نمر بالثكنات !

أى نمر بالانضباط العسكرى والنظام والطاعة !

وسئل فيلسوف آخر فكان جوابه : إن المواطن الألمانى يشعر بالأمن تماما إذا انحنى احتراما لكل الذين من حوله خصوصا الذين يتقدمون فهو يحترم العلم ويحترم العلماء أكثر !

وبعد الكلمة الموجعة التى سددها المستشار الألمانى كول إلى علماء ألمانيا وأدبائها وفنانيها نشط الباحثون عن الخطأ والخلل فى الحياة الاجتماعية والعلمية للشعب الألمانى . وكل عالم أعلن أنه قد وجد الخلل . . واختلفت طرق العلاج . ولكن الخلل الذى وجدوه . . واحد واضح تماما !

وهو أن يعود الشعب (ألمانيا) كما كان . . وأن يرفع رأسه عاليا . فالهزيمة التى أصابت ألمانيا ليست جديدة فلا يوجد شاب طموح لم يلق هزيمة . وهى هزيمة عسكرية . وليست علمية . وهى هزيمة سياسية وليست فلسفية ولا أدبية ولا فنية ولا هى هزيمة موسيقية . . ويكفى أن يجلس أى ألمانى ويسترجع تاريخه القريب . . مئة سنة . . مئتى سنة فسوف يجد أن عباقرة الدنيا يعيشون فى ألمانيا . . وأن عجلات التاريخ تجرها خيول ألمانية . . ويقودها عباقرة ألمان . وأن الشعب الذى أخرج هؤلاء الممتازين ، لايزال قادرا على أن يأتى بغيرهم . . وقد استطاع . ليست ألمانيا بلا رؤوس عبقرية . ففيها كثيرون . ولكن المطلوب أكثر وأكثر .

إذن ماذا يمكن عمله ؟

يجب أن تعود التربية الوطنية إلى مكانها الرفيع فى المعاهد وفى البيوت . فالعظمة تبدأ فى البيت . وتكمل مسيرتها فى المدرسة والمعامل . كانت كذلك وسوف تبقى كذلك !

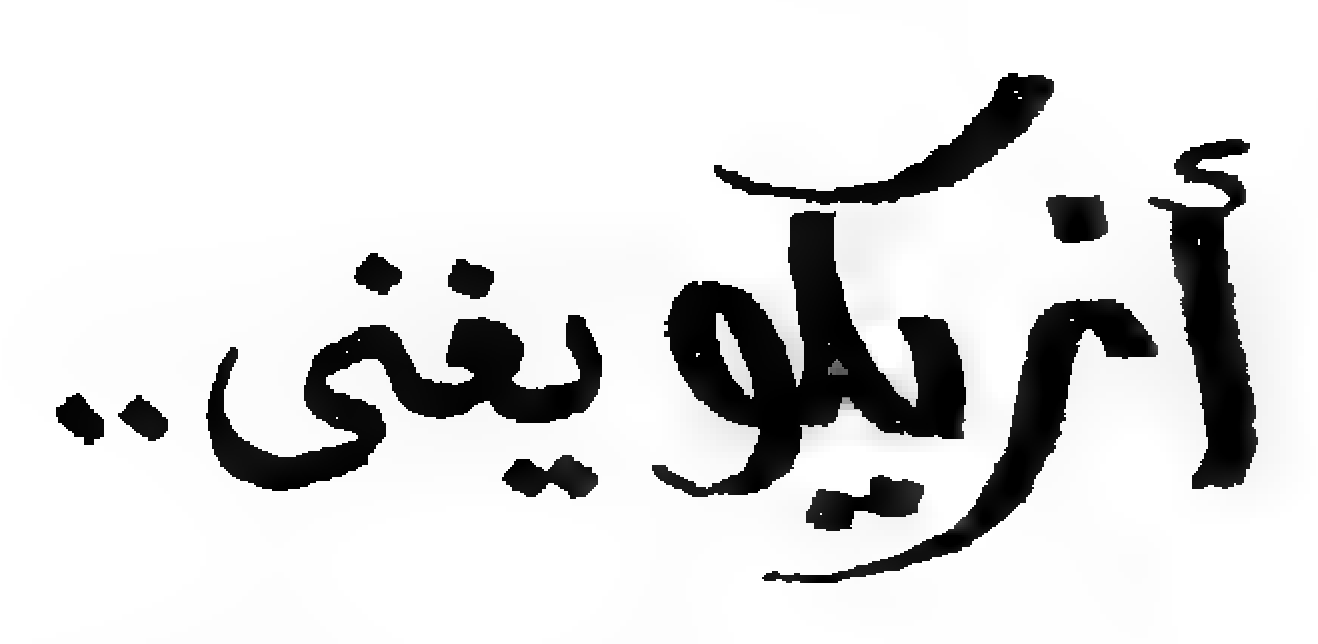
وظهرت فى ألمانيا مئات الكتب والأفلام ترفع عن كاهل الشعب الألمانى مرارة الهزيمة العسكرية وشماتة الصديق والعدو . .

وألمانيا لم تنهزم بالوقوع من أعلى السلم . . ولكنها تقدمت واكتشفت واتسعت الأرض تحت أقدام رجالها . . فكان من الصعب عليهم احتواء هذه الدول والشعوب التى استولت عليها . . فهى كالذى وجد أمامه كتلا من اللحوم كلها كبيرة . . وليس فى يده شوكة ولاسكين ليقطعها أربا أربا حتى يسهل عليه ابتلاعها ومضغها ثم هضمها بعد ذلك . . هذا ما حدث .

وتستطيع ألمانيا ـ كما استطاعت دائما ـ فى مجال العلم والفلسفة والموسيقى أن تعود إلى ريادة الدنيا . .

وكان لابد أن تفعل شيئا هائلا يجعلها تنسى . . ويجعل تاريخها الماضى القريب يتبدد فى الظل وفى النسيان . .

ياليتنا نتعلم ـ نحن أيضا ـ من هذه الهزيمة الوطنية لنمحو عار الهزيمة العسكرية والنفسية والقومية فى سنة ١٩٦٧ بانتصار أكتوبر والسلام بعدذلك . . المصيبة أننا لم نستطعم النصر ولم نستمرئ السلام ولم نتفوق على أنفسنا فى أى مجال . . ومادام حالنا هكذا ، فسوف يبقى إحباطنا وشعورنا بالفشل طويلا لا حتى بداية القرن القادم ، وإنما حتى نهايته ـ يا أسفى !



واضح جدا أن السلام تتسع أبعاده وغدا تتعمق فى الشرق الأوسط . وكانت مصر هى البداية . فبعد انتصارنا فى حرب أكتوبر أصبح من الممكن أن نقول وأن نجد من يسمعنا . وقبل ذلك ، أى بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ ما كان لنا الحق فى أن نقول . . أو كان لنا الحق فى أن نقول ولم يكن لنا الحق فى أن نطلب من أحد أن يسمعنا . لأننا مهزومون مقهورون وأننا فشارون نقول كلاما كثيرا فارغا .

وكان لابد أن نفعل شيئا نسترد به احترام العالم لنا . وتصديقه لما نقول . فليست مصر والدول العربية موتى والموتى لايتكلمون . وكان انتصار مصر والدول العربية موتى والموتى لايتكلمون . وكان انتصار مصر فى حرب أكتوبر . وهذا الانتصار ملحمة علمية وعسكرية . ويكفى أن نرجع بذاكرتنا إلى سنة ١٩٧٣ وإلى ما قيل هناك فى كل مكان . خاصة الذى قيل أن أحداً لم يكن يتوقع لمصر أن تفعل شيئا . فقد قال جنرالات الحرب فى إسرائيل ، إن مصر جثة هامدة ، ولا يحيى الموتى إلا الله . . ولم نكن موتى ، وإنما كنا أحياء نفكر كيف ننتقم وكيف ننتصر ، وانتصرنا .

أما الخطوة التالية فهى أن نستثمر هذا النصر العسكرى سياسيا . فنحن لانريد أن نخرج من حرب لندخل حربا ، فقد خرجنا من حرب ١٩٤٧ و٥٦ و٦٧ .

وكانت النتيجة ما عرف ونأسف عليه . . ولكن نريد أن نؤكد أننا نريد السلام من وراء هذه الحرب ، وكذلك فعلت كل الشعوب

فى أعقاب الحروب ، الحرب السبعينية ١٨٧٠ والحرب العظمى الأولى ١٩١٤ والعظمى الثانية سنة ١٩٣٩ .

ولكن لا أحد يعرف كيف تكون الخطوة نحو السلام ، من الذى يخطو ومن الذى يبدأ ، وكانت الخطوة الأولى لمصر ولأنور السادات ، وعندى أنا شخصيا حكايات كثيرة عن هذا القرار وكيف اتخذه السادات وكيف طلب منى أن أعلنه وأن أكتبه وكيف أنقله إلى وسائل الإعلام فى إسرائيل . . الخ .

ولم نتصور حتى ونحن فى الطائرة مع الرئيس السادات إلى إسرائيل ، أن هذا شيء ممكن . . أنه ليس حلماً . . الخ ، القضية الطويلة ذات التفاصيل الرهيبة العجيبة ، ثم كان خطاب الرئيس السادات فى الكنيست ذلك الخطاب التاريخى الذى اشترك فى إعداده وصياغته المرحوم موسى صبرى وبطرس غالى وأنا ، وفى هذا الخطاب قال السادات كل الذى كان يقوله فى مصر ، أثبت حق مصر وحق الشعب الفلسطينى ، وأنه جاء يطلب حقا ولايستجدى حقا . .

وتوقفت الكرة الأرضية تتفرج على العدو الأول لإسرائيل وهو يهبط من طائرته ليصافح كل زعماء إسرائيل واحدا واحدا ، سألت الرئيس السادات . . كيف كان شعوره ؟ فكان جوابه نوعا من الصوفية والشعر . . وسألتنى جولدا مائير وسألنى ديان وشارون بالضبط كيف كان شعور الرئيس السادات فى الطائرة وعندما نزل ثم بعد ذلك . . قلت كلاما واقعيا ولكن له مذاقا ورنينا وأجنحة الطيور الأسطورية . .

وتركنا الدنيا كلها تقول وتصف وتتغنى بالرجل الملهم صاحب النظرة البعيدة أنور السادات . . فقال الفيلسوف الوجودى سارتر أن

خطوات السادات ليست خطوة ولكنه قرار حاسم تم تنفيذه قبل أن يبدأه ، وأن أمثاله فى التاريخ نادرون . . وسمعت المطرب الجزائرى اليهودى أنريكو ما سياس يغنى للسادات جالسا على شاطىء قناة السويس فى جزيرة الفرسان ورأيت والد أنريكو والدموع فى عينيه يقول للسادات إن الجلوس إليك والسلام عليك واجب مقدس لأنك أنقذت شعبى ، وأنقذت الملايين . . ورأيت سيدة يهودية تقول للرئيس السادات : إننى طلبت من الله أن يأخذ دقيقة واحدة من عمر كل يهودى ويضيفها إلى عمرك ، وأخرجت الحاسب من جيبها ، فأضافت إلى عمر السادات ٩٧٢٢ سنة !!

وكان السادات سابقاً لزمانه ، رأى مالم نر ، وعرف مالم نعرف ، وحقق السلام الذى لم نعرفه ولم نعش فيه ، فتطاولت عليه ألسنة العرب وأسلحة المصريين . . فاغتاله نفر من العسكريين المصريين فى عيدهم . . يوم ٦ أكتوبر .

انتهى كل شىء !

وفجأة ودون مقدمات معروفة لنا فى مصر ولأكثر الناس اتصالا بالقيادة الفلسطينية ، تم الاتفاق على كل شىء بين فلسطين وإسرائيل فى أوسلو عاصمة النرويج ، اتفقوا على كل شىء ، على كل الذى رفضوه عندما قدمه لهم أنور السادات فى خطاباته فى مصر وخطابه فى الكنيست وعندما رفع علم فلسطين فوق مينا هاوس إلى جوار علم مصر وإسرائيل وطلب إلى ياسر عرفات أن يجلس قريبا على نفس المائدة ويطلب ويشرط .

كل ذلك رفضوه وكل ذلك قبلوه فى أوسلو ، وقبلوا ألا يرتفع علم فلسطين لأن فلسطين ليست دولة ، وإنما إسرائيل ترفض العلم الفلسطينى وترفض أن يرتدى المفاوضون ملابسهم الوطنية ، لأنه ليس لهم وطن معترف به وليست لهم دولة - كل ذلك قبلوه !

وفوجئنا فى مصر وفى العالم العربى بأن عرفات وبيريز كانا سمنا على عسل ، وكان سلام وكلام وعناق وقبلات ، والذى حدث فى البيت الأبيض من مصافحة كان عملا مسرحيا .

وكان على ياسر عرفات أن يبرر ويفسر للعرب جميعا ، كيف أنه من وراء ظهورهم اتفق مع اليهود ، ولم يصارح العرب الذين وقفوا ودافعوا وماتوا دفاعا عن الحق الفلسطينى . .

وشعر الزعماء العرب بالحرج فراحوا يخترعون قصصا أمام شعوبهم بأنهم كانوا يعلمون ، وبأنهم . . والحقيقة أنهم لم يعلموا

ولم يشأ ياسر عرفات أن يأتمنهم على شيء ، فقد كانت هذه شروط إسرائيل للاستمرار فى المفاوضات والاتفاق على كل شيء .

وحتى لايبدو ياسر عرفات متساهلا متسامحا سألهم إن كان يقوم بحركة أو حركتين عند التوقيع ، فقالوا : لا مانع .

وظهرت أول حركة مسرحية فى القاهرة عندما انسحب أو كاد وأمسكه الرئيس مبارك وعنفه ، إذن لقد نجح ياسر عرفات فى هذا الأداء المسرحى .

أما فى آخر لحظات مفاوضات طابا فقد كان مسرحيا قريبا من الأداء الكوميدى ، فعندما كان يغضب ياسر عرفات كان يشتم باللغة العربية ويقول : ملعون أبو السياسة هو أنتم حتذلونا أكثر من كده !

ثم ينهض من مائدة المفاوضات وفى هذه اللحظات تدور موتورات السيارات فورا - كما هو متفق عليه - وبسرعة تنزل الحقائب من جناح ياسر عرفات . . ثم يعيدونه إلى مائدة المفاوضات ، حدث ذلك فى طابا سبع مرات !

وحتى فى البيت الأبيض كاد يتراجع عن التوقيع النهائى على الاتفاقية (٤٠٠ صفحة و١٨ خريطة وسبعة ملاحق) ولكن الرئيس كلينتون والرئيس مبارك وضعا عقل ياسر عرفات فى دماغه ، وانتهى فى واشنطن العرض المسرحى لرفض السلام المتفق عليه فى اوسلو !

فى آخر أيام طابا كاد شمعون بيريز أن يرتكب غلطة تؤدى إلى سقوط الحكومة ، فقد كان اليوم هو السبت ، وهو يوم لا عمل فيه - الدين يقول ذلك ، ونسى بيريز ذلك فطلب عقد مؤتمر صحفى فى الساعة الخامسة والربع ولكن نبهوه بسرعة أن غروب يوم السبت هو

الساعة السادسة و١٦ دقيقة ، ومن حقه فقط أن يقوم بأى عمل قبل غروب الشمس بساعة واحدة ـ أى الساعة الخامسة و١٦ دقيقة ـ فلو انعقد المؤتمر كما أراد الساعة الخامسة و١٥ دقيقة لسقطت الحكومة لأنه يكون قد ارتكب أكبر خطيئة فى يوم السبت !

وانتهى اليوم بسلام وتمت الموافقة على كل شىء . . ووافق مجلس وزراء إسرائيل وتم توقيع كلينتون وكوزيريف ورابين وياسر عرفات والشهود مبارك وحسين ووزير خارجية النرويج ووزير خارجية أسبانيا والدول الأوروبية وانفتحت صفحة جديدة على سوريا ولبنان ودول الخليج ، وقد بادر السلطان قابوس بالتطبيع مع إسرائيل .

ضحكنا على أنفسنا !

أين نحن المصريين ؟

هذا هو السؤال السهل البسيط ، ولكن الإجابة عنه ليست بهذه البساطة والسهولة . ولكن الإجابة السهلة عندنا هى أن (نلعن) آباءنا ونكتفى بهذا القدر . ونسكت كأننا قلنا شيئا .

ومن الغريب أن الذى يقول يسكت وأن الذى يسمع يسكت أيضا . فكأن هناك اتفاقات سرية بيننا : أن نشتم مصر وأن نسكت على ذلك . وإذا حاولنا أن نجيب أغرقنا أنفسنا نكتا . وتكون النكت سلاحا موجعا مضحكا . . كأننا (نزغزغ) أنفسنا بسكين . وقد اعتدنا على أن نفعل ذلك وأن نضحك . . واعتدنا على أن يتوقع منا الآخرون ذلك . . فلا يكاد أخ عربى يلقى مصريا حتى يقول : آخر النكت عندكم إيه ؟

وكل النكت عن مصر وشعب مصر . وأنا شخصيا واحد من الذين يصنعون النكت . وقد قلت نكتة عن الرئيس عبد الناصر وبعد ذلك كتبت مقالا ، كأن النكتة لاتكفى . وقد ترتب على ذلك أن فصلنى الرئيس عبد الناصر من عملى مدرسا للفلسفة فى الجامعة ورئيسا لتحرير مجلة (الجيل) سنتين فى الشارع أحاول الهرب فلم أفلح . .

وإذا ذهبت إلى المسارح المصرية فسوف تجد التعاون البارع بين المؤلف والممثل والمخرج على إضحاك المصريين على أنفسهم . . وإضحاك الأشقاء العرب علينا أيضا . والجميع يضحك على خيبتنا !

فليكن . فماذا بعد ذلك ؟

لقد قال أستاذنا أرسطو : إن جوهر المسرح الكوميدى هو أن نضحك على عيوبنا . . فإذا ضحكنا عليه أى فضحنا أنفسنا أمام أنفسنا ، عدلنا عنها . . أى أن الضحك علاج للأمراض النفسية والاجتماعية . ولكن الذى حدث غير ذلك . فقد اعتدنا على الضحك واسترحنا إلى ذلك . . وقد حدث فى عالم الحشرات شىء من ذلك فبعض الحشرات والفيروسات اعتادت على السموم فراحت تحصن نفسها ضدها . . وذلك بأن تغير نفسها تماما ، كما يفعل فيروس الأنفلونزا كل سنة . . ولم نغير أنفسنا كما فعلت الميكروبات من أجل أن تعيش . . إننا نعيش كما نحن بلا علاج !

ولقد ذهبت أنا إلى الرئيس حسنى مبارك فى بيته ونقلت إليه تقريرا أمريكيا لإنقاذ الطالب الأمريكى والشعب الأمريكى من الميوعة واللامبالاة والتخلف . . وقرأه الرئيس فى جلسة . . ثم أحاله إلى د . مصطفى كمال حلمى وزيرا لتعليم فى ذلك الوقت . . الذى قرأه . . وشرحه وقارن بين ما حدث فى أمريكا وما يحدث فى مصر . . هل قال إننا استشعرنا نفس الأزمة . لعله قال . . ولكن لم نذهب إلى أبعد من ذلك . وإن كان كل الوزراء المتعاقبين على وزارة التعليم يؤكدون أنهم وحدهم قد وجدوا الحل . يجوز . ولكن لم تجد أثرا لهذا الحل فى أى مجال . لا تقدمنا . . ولا استشعرنا أننا متخلفون فاشلون . .

ومادمنا لم نشعر بالفشل ، ونرى أن الفشل عار قومى ، يجب أن نخرج من شرنقته بسرعة كائنات جديدة ، فكأننا لا قرأنا ولا رأينا ولافهمنا ولاتقدمنا .

يبيعون الهواء !

أذكر أننا عندما ذهبنا إلى إسرائيل مع الرئيس السادات أن استدعانى عند منتصف الليل يسألنى عن الذى رأيت وعن الذى قاله شعب إسرائيل بكل فئاته عن الزيارة معناها وأثرها . رويت له . ثم أخرجت من جيبى علبة من الصفيح مكتوب عليها : هذه العلبة بها هواء من الأراضى المقدسة !

فصرخ السادات : يعنى اليهود يبيعون الهواء . . آه لو عرف العرب أننى أتفاوض مع أناس يبيعون الهواء . . وإن هذه المفاوضات صعبة جدا !!

وكتبت مقالا عن ذلك واتصل بى صحفى إسرائيل وقال لى : بعد أن ضحكت علينا الناس ماذا ستفعلون ؟

فقلت : بس كده !

فقال : بس كده . . وهذا سلوك مصرى صميم . . منتهى السلبية !

وسألته : هل عندك شىء آخر ؟

فقال : طبعا . . هات لى تصريحا من السادات وأنا أعمل لك حاجة تخرب بيت اليهودى الذى اخترع هذه العلبة . .

قلت : كيف ؟

فقال : أنا أعمل علبة أخرى ومثلها تماما وأكتب عليها : هذه العلبة بها هواء من مقبرة توت ـ عنخ آمون !

هذه هى سلبية مصر . . وهذه إيجابية إسرائيل . . وقفنا عند الإعجاب بالنكتة . . وهم لم يقفوا عند ذلك بل ذهبوا إلى ما هو أبعد . . وإلى المواجهة وفعل شىء !

إن البداية دائما وأبدأ هى التعليم التربية . . أو التربية فى البيت والتعليم فى المدرسة . . فإذا قررنا ذلك فلنرجع ـ كما فعل اليابانيون ـ إلى مناقشة مفردات هذه (الوصفة) العلاجية . . وإلى اتخاذ قرار واحد نهائى لا رجعة فيه ولا يتغير بتغير الأشخاص أو الظروف . وبالتصميم العنيد الحاسم نمضى إلى ما نريد . . فإذا لم يكن هذا الكلام واضحا فأرجو أن تعود إلى ما كتبته عن اليابان . . ويكفى أن أذكر لك حادثة واحدة وقعت لأحد علمائنا النابهين فى باريس : إنه رفاعة رافع الطهطاوى . فقد قال فى كتابه (تلخيص الابريز فى تلخيص باريز) . إنه رأى شيئا عجيبا فى ميدان الكونكورد فى باريس . والذى رآه أذهله فصلى ركعتين لله يطلب منه أن يجعل مصر تعرف مثل هذا الاختراع العظيم . أما الاختراع فهو : عربة الرش التى يجرها حصان وتفرغ من رش ميدان الكونكورد فى ساعتين . . بينما نحن فى مصر نستخدم الجرادل فى رش الميادين من الصباح إلى المساء .

وفى هذه اللحظة التى بهرت الطهطاوى كان عشرة من اليابانيين يبحثون فى أوروبا وأمريكا . . وقد رأوا ما بهرهم . واتخذوا قرارهم فماذا فعلنا ـ ماذا قررنا ؟!



ملايين المصريين يعملون فى الخارج فى السعودية «مليون ونصف المليون» . . وفى ليبيا مليونان وفى الخليج نصف مليون وفى العراق مليونان . . وفى الأردن نصف مليون وفى لبنان ألوف . . وليس فى سوريا مصرى واحد يبيع لبا ، بينما السوريون فى مصر بمئات الألوف دخلوا مع الوحدة ولم يخرجوا . فأهلا بهم فى وطنهم الثانى تجارا «شطارا» لطافا ظرافا . . يعنى إيه ؟

يعنى يجب أن نراعى أهمية أن يكون هناك مصريون يعملون فى البلاد العربية لا مجال لهم فى مصر . ولأنهم يخففون الضغط على موارد مصر وخدماتها ثم إنهم يبعثون إلى بلدهم مليارات الدولارات سنويا . وكان موقفا سخيفا من الحكومة المصرية أن تطاردهم بدفع الضرائب . وكان أحسن قرار للحكومة المصرية أن عدلت عن تحصيل أية ضرائب وأن ترد إليهم ما أخذته منهم . صح مائة فى المائة !

وقد شربنا الزفت والطين بسبب وجود مصريين فى العراق . فكانت حكومة العراق تبعث إلينا كل يوم بعدد من توابيت القتلى المصريين المضروبين بالرصاص بين العينين - أى أن موتهم لم يكن قضاء وقدراً ، وإنما كان اقتداراً وابتزازا وهوانا لمصر . وبلعنا كل ذلك من أجل ملايين المصريين ومئات الملايين من الدولارات التى رفضت العراق دفعها للحكومة المصرية وشركة مصر للطيران .

وشربنا القطران من المعاملة الليبية حيث التعامل مع المصريين أسوأ معاملة والامتناع عن دفع المرتبات لهم شهوراً . وقلنا إن وجودهم هناك ، مهما كانت الصعوبات أرحم من وجودهم عندنا فيتحولون إلى عاطلين . . إلى لصوص . . إلى ضحايا جماعات الإرهاب وتكفير المجتمع .

ونسينا ذلك كله ونحن نتعامل مع المملكة السعودية أقرب وأحب الدول إلى مصر كل مسلم . . وكتبت الصحف فى مصر ، وكتبت فى السعودية . وتطاير الشرر واحتدم الغضب . ولكن أحدا منا لم ينظر إلى الأحداث الصغيرة فى حينها . فيراها أوضح ويعرف حجمها ووزنها وضغطها على الضمير المصرى والسعودى . فكان ما كان . . وكلنا نعرف ماذا قلنا وماذا قالوا .

هناك أخطاء مصرية . . وهناك أخطاء سعودية . .

الأخطاء المصرية سببها : الحساسية الشديدة . فالمصريون ذهبوا إلى السعودية ليعملوا وأجورهم أعلى من أجورهم فى مصر ، ونفقاتهم أيضا . وليس من السهل عليهم أن يقال لهم ، لو كان فى بلادكم عمل ما جئتم إلى هنا !

والحقيقة ليست كذلك دائما . فهم ذهبوا ليعملوا لحاجة السعودية أيضاً إلى عملهم . أو إلى السلعة التى يبيعونها وهى خبرتهم كأطباء أو باعة أو مهندسين . وهم يعملون بشرف وذمة فى كل مكان . . ويكفى أن نسمع إلى ما يقوله د . سلمان فقيه صاحب مستشفى سلمان فقيه العالمية . أن حديثه عن الطبيب المصرى وسام يعلقه على صدورنا جميعا . وهو يذكر دورهم وفضلهم .

ويرى أن من بينهم أطباء عالميين . وأن واحدا قد اكتشف (فيروسا) فى الأسبوع الماضى وفى العام الماضى قبل أن يعرفه أى

طبيب آخر فى أوروبا وأمريكا . وهو سعيد بالأطباء الذين فى مستشفاه وهم ٩٥٪ من كل الأطباء . واستمع أيضا إلى الشيخ حسين القزاز صاحب أكبر محلات للعطور فى السعودية .

أن ٩٩٪ من العاملين عنده من المصريين . وهم فى غاية الكفاءة والأدب . ولاشكوى منهم . ويرى الشيخ حسين القزاز أن العامل المصرى ليس له نظير . . والموظفون المصريون يرون أنه كصاحب عمل ليس له نظير أيضا .

وهناك أخطاء فردية شخصية . . وليست سلوكا عاما . فالذى يقول للعامل المصرى : يا بتوع الفول . . يعنى أن الشعب المصرى يأكل الفول المدمس . وهذا صحيح ولايعيبنا . . كما أن الشعب السعودى لايعيبه أن يأكل الأرز بلحم الخراف . . والشعب الإيطالى لايعيبه أن يأكل المكرونة والألمانى أن يأكل البطاطس . واليابانى أن يأكل السمك الناشف . فنحن نأكل الفول الذى أخرج لنا العقاد وطه حسين وشوقى وأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفاتن حمامة ومحمود مختار ومجدى يعقوب ومئات الألوف من العلماء فى جميع مجالات العلم والاقتصاد والسياسة .

وهى حساسية شديدة . ولأنها كذلك فرد الفعل يكون مبالغاً فيه جدا . . وهو سلوك فردى وليس هذا ما يقوله كل الشعب السعودى . . ولا كل الشعب المصرى . كلام صغير فعلا صغير . ولكن أثره النفسى كبير . . وفادح !!

رأيت أبا الفلسفة!

عندك فكرة أين توجد جنة رجال الأعمال فى الدنيا؟ لم تكن عندى فكرة لكن أستطيع أن أحدثك عن جنة رجال الفكر والفلسفة والأدب فى هذه الدنيا هذه الجنة قد زرتها مرة واحدة فى حياتى ، إنها مدينة تيبنجن الألمانية أنها مدينة جامعية أو على الأصل أنها جامعة أقيمت حولها ومن أجلها مدينة من أجل الحياة الجامعية التى عاشها الفيلسوف العظيم هيجل وأمير الشعراء الألمان هيلدرلن كان لابد أن تكون لها مواصفات . . من أهم هذه المواصفات ألا تكون فيها ضوضاء . . فليست بها مواصلات من أى نوع وإنما الناس يمشون على أقدامهم . . لا عربات ولا سيارات ولا قطارات . فإن هذه الأصوات تزعج الفيلسوف والشاعر وطالبى الفلسفة ومتذوقى الشعر . .

صحيح أن الشاعر هيلدرن قد عاش ثمانين عاما من بينها أربعون فى مستشفى الأمراض العقلية . ولكن لم يحدث لأحد غيره ذلك .

ذهبت ، رأيت ، مشيت على قدمى . . وكان معى زميل الشباب فى ذلك الوقت د . عبد العزيز حجازى رئيس وزراء مصر الأسبق . . وكان المرحوم د . حسن عثمان الجغرافى والذى ترجم الكوميديا الإلهية وكان مراد كامل الذى يعرف ١٧ لغة وآخرون . .

وقد جلست أضحك فى حديقة اسمها «حديقة التاوهات» . . ويقال أنها سميت كذلك لأن الطلبة يلتقون هناك وهات يا حب . . وهات يا آه . . وهات ياتنهدات ، وقد أطلق عليها هذا الاسم الشاعر أولمان . . ولما مات الشاعر قام الطلبة بصنع تمثال له . وجعلوا

فى التمثال كل عيوب صناعة التماثيل ـ انتقاما من سخريته العنيفة من الطلبة العاشقين !

ومشينا فى شوارعها وأسعدنى ذلك . . ولكن لم أعرف مدى سعادة الناس هناك الحادث السعيد الوحيد الذى وقع لى هو أنى رأيت أبا الفلسفة الوجودية الألمانية مارتن هيدجر ، لم يطل حديثى إليه . . فقد كان مشغولا سارحا شاردا ، فكان نصيبى من فلسفته ومن استماعه لى واستماعى له قليلا جدا . . لقد جلست إليه ساعة . وكنت أتمنى ساعات وأياماً .

هذه هى جنة الفكر والفن : الجمال والهدوء والقدرة على الجلوس وحدى والتأمل .

أما جنة رجال الأعمال فهى قرية صغيرة فى المحافظة الشرقية رقم ١٨ بسويسرا القرية اسمها دافوس . وينطقها أهلها دافاو أو دافاوس باللغة الرومانسية . . وهى قرية صغيرة تحجبها الجبال ، وهى أحسن مكان لمرضى الرئتين وفيها منزلقات لمحبى الانزلاق وفيها مدارس لتعلم ذلك .

ودافوس قريتان وليست واحدة : دافوس دورف ودافوس بلاتس وهى على ارتفاع خمسة آلاف قدم من سطح البحر . . وعدد سكانها حوالى أحد عشر الفا .

والمحافظة اسمها «جرادبندن» بالألمانية وبالفرنسية جريزون وبالإيطالية جيريجونى وبالرمانش جيرمشون ومساحتها ٢٧٠٠ كيلومتر مربع وعلى صلة بكل الدول الأوروبية . . وقد اتخذت المحافظة هذا الاسم جراد أو حريزون ومعناه الرمادى فقد كان أهلها يرتدون الملابس الرمادية . . وقد كان لهم اتحاد اسمه الاتحاد الرمادى . . أو الرماديون . وهم يتكلمون الالمانية ولغة الرومانس .

وليس فى كل هذه المعلومات ما يجعلها جنة لرجال الأعمال ، لأن رجال الأعمال يريدون شيئا آخر هو أن يلتقوا برجال الأعمال وأن يكون اللقاء ممتدا وأن تكون الدنيا كلها عند أطراف أصابعهم .

ولذلك اتخذت دافوس مركزا عالميا لالتقاء رجال الأعمال مرة كل سنة . . كل رجال أعمال الدنيا أكبر رؤساء الشركات وأصحابها وذلك مقابل عشرة الاف دولار توفر للعضو الإقامة فى أجمل الفنادق وأروع المطاعم وفى عزلة تامة مع رجال يحكمون الكرة الأرضية اقتصاديا وسياسيا أيضا . وفى استطاعة أى عضو أن يقابل وأن يتحدث وأن يسأل وأن يعرف وأن يستنتج . وقد حدث كثيرا جدا فى لقاء كل قمم الدنيا هنا فى دافوس أن اتخذت قرارات مصيرية لأى دولة ولأى إنسان من كلمة أو من إشارة يقولها واحد من هؤلاء وهو يأكل وهو يتمشى .

ولذلك فإن أصحاب مئات الملايين والمليارات يؤجلون الكثير من قراراتهم المصيرية حتى يذهبوا إلى دافوس . وهناك يقررون مصير الكرة الأرضية اقتصاديا وسياسيا . . وهو لقاء العمر . . فالذين يذهبون إلى هناك هم قمة القمم فى دنيا الاقتصاد والصناعة والسياسة .

وهم الذين سوف ينظمون قمة القاهرة فى العام القادم . ولا يوجد فى الدنيا كلها رجل أعمال ـ بمئات ومليارات الملايين ـ لا يحزم حقائبه ويذهب لليلة القدر فى دافوس !

لست من رجال الأعمال ولا من رجال الصناعة ـ وإن كانت صناعتى الكتابة وأعمل فى الصحف والمجلات . ولكن الأعمال المقصودة هنا أصحاب الشركات والبنوك والصناعة هى صناعة الورق والخشب والسجاد والحديد والصلب . .

فأنا صناعتى الكلام ومنتجاتى كلام . ثم إننى ـ شخصيا ـ مصنع ورئيس مجلس إدارة المصنع والعمال والمواد الخام والبائع والموزع . . وإذا جلست وحدى فأنا أستطيع أن أقول عن نفسى (إننى منعقد) ـ بكامل أعضائى .

وإنما ذهبت ضيفا على اتحاد الصناعات المصرية التى يرأسها رجل فى غاية الذكاء والنجاح والنعومة اسمه محمد فريد خميس . وقد حضرت الجلسات التحضيرية للذهاب إلى قمة عمان . وقرأت ما الذى أعدته إسرائيل والأردن . . وتناقشنا وفكرنا . وتعالت الأصوات . نحن أحسن . . هم أفضل . . نحن أقوى . . نحن أكبر عددا . إنهم شطار فقط فى البيع والتسويق . . إنهم أعظم سماسرة . . إنهم ليسوا أغنى الناس ولكن أقدر منا على تحريك الفلوس من القطب الشمالى إلى الجنوبى . يعنى إيه ؟ يعنى يجب أن نذهب طبعا . ولم يخطر على بال واحد من رجال الأعمال والصناعة ألا يذهب . أما الذين يرون ألا نذهب فهم بعيدون تماما عن الصناعة والأعمال .

سؤال : نقاطع إسرائيل ؟

الجواب : نقاطع إسرائيل بعد أن صار بيننا سلام وعادت أرضنا إلينا وبعد أن جاءوا وذهبنا . . وبعد أن اشتروا من مصر . . وأقاموا شركات ومصانع فى مصر . بل يجب أن نذهب وأن نعمل وأن

نشـارك وإلا تخلفنا وراحت علينا . وقـد راحت علينا يوم أقـفلنا الباب والشباك خوفا من رياح الرأسمالية أيام كنا اشتراكيين . . أو أيام لم نعرف أن كنا اشتراكيين أو رأسماليين . .

وكنت قد سافرت ضمن الوفد الرسمى السياحى برئاسة ممدوح البلتاجى وزير السياحة والتقينا بوزير سياحة الأردن الذى حدثنا عن مشروع (ريفيرا البحر الأحمر) أى الشاطئ الجميل الممتد من مدينة العقبة إلى مدينة إيلات . . والمفتوح ذهابا وإيابا وبه قرى سياحية وفنادق صغيرة وكبيرة ومطاعم وكازينوهات للقمار تقام على الأرض الأردنيـة ـ لأن القـانون الإسـرائيلى يمنع كـازينوهات القمـار على أرضه وقبل ذلك كـانت هناك سـفينة تقف فى المياه الدولية فى مواجهة طابا يسافر إليها يهود العالم ليلعبوا القمار . . وقـد أقـامت فنادق الغـردقـة وشـرم الشـيخ كـازينوهات للقـمـار للخواجات فقط .

ويقال إن فكرة (ريفيرا البحر الأحمر) من بنات أفكار د . فؤاد سلطان وزير السياحة السابق . . ويقال من بنات أفكار محمد نسيم رئيس مجلس إدارة إحدى القرى السياحية الأسبق والرئيس لهيئة تنشيط السياحة وأحد مدربى الجاسوس المصرى رأفت الهجان . .

ومنذ أيام عـرض علينا مـحـمـد فـريد خـمـيس رئيس اتحاد الصناعات مشروع رجال الصناعة . . ولم نعرف مشروعات رجال الأعمال أو الغرف التجارية بين مصر وأمريكا ، ومصر وألمانيا . . ولا حتى وجـهـة نظر الحكومة المصرية . . ومعنى ذلك أنه لم يتكون لمصـر مـوقف واحـد . . أو نظرة واحـدة . . ولكن فى نفس الوقت كانت هناك محاولات واتصالات لتوحيد الرأى والرؤية . واتحدنا

مع خلافات لابد منها . ولكن الهدف واضح جدا : أن نذهب أن نرى وأن نسمع وأن نقول وأن نعرض . . وأن نجعلهم يروننا ويستمعون إلينا . . نتبادل الوضوح ونشيع النور بيننا وبينهم .

هذا هو الهدف وهذا هو الأمل . . والباقى يجىء فى يوم فى شهر فى سنة . . فليس من الممكن أن نتفق على كل هذه المشروعات فى وقت قصير . . بل ربما مات معظم أعضاء الوفود دون أن تتحقق بعض هذه المشروعات على جانبى خليج العقبة .

فلسفة الأمير ..

لم يعد هناك أى فارق بين ضاربة الودع وقارئة الفنجان والمحلل السياسى فى العالم العربى . فكل شىء مثل أى شىء . الذى يعرف كالذى لايعرف فى شئون العرب . . أى شىء أو أى اتجاه . .

اذكر أن أحد سفراء إسرائيل فى مصر قال لى : يبدو والله أعلم أننى سوف أروح فى ستين داهية .

فقلت له : لماذا ؟

قال : يا أخى أنا مش فاهم حاجة . . فالوزير يقول كلاما . . والصحف القومية تقول كلاما آخر . . وصحف المعارضة تؤيد الحكومة وفلان يقول وعلان يقول . . والتليفزيون الذى تملكه الدولة يهاجم إسرائيل . فبالله عليك قل لى : أين وجهة نظر الحكومة المصرية . . وماذا أقول لحكومتى ؟ وماذا أبعث لصانع القرار . . لابد أنهم سيقولون إننى مسطول !

ولم أندهش لذلك هذه حال معظم البلاد العربية . ومن الصعب أن تعرف أين يتجه الناس . الوجهة الوحيدة المؤكدة والتى لا خلاف عليها هى : أن المؤمنين يتجهون إلى مكة والساسة يتجهون إلى واشنطون . أما ماعدا ذلك فلا أحد يعرف أين يتجه الناس . .

مثلا : هذا الذى حدث أخيرا فى العراق . أقرب المقربين إلى الرئيس صدام قد هربوا ليفضحوه وليعملوا ضده . . ابنتاه وزوجاهما . ثم لحقت بهم الأم . . وحاول الابن دلوعة أبيه باسم النبى حارسه وصاينه : عدى . . وهو مثل ابن كيم آل سونج . . والمرحوم باسل ابن حافظ الأسد . . إن الأمير عدى يجلس على حجر والده ويحكم

ويتحكم فيما بين النهرين . . وقد حاول أن يقنع الهاربين الفارين بالعودة وإلا . . فقالوا : أعلى ما فى خيلك وخيل أبيك اركبها !

المهم : أين يقف الملك حسين عاهل الأردن والسياسى العتيد؟ فالملك حسين لم يقف مع أى رئيس دولة عربية واحدة إلا لكى يقف ضدها . وبنفس الدرجة من الحماس والمنطق . . ويستطيع أن يضع أمامك كل الدول العربية بغير استثناء ، وفى مقدمتها مصر ، فقد هاجمها وشتمها حاكما ومحكوما . وكل ذلك فى ورق مطبوع وأشرطة مسجلة بالصوت والصورة . . وما الذى قاله عن السعودية ، وكيف أنه احتال على مقابلة الملك فهد فاختار أن يؤدى العمرة عندما كان الملك فهد فى جدة على مسافة ٧٠ كيلو مترا من مكة ، واعتذر الملك فهد ، فبعث إليه حسين برغبته فى الاعتذار للملك ، فما كان من الملك فهد إلا أن طلب إليه أن يعتذر للشعب السعودى أولا !

ووقف مع صدام ضد العرب جميعا فيما عدا السودان واليمن وليبيا . وهو الآن ضد صدام ومع كل العرب ، فيما عدا ليبيا .

ولم يكد أهل صدام يصلون إلى عمان حتى كان الرئيس الأمريكى كلينتون على الخط يطمئن الملك على حمايته وعلى الشيك . وفى نفس الوقت نفض يديه من الهاربين من صدام . وأكد أن علاقته بالرئيس صدام سمن على عسل ، أما الذى يقوله الخارجون على صدام ، حتى لو كان ذلك فى القصر الملكى ، فهذا شأنهم . . ولكنه لايوافق ولن يوافق على أن تكون بلاده قاعدة للانقضاض على صدام .

وكان أول زائر للأردن عدد كبير من رجال المخابرات الأمريكية والإسرائيلية . وأعلن وزير خارجية إسرائيل شمعون بيريس أن ما حدث لا شأن لإسرائيل به إنه من صميم السياسة الداخلية لعمان وبغداد .

فما رأى الملك حسين ؟

الجواب : فى كتاب «الأمير» للفيلسوف الإيطالى مكيافللى .

حتى لا تذهبوا بعيداً جداً !

سوف ندرس طويلا وكثيرا في المعاهد الصحفية والسياسية والدبلوماسية كيف عالجت الصحف في مصر والسودان : المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا ؟

الحادث فظيع . والجريمة بشعة والنتائج على شعب مصر فادحة . ومن الطبيعي أن تهتز الدنيا في عيون المصريين . . فإذا عرفوا أن المعتدين من السودان الشقيق كان رد الفعل رهيبا . . فالسودان دولة شقيقة . والعلاقات بين الشعبين قديمة وعميقة وحيوية . ولا يضع المصريون تفرقة في معاملة السودانيين . ويرون أنهم كالمصريين سواء بسواء . فلا أحد يقول لواحد سوداني أنت من الجنوب . ولا يقول له : لماذا لاتعود إلى بلادك؟ لا أحد يقولها لأن مصر هي بلاده ، كما أن السودان هي بلادنا . . ثم إن السودانيين في مصر ، أربعة ملايين . يلقون نفس العناية والرعاية في المدرسة والجامعة والمستشفى وطابور الجمعيات الاستهلاكية . لا تفرقة !

وفجأة يجد المصريون الأسلحة والدمار يتسرب عبر الحدود إلى مصر . . وهي نفس الحدود التي نصدر منها الطعام والشراب والوقود إلى السودان . . فالسلاح يجيء من السودان ، والطعام يجيء من مصر . . فهل نستحق هذا الدمار والتخريب لأننا نقدم العون إلى السودان . . وسوف نقدم دائما عن طيب خاطر !

فالاعتداء على رئيس مصر هو اعتداء على مصر وقرارها واختيارها ورمزها ورجلها الأول صمام الاستقرار والأمان والوفاق . .

ما الذي يريده السودانيون ؟

الشعب السوداني لايريد إلا ما يرجوه الشعب المصرى : المعروف والستر واستمرار الحياة والحب .

ولكن على رأس السودان رئيس طاغية وله مستشار مهووس . وطبيعى إذا تحالف الطاغية والمشعوذ الدينى ، أن يكون البارود هو أسلوبهما الوحيد لفرض الرأى على الرأى الآخر لا فى السودان وحدها وإنما فى مصر وغدا فى ليبيا وبعد غد فى الأردن . .

ولهذا السبب استدرجوا الشباب الساذج إلى معسكرات العمل الإرهابى فى السودان ـ خمسين معسكرا تتلقى المال من إيران ومن شاب مجنون اسمه أسامة بن لادن !

ويقال من العراق ويقال من دول أوروبية وأمريكية . المهم إن السودان هو رأس الحربة الموجهة إلى مصر وإلى شعب مصر .

طبيعى أن يكون الغضب هو سيد الموقف . وغضبنا جميعا . وتطايرت كلمات الاستنكار رصاصا وقنابل فى كل اتجاه . طبيعى أن يحدث ذلك . . فليس الذى شعر به المصريون هو فقط عدم الامتنان . . وإنما هو الحقد على مصر والرغبة فى تجويعها لتكون مثل السودان الغنية بأرضها وثرواتها والغنية بقلوبها الطيبة التى سمحت لعدد من المجانين أن يحكموها بالجوع والسجون . .

ومن هذه المواقف الملتهبة المتأزمة يجب أن تظهر قدرات وطاقات تمسك زمام الناس حتى لايذهبوا بعيدا . . والبعيد البغيض هو : الحرب . أعوذ بالله ومن الذى يريدها . إن الحرب هى آخر الاختيارات التى تدل على اليأس من المنطق ومن الرجوع إلى الحق . وهو خيار شديد المرارة . قد جربنا وجربته كل شعوب الدنيا . وندمت على ذلك . . ولاتزال الشعوب تقسم بأنها لن تعود إلى الحرب . ومع الأسف ففى الثلاثين قرنا الماضية لم يعرف العالم السلام إلا قرنا واحدا فاللهم احفظنا !

كل الشعوب هنا والخيول ..

(١)

من عشرين سنة زرت إمارة دبى فى رفقة د . عبد العزيز حجازى ورافقنا أمير البلاد الشيخ راشد آل مكتوم إلى أحدث معالم الإمارة وهو مستشفى صغيرة نظيف أنيق . وكان معظم الأطباء من المصريين فسألهم د . حجازى : عاملين إيه يا أولاد . . قالوا له : الحمد لله . . كل شىء عال العال . فسألهم ـ كأى والد ـ مش عاوزين حاجة ؟

قالوا : نعم . . عاوزين عيانين !

فالمستشفى الجميل الأنيق به كل أنواع الأجهزة وغرف العمليات وأسرة النوم والممرضات من بريطانيا . . ولاينقصه إلا مريض واحد . . إنهم قد فتحوا المستشفى منذ شهور ولم يجدوا مريضا واحدا . ويوم الهنا عندهم أن يحاول أحد التسلل إلى البلاد عن طريق الخليج . . فيشعر بالإعياء لطول المسافة البحرية التى قطعها . فإذا بلغ الشاطئ كان مرهقا فاقد الوعى . . هنا ينبسط كل أطباء المستشفى فقد عثروا على صيد ثمين . . ويلتف حوله الأطباء جميعا يعالجونه مما فيه ومما ليس فيه من كل الأمراض التى يعرفونها . . وقد يستمر العلاج شهرا أو أكثر . . لأنهم يخشون إن عالجوه بسرعة أن يخلو المستشفى من سبب وجودهم ! وضحكنا يومها ولكنها كانت الحقيقة . .

وفى ذلك الوقت كانت دبى كأنها حارة فى مدينة كلكتا الهندية . فكل من تقع عليه عيناك من الهنود . . ومن النادر أن تجد مواطنا . فهم الأغلبية ـ كانوا ولايزالون . ولذلك تقوم الإمارة بتشجيع أبنائها على الزواج وتدفع لهم مهورا . . وتدفع مبلغا شهريا عن كل طفل . . وتدفع مساعدة لمن يتزوج أرملة حماية لها من الفتنة والغواية ! وكانت العائلات تغالى فى مهور بناتها ، حتى وقف حال البنات واتجه الرجال إلى الزواج من بلاد أخرى .

ولكن لا أذكر أننى رأيت فى ذلك الوقت مؤسسة لافتة للنظر . . لا من ناحية الشكل أو الحجم . ولكن كان واضحا أن دبى هى ميناء حر . . مفتوح على المحيطات . . ومثل هذا الانفتاح يؤدى إلى انفتاح فى العقول أيضا . . أو أنه الانفتاح العقلى هو الذى أدى إلى هذا الانفتاح الاقتصادى والاجتماعى . . أما العقل المفتوح فقد كان الشيخ راشد نفسه . فهو الذى بنى دبى على الوعى والانفتاح على الدنيا كلها . . حتى صارت دبى أجمل وأشهر الامارات . .

وقد رأيت دبى منذ أيام . . مررت بشوارعها وتوقفت عند مؤسساتها المعمارية الشامخة . فى غاية الجمال والذوق . ومنظر دبى الصغيرة وهى تطل على الخليج أو على الخور وهى قناة واسعة تخترق البلاد كممر مائى للسفن ومرسى لعابرات القارات . . لانظير لها إلا فى الموانئ العالمية . . بل إن الشيخ راشد شاء أن يكون الميناء عالميا ، فكان . وأن تقف عنده وتخرج منه كل أنواع وأحجام السفن ـ فكان . وأن يظهر اسم بلاده فى كل الصحف السياسية والاقتصادية والملاحية فكان له ذلك ، وكل أفكار الشيخ راشد وأحلامه قد تحققت كيف صنع ذلك ؟ لابد أن نعرف عقلية

هذا الرجل البدوى الذى ذهب بخياله وطموحه إلى أبعد مما يتصوره أى أحد من مواطنيه ومعاصريه . .

وفى دبى حشد من كل الشعوب العربية ـ الكفاءات العربية دون تمييز ففيها الخبراء من مصر وفلسطين والسودان وسوريا ولبنان وفيها من إيران ومن الهند وباكستان والفلبين . . والكل يعمل والكل يكسب . والكل سعيد بنصيبه من خيرات هذه البلاد . ولذلك فدبى تعيش فى أمان تحسدها عليه كل دول الخليج والدول العربية . . فالناس يتحدثون عن أنك لو تركت سيارتك مفتوحة يوما أو أكثر فلن تمسسها يد إنسان . . فما الذى يأخذه اللص . . إن كل شىء موجود فى الأسواق .

وقد منحت دبى حق الإشراف السرى لمئات من المواطنين هؤلاء المواطنون أقسموا على الصدق والأمانة . . فإن رأوا غلطة أو مخالفة كتبوا بها للحكومة وسوف يكون العقاب رادعا . . لمن خالف إشارة المرور أو ألقى ورقة فى الأرض . ولذلك فالنظافة واضحة تماما ، والانضباط أكثر وضوحا !

(٢)

لاشىء يدل على أن حكام دبى عندهم نظرة عريضة عميقة إلى المستقبل إلا هذا العدد الكبير من فنادق الدرجة الأولى .. فكل الفنادق العالمية لها فروع فى دبى .. بل إن هناك فنادق كبرى قد أقيمت ولم يتم افتتاحها بعد .. بها غرف واسعة .. ثم شقق وفلل . كأن الفندق قرية سياحية .. ثم بها حمامات وكل أنواع الملاعب .. وكلها تقع على «الخور» أى على القناة الطبيعية التى تخترق البلاد ..

وهم الآن يمسحون الأرض لإنشاء مدينة للملاهى اسمها «وندر لاند» أى بلاد العجائب للأطفال .

وفى دبى أجمل مرماح للخيول والهجن - أى الإبل - وملاعب عالمية للجولف ، وملاعب عالمية للتنس وهناك سباقات للزوارق .

وفى ميناء دبى لاتزال الزوارق الخشبية القديمة التى قامت عليها حياة أهل البلاد قبل الانفتاح الكبير ، فهى مصنوعة من الخشب .. وهى متوسطة الحجم ورغم ذلك فقد كانت تذهب بهم إلى أطراف القارة الآسيوية فى الهند وباكستان ؟!

وكان أهل البلاد يعيشون على صيد اللؤلؤ .. ولهم شهرة عالمية ، ولكن بعد أن اخترع اليابانيون «اللؤلؤ المزروع» كسدت هذه التجارة ، فقد جعلها اليابانيون صناعة تتحكم فى حجم اللؤلؤ ولونه .

وفى «مهرجان التسوق العالمى» فى دبى توجد كل أنواع البضائع من كل الدنيا تتقدمها الأجهزة الإلكترونية من صناعة اليابان والنمور الآسيوية .. وفيها كل أنواع الأقمشة والعطور الفرنسية .

(٣)

وبقدر انفتاح دبى بقدر انغلاق «الشارقة» وهى الإمارة المجاورة التى تحرم على الناس كل متع الدنيا ، ولذلك فالناس يذهبون إلى دبى الملاصقة لها لكى ينعموا بكل ملذات الحياة من كل نوع .

وسوف تنتقل عدوى الحرية والانفتاح من دبى إلى الإمارات الأخرى لامفر ، فدبى قد أعطت نموذجا مضيئا باهرا كيف يكون الانفتاح التجارى والاقتصادى والعقلى أيضا ، وإن كان أهل دبى لايعترضون على أن تمشى الروسيات نصف عاريات أو ربع عاريات ويبحلقون وتكاد عيونهم تخرج من محاجرهم ، ولكنهم يشددون على زوجاتهم وبناتهم القيود فلا يسمحون إلا بالملابس الحشمة والوجوه المغطاة تماما أو إلى حد ما ، أى أنهم لايمانعون فى أن يمارس الأجانب كل أنواع الحرية ولكنهم يمسكون هذه الحرية ويشدونها بمنتهى الإحكام على وجو ونساء زوجاتهم وبناتهم .

وقفت فى ميدان جمال عبد الناصر أتفرج على بنات روسيا ، الشقراوات جئن يشترين بضائع لبيعها فى السوق السوداء فى روسيا ، شىء عجيب صلة عبد الناصر بالروس رجالا ونساء أتت بالرجال الروس إلى مصر والشرق الأوسط ، وشعرت الروسيات بالأمان فى الميدان المسمى باسمه فى دبى !

ولم أجد ما يشاع عن الروسيات بأنهن يعترضن المشاة ويفاصلن فى سعر الليلة .. ولم ألاحظ إلا فتيات كثيرات ، والعيون من حولها تكاد تأكلها ، وهذا طبيعى ، يكفى أن تنظر إلى الزحام فى الشوارع فتجد أن من بين كل خمسين رجلا امرأة واحدة هندية ،

ومن حين إلى حين فتيات روسيات ورجالهن ، وهم يشترون كل شيء من أى شيء ، إن الروس هنا هم أكبر تجار للشنطة فى العالم ، والروسيات هن غانيات أوروبا وآسيا وإفريقيا وفى إستراليا يتزوجن أى واحد لكى يحصلن على الجنسية ، فهن هاربات من روسيا والرجال أيضا ، إنه الفقر الشديد والأحلام الأمريكية الرأسمالية التى أصابت الجميع بالجنون لا فى دبى وحدها ، ولكن فى كل الدنيا .

وقد رأيت الروسيات فى شوارع وملاهى تل أبيب يقمن بنفس العمل ، وهن فى مصر يرقصن فى الملاهى وكل المسارح والفنادق والأفلام ، والرقص شرقى «منضبط» ولايضايق المصريين إلا هذا الانضباط لأنهم يفضلون الشخلعة والمياصة والارتجال !

(٤)

أما الطريق الصحيح إلى رؤية اصطبلات الخيول فإنى أطلب ذلك من السفير . والسفير المصرى هو بلدياتى مظهر الغمراوى . وهو رجل خدوم . وقد نذر نفسه لخدمة التسعين ألف مصرى فى دبى . فهو لا يعرف الراحة ولا النوم ولا الإجازة . . ووجدت أنه مادام فى خدمة الجميع ، فلماذا لا أضيف له عبئا جديدا . وطلبت إليه أن أرى خيول الأمير . .

وبسرعة اتصل بسكرتير الأمير السيد أحمد حمد وهو مصرى يعمل مع الأمير من عشرين عاما . وهو رجل لطيف ومجامل وخدوم وفى غاية الحيوية والإخلاص للأمير ولبلاد الأمير وشديد الامتنان للجميع . . وتحدد الموعد ، وانتظر الرجال الخبراء . وكان ذلك أسعد أيامى فى دبى . وكان الموعد قبل بدء السباق . ذهبت إلى نفس الإصطبل الذى رفض (السايس) الإنجليزى أن يمنحنى حق المشى على أطراف أصابعى إلى جوار الخيول أو على مرأى منها . ولم أجد هذا السايس ، وإنما وجدت واحدا آخر عالما عاشقا لهذه الخيول ، رغم أنه شاب . ولكنه قال لى : أنه عاشق للخيول منذ كان طفلا . ودخلنا الإصطبل النظيف جدا . . والذى أرضه مرشوشة بالمطهرات . . وألوان أرضه كأنها جدران حمام . . أما الخيول ـ ما شاء الله ـ فهى واقفة فى حيوية وصحة وعافية وجمال . . الأرض من نشارة الخشب المستورد من فنلندا . . وفى ركن قليل من العشب . وسألت ماذا تأكل . فذكر عددا من الأعشاب والحبوب المعالجة كيميائيا وذكر عسل النحل أيضا

والزبدة الضرورية من أجل ليونة البشرة ولمعان الشعر ثم الفحص الطبى المستمر . . وتحليل الدم . . والكشف عن العضلات والأربطة العضلية فى الساقين الأماميتين . . وكذلك الحالة العصبية للخيول قبل اشتراكها فى السباق وبعد ذلك أيضا . .

والخيول : صناعة . . فهى ليست هواية لواحد قاعد على الرصيف أو على مقعد فى مقهى يتفرج على التليفزيون . ولكن الهدف الأساسى من تربية حصان حتى يتفوق هو أن يكون بعد ذلك أبا . . وإذا كان له أولاد فأسعارهم فى السماء . . لأن الحصان بعد أن يكسب فى السباقات الدولية عدة مرات فإنه يعتزل . . ويتفرغ لأن يكون أبا . ويكون له لقاءات غرامية ـ اللقاء الواحد مع المهرة بمليون دولار وأحيانا أكثر . . ولايهم أن حملت منه المهرة أو لم تحمل . المهم أن الحصان الرابح من الممكن أن يغطى تكاليف الانفاق عليه فى أقل من سنة . . بسبب هذه الخلوة الغرامية مع المهرة التى تريد أن تكون أما !

وهذا هو التطبيق العملى لنظرية العالم الكبير دراوين . فهو يرى أن البقاء للأصلح . . أى أن أصلح الحيوانات هى أقدرها على التغلب على الطبيعة والتوافق معها . . أما الحيوانات التى لم تستطع أن تتواءم مع الظروف فهى التى تنقرض . . ونظرية داروين فى الانتخاب الطبيعى هو أن الطبيعة اختارت أقوى الكائنات لكى تعيش . . فهى تختار الأقوى والأكثر مرونة ومسايرة للظروف . . ونحن نختار للإناث أحسن الآباء وأجملهم وأقواهم . . وبذلك تستمر حياة الخيول أفضل وتنتقل من مرحلة إلى مرحلة أحسن وتبقى فى القمة . .

كما يلجأ الأطباء إلى التلقيح الصناعى للخيول والإبل أيضا .

وهذ ما تفعله (الهندسة الوراثية) أيضا . . عندما يعالج الأطباء أجزاء البويضة قبل تلقيحها . . وكذلك نفعل فى (زراعة الخلايا) لأشجار الفاكهة . . عندما نختار من أحسن الأشجار وأصحها بعض خلاياها ونزرعها حتى تصبح شجرة وهذه الشجرة نعيد غرسها فى الأض . . فقد اخترنا أحسن الخلايا من أحسن الأشجار ، لكى نزرع أفضل السلالات النباتية . .

وكذلك يفعلون فى الخيول والإبل - يختارون أحسن الآباء لأجمل الأمهات ، ليكون الأبناء أناثا وذكورا أفضل .

مزيداً من الحرية ..

أمامنا فى مصر أعظم طموحات اقتصادية لعشرين عاماً قادمة . وربما لثلاثين .

الطموح الأول هو تنمية سيناء . أى زرعها وتصنيعها وتوطين ثلاثة ملايين من سكان الوادى . وفى العشرين عاماً القادمة سوف يزيد عدد سكان مصر عشرين مليوناً أو أكثر . .

وفى نفس الوقت عندنا طموح آخر وهو تعمير صعيد مصر . وفى الصعيد معادن وأرض صالحة للزراعة . . وفى الصعيد أهم الآثار المصرية . . والمطلوب هو أن يكون الصعيد مرتبطا بوادى النيل بسيناء والعالم الخارجى . التى يجب أن تكون البنية الأساسية متوافرة وأن تكون من الطراز الأول . . وقد قدم مجلس الشورى تقريرا صافيا عن تنمية سيناء . . وقد اشتركت فى هذا التقرير كل لجان مجلس الشورى .

وليست هناك فكرة واحدة جديدة لم تخطر على بال أحد لم نقم بتنفيذها فى وادى النيل . . وفى سيناء نفسها وفى المدن الصناعية فى الوادى وعلى شواطئ البحر الأحمر وفى شرم الشيخ بجنوب سيناء . إذن ليس جديدا علينا أى شىء سوف نقدم عليه وإنما الجديد هو ألا نكرر أخطاءنا . . أى أن نستفيد من الأخطاء التى تردينا إليها . والخطأ طبيعى ، ولكن الذى ليس طبيعيا هو ألا نتعلم من أخطائنا . والتاريخ الإنسانى هو مسرح محاولات الإنسان فى أن يتقدم وأن يتحرر . فتاريخ الإنسانية هو حرص الإنسان على أن يحصل على مزيد من الحرية : الحرية من الفقر والجوع والخوف والظلم والمرض . وأن يتحرر من

الكسل : أى تكرار نفس الأخطاء دون أن يفلت من قبضة البلادة والغباوة ، والجهل . . وطموحنا هو أن نحقق كل صور النجاح والرفاهية لأبناء مصر فى الصعيد وفى سيناء . أما رأيى الشخصى الذى أبديته فى مجلس الشورى فهو : أننا نخجل من أن نبدأ صغاراً ثم نكبر . وهذا الخجل سوف يجعلنا نكرر أخطاءنا عندما بدأنا كبارا ثم أخذنا نتضاءل كما حدث فى مديرية التحرير . لاشك أن مديرية التحرير كانت مشروعا رومانسيا رياديا لتحويل الصحارى إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار . وأول ما فعلته الصحراء أنها شربت هذه الأنهار أولاً بأول . . فلا كانت هناك جنات ولا كانت أنهارا . ومازالت المساحات المزروعة تصغر وتذبل وتتضاءل بألوف الأفدنة . . حتى وقفنا عند عدد قليل من الألوف . . أى أن المساحة تقلصت وانكمشت ومعها إرادتنا وطموحاتنا وأحلامنا . واذكر أن المرحوم موسى صبرى كان مرشحا لانتخابات مجلس الأمة ضد مجدى حسنين المشرف على مديرية التحرير ، وطلب منى أن أكتب له بيانا موجها إلى الناخبين . فكتبت أقول : ما هو الفرق بين أحمد عبود باشا ، وبين العقيد مجدى حسنين . . الفرق أن عبود باشا يحول التراب إلى تبر ومجدى حسنين يحول التبر إلى تراب ! ولم أكن منصفا فى اتهام مجدى حسنين فالتجربة أكبر منه . . وأكبر من مصر كلها . وكان من الطبيعى أن نخسر معه وبه كثيراً جداً . ولكن استطعنا بعد ذلك أن ننجح . . ويكفى أن نتفرج على الحدائق والغابات المزروعة على جانبى الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية ! وفى الطريق إلى الإسماعيلية .

ويجب ألا نتردد لحظة واحدة فى إعطاء أية شركة أجنبية ومصرية أية مساحة من الأرض لإصلاحها وزراعتها . . لأن هذه الأرض سوف تبقى فى مصر فى جميع الأحوال ، إن كسبنا فالفلوس لنا . . وإن خسرنا فقد كانت الفلوس عندنا والتجربة أيضا!

هذه حالنا كل يوم ..

وقد قام علماء النفس بتجارب كثيرة على سلوك الناس فى الشوارع فعلقوا الزراير الملتصقة فى ملابس عدد من الناس وطلبوا إليهم أن ينزلوا إلى الشارع ، وعادوا ليجدوا أن الزراير هذه سقطت بسبب الاحتكاك بالآخرين دون أن يشعروا بذلك ، بل إن زراير لم يكن أحد يتصور أن تسقط .

فمثلا . . زراير فوق الكتفين أو أعلى الظهر ، ولم يكن لذلك تفسير إلا إن هذا الشخص كان عندما يتضايق من الناس فإنه يهرش كتفيه وظهره ، مع أنه لا مبرر لذلك ، ولكنها حركة عصبية ، وهو يريد أن يضرب الناس أو يدفعهم بعيدا عنه ، ولكنه فعل ذلك بنفسه .

وعلماء الحيوانات يستخدمون نفس الأسلوب مع الطيور فيضعون لها خواتم من الفضة فى أقدامها ليعرفوا أين ذهبت ، وكذلك يضعون أجهزة لإرسال الإشارات فى رءوس الأسماك أو حيوانات الغابات ليتابعوا مسيرتها .

بعض علماء النفس اكتشف أنهم عندما علقوا ميكروفونا فى صدور بعض الناس وجدوا أنهم يكلمون أنفسهم ، وبصوت مرتفع ، كأن يشتم نفسه ويسبها وربما بألفاظ جارحة !

أى أنه يستاهل هذه الشتيمة ، وهذا الاحتقار من نفسه لنفسه .

بل وجدوا أيضا أن بعض الناس عندما يكون فى حالة ضيق

شديد يعيد حوارا بينه وبين الآخرين ، لينتهى بأنه هو الغلطان ، وأنه هو الذى يستحق أقصى وأقسى العقاب ، وأن ما حدث له كان طبيعياً .

ويرى علماء النفس أن هذا الحوار بين الإنسان ونفسه طبيعى ، فالإنسان عندما يفكر فإنه يفكر فى «شىء» أو فى «شخص» . . أو أنه عندما يقول : كنت أقول لنفسى أو هذا ما قلته لنفسى كثيرا . . أى نتيجة حوار «مع» نفسه أو «مع» شخص آخر دون أن يكون لذلك صوت مسموع فالتفكير حوار غير مسموع والحوار تفكير مسموع .

ولكن لزيادة الضغط اليومى على أعصابنا لم نعد قادرين على أن نضغط على الفرامل فلا يسمع لنا أحد صوتا ولذلك نتكلم بصوت مرتفع ، نكلم أنفسنا حتى عندما نكون وحدنا ، أو عندما نكون وسط الزحام .

ووجود الزحام حولنا ليس معناه أننا مع كل هؤلاء الناس . . أشعر بهم ويشعرون بى . . أبدا نحن معا . . لا يدرى أحد بالآخر .

فقط يتفادى بعضنا البعض ، فإذا اصطدمنا أو تخبطنا أو تضاغطنا ، توجعنا ، ويكون لهذا الوجع صدى مسموع ، أو يكون له صدى فى مكان آخر فى المكتب . . فى البيت . . اليوم وغدا !

وهذه هى حال كل واحد منا ، كل يوم ، ومدى الحياة !

البداية فقط هى القوية ..

(١)

من أخطائنا أننا نبدأ مشاريعنا كبيرة ، ثم يدركنا الملل والزهق وتظهر معوقات أخرى تجعلنا نتوقف فى منتصف الطريق أو فى أقل من ذلك . . وكان لابد أن نغير هذا السلوك المصرى الأصيل : وهو البداية المتوهجة والتى تنطفئ بسرعة . . كأننا أردنا الانطفاء السريع فخلقنا كل مقدمات هذا النجاح الناقص . . أى كأننا قررنا التوقف عندما بدأنا . . أو كأننا قررنا ألا ننجح عندما نجحنا . . لماذا؟

لأننا يجب أن نبكى على ما فات . . مع أنه لم يفت بعد . . فلا يزال هناك الكثير الذى يمكن إكماله . . ولكننا مدمنون للنظر إلى الوراء فى أسى وحزن . . ولم ندمن المستقبل ففى الدنيا دول أدمنت المستقبل : أمريكا وروسيا سابقا . . أو الدول الشيوعية جميعا التى كانت مشغولة بالغد عن اليوم والأمس . . ولكن أفسد عليها هذا الطموح أنها لم تكن تريد المستقبل وإنما تريد أن ترى فى المستقبل انهيار الدول الرأسمالية . . ولم يتحقق هذا الانهيار إلا لروسيا وكل الدول الشيوعية !

ولم يبق أمام هذه الدول الشيوعية إلا أن تهرول إلى الرأسمالية بأساليب شيوعية . . ولذلك فهى تتعثر . . وهى الآن واقعة فى مخالب النصابين واللصوص وتجار المخدرات والقوادين وتجارة الرقيق الأبيض والبودرة البيضاء فى كل العواصم الرأسمالية !

وأمامنا تجربة إسرائيل وما أحدثته فى الصحارى ـ ومن بينها صحارى مصر . . فأيام احتلالها لسيناء أقامت فندقا متواضعا وقرية سياحية . . والفندق صغير ونظيف . . ولكنها فكرة أو نواة لإقامة مئات الفنادق على شواطئ البحر الأحمر . . وأقامت فى قلب الصحراء قرية «ياميت» النظيفة المخندقة . . لقد رأيتها وأقمت فيها قبل أن تنسحب إسرائيل وقبل أن تهدمها إسرائيل وتدفع تعويضات لسكانها ونقلهم إلى مستوطنات فى أماكن أخرى .

لقد ضربت لنا إسرائيل المثل العملى الناجح فى استقلال شواطئ سيناء وصحاريها . . فأقمنا نحن أجمل القرى السياحية والفنادق الجميلة . . وكانت بداية إسرائيل صغيرة ناجحة . .

وكل المستوطنات هى عبارة عن قرى صغيرة ناجحة سكنيا وزراعيا وصناعيا . . وبسرعة أقمنا فنادق أجمل وقرى أكبر . . فما هذا الذى حدث ؟ الذى حدث هو إقامة مؤسسات ناجحة . . أنيقة مدروسة . . والمطلوب أن نمضى فى ذلك ولأهداف أخرى . . والمهم أن تكون مدروسة معروفة الوظيفة . . وأن تبدأ صغيرة ليكون نجاحها كبيرا .

وكان لى رأى . . وأنا أعدل عن هذا الرأى الآن وفورا . . فقد كنت معترضا على إعطاء الشبان خمسة أفدنة . . وطالبت بأن تكون عشرة أفدنة . . فالصحارى واسعة . . ولا بد أن يتحرك الشاب بأرضه وبيته وحظيرة مواشيه فى مساحات أكبر . . وكنت على خطأ .

فالشبان أكثرهم لا خبرة له بالزراعة . . بل لم يكن ريفيا . . عاش فى المدينة بأسلوبها وعقلها . . وهذه أول تجربة له بأن يعيش وحده فى الصحارى بأسلوب جديد . . وعلى هذا الشباب أن

يعتمد على البنوك فى تمويل مشاريعه . . والبنوك لها حدود . . وعلى الدولة أن تساعده بالماء والكهرباء والقروض والبذور والميكنة . . والدولة لاتستطيع الوفاء بكل ذلك . . فما بالك إذا كانت المساحة أكبر ؟!

إننا نعرف مقدما ماذا سوف يصيب هذا الشاب . . سوف ينجح نصف نجاح أو نصف فشل لأن الأرض أكبر من قدراته . . ولذلك يجب أن يبدأ صغيرا وأن ينجح . . فإذا نجح والآخرون من حوله اتفقوا معا على أن تكون لهم مزارع تعاونية . . لتساعدهم على شراء الآلات الأكثر تطورا وعلى التجارة والتسويق وعلى المكسب أيضا .

وأهم من كل ذلك أن تكون حركة الزراعة والصناعة والتجارة داخل إطار خطة محكمة . . حتى لاتنقل سرطان العشوائيات من الوادى إلى سيناء . . وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا !

(٢)

يجب أن نستعين بالطب على فهم هذه القضية التى أمامنا فى تنمية سيناء وإيجاد مجتمعات جديدة أكثر نظاما وانضباطا من مجتمعات وادى النيل أو الصعيد . .

فى الطب يقال : إن هناك بؤرة سامة تنتقل فى جسم الإنسان ، أو تبقى فى مكان واحد وتنشر أضرارها فى الأسنان والمفاصل والعينين . . وهناك بؤر سامة متحركة ومن الممكن أن تستقر فى إنسان فتؤدى إلى جلطة فى القلب أو المخ .

وهى ليست إلا بؤرة واحدة فى جسم إنسان واحد . .

ومن ضمن البؤر السامة قصة فشل صغير فى القرى والمصانع - وهذا الفشل الصغير سوف يلقى ظلاله العامة على الجميع . وسوف تكون هذه البؤرة نوعا من التشاؤم الحى الذى لايتوقف عن العدوى . . حتى يكون الفشل عاما واليأس شاملا !

وهناك فى الطب أيضا ما يسمونه الأيزوثوب - أى النظائر المشعة . . هذه النظائر المشعة ينقلها الطبيب فى جسم الإنسان لكى تنير له ما به من أمراض . . وأين مكان هذه الأمراض وكيف يمكن علاجها . . هذه النظائر الإشعاعية هى النماذج الناجحة ذات الأمل والطموح فى المستقبل . وكما أن المرض يعدى ، فالنجاح يعدى أيضا . وأعظم دعاية للنجاح هى النجاح نفسه . . وأبشع دعاية للفشل هى الفشل نفسه .

ولذلك يجب ألا نخاف من أن تكون للشباب قرى صغيرة . . أو مزارع صغيرة . . أو بقع من النور . . إنها مراكز لإشعاع الأمل والتفاؤل فى كل العقول والقلوب . . وهى دعوة قائمة لأن يحاول

الشباب . وسوف ينجحون . . فكل خطوات التاريخ إلى الأمام كانت خطوات فنية شابة . . وكل المغامرات فى التاريخ كانت للشباب . .

ولاتزال سيناء شابة . . ولاتزال فى حاجة إلى شباب مثلها . . إلى أفكار شابة .

ومشاريع طموحة ، وخطوات جريئة ، وعرق ودمع . . وعرق الجسم الإنسانى ليس إلا دموعا . . دموع العافية ودموع الرجولة والكفاح . وبغير عرق لاتقدم فى أى مجال فى الأرض أو فى الماء أو الهواء أو الفضاء !

لقد رأيت فى إسرائيل مستوطنات صغيرة جدا . مستوطنة من أسرة محدودة العدد . هذه المستوطنة تقوم على إنجاز مشروع علمى . . فهذه العائلة رجالا ونساء يعملون معا فى إنتاج سلعة لإنتاجها لحساب إحدى الشركات الأوروبية أو الأمريكية . . وهذه الشركة أعطتهم المال وأدوات الإنتاج واحتكرت الناتج النهائى لجهود هذه الأسرة الصغيرة . . أسرة صغيرة ناجحة متطورة . . وإلى جوارها عائلات أخرى تعمل فى شىء مختلف . المهم أن هذه العائلات الصناعية بقع مضيئة . . ولايعيبها أنها صغيرة نجحت . ولكن يعيبها أنها كبيرة فشلت ـ أى أنها لم تحسن تقدير قدراتها ومجالها والمطلوب منها والذى تستطيعه . . وكان من الطبيعى ألا تنجح .

وكل هذه أمثلة ـ أمامنا ونحن نخطو إلى سيناء !

الهدف : تأجيل الشيخوخة

حكمة قديمة ألا تملأ بطنك . . أن تكون خفيفا . . ألا تكون عبئا على معدتك . . وعلى قلبك وعلى أعصابك . . وألا تكون بليدا كسولا بسبب «حشر» الطعام فى معدتك .

والحديث النبوى الشريف يقول : «جوعوا تصحوا» .

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد نصحنا بأن نجعل ثلث المعدة للطعام والثلث للشراب والثلث للهواء . . والعلم الحديث يؤكد صحة هذه الحكمة البليغة التى اهتدى إليها الرسول ويدعونا إليها .

ففى الأسبوع الماضى انعقدت مؤتمرات علمية فى أمريكا وبريطانيا فى وقت واحد . . فقد أعلن العلماء ما اهتدوا إليه من أن هناك قاعدة علمية تقول : يعيش طويلا من يأكل قليلا . . وهناك قاعدة أخرى تقول للمرأة : تعيش جميلة من تأكل قليلا !

وهناك طعام للصحة وهناك طعام للصحة والجمال أيضا .

فقد قام عدد من العلماء بتجاربهم ـ كما هى العادة ـ على حيوانات المعامل من فئران وأرانب . . ولاحظوا مئات المرات أن هذه الحيوانات الصغيرة إذا أكلت قليلا ولفترة طويلة ، فإن عمرها الافتراضى يطول . . فالفأر يعيش عادة ثلاث سنوات . . واستطاع العلماء أن يجعلوه يعيش أربعا وبضعة أيام .

ولاحظوا أيضا أن هذه الفئران أقل تعرضا لأمراض كثيرة ، وأقل إصابة بالسرطان .

ويريد العلمـاء أن يذهبوا إلى أبعـد من ذلك فـيـتـجـهـون إلى الإنسان نفسه . . ويرون أن الإنسان من الممكن أن يعيش إلى ١٢٠ عاما أو ١٤٠ عاماً .

والهدف ليس إطالة العمر ، وإنما الهدف هو تأجيل الشيخوخة . . والهدف أيضا ليس فقط أن يطول العمر ، وإنما أن تزيد سنوات الصحة والعـافـيـة . . وأن تظل المرأة جـمـيلة الملامح ناعـمـة البـشـرة قليلة التجاعيد لفترة أطول . . ويرون أن ذلك ممكن تماما !

ولكن العلماء يحذرون .

يحـذرون أن تمتنع عن الطعـام نهـائيـا . . وألا تراعى الطعـام الصحى . . فالمطلوب هو القليل من الطعام الصحى الذى يتضمن كل عناصر الحياة .

ويحـذرون من اسـتـخـدام المواد الكيـمـاوية التى تسـد النفس وتلهب الأعصاب وتصيب بالأرق وتحرق المعدة وتضعف المناعة فى الجسم وتجعله هدفا لكل أنواع الأمراض والخلل الوظيفى .

ويحذرون علماء آخرين يريدون أن يستخدموا «الهندسة الوراثية» فى اللعب «بالجينات» . . أى بالخلايا التى تبنى عليها الحياة والوراثة فيوجدون جيلا من الناس مسدودة النفس قليلى الرغبة فى الطعام أو تذوق الطعام . . إن مثل هذه التجارب تعتبر خنقا للحياة . . وقد تؤدى إلى تقصير العمر والتعجيل بالشيخوخة والإصابة بالمرض . . فبدلا من أن يطول العمر ، يطول المرض والشيخوخة !

ويحـذرون الناس عـمـومـا من القيـام بأى عـمل من جانبـهم . . فلاتزال هذه التجارب فى مراحلها الأولى . . ولكن الشىء الممكن هو أن تنقص الطعـام الذى أمـامك إلى النصف فورا ، وفى شـهـر رمضان المبارك إلى الثلث .

هذا إذا كنت ماتزال فى منتصف العمر . . أما إذا كنت قد تجاوزت الخمسين من العمر فلابد أن يكون طعامك قليلا ومنتظما . . لابد من الانتظام لأن الغدد فى جسمك يجب أن تعمل بانتظام . . وكل معاهد التجميل والصحة فى العالم تنصح مرضاها : بالانتظام فى كل شىء . . فى الأكل والنوم والراحة والعمل . . ومن رأيها : أن أكثر الناس انتظاما فى العمل والراحة والطعام أكثرهم صحة وأطولهم عمرا .

والفلاح الذى عمله منتظم والذى يعمل فى الهواء الصحى ، أطول عمرا . . أما العامل الذى هو أكثر انتظاما ، فلأنه يعيش فى جو ملوث بالمواد الكيماوية والدخان والتراب والهباب ، فهو أنقص عمرا وأقل صحة !

وفى أمريكا كتاب يباع منه بالملايين اسمه «تأكل لتعيش أجمل» . . المؤلف اسمه جايلورد هاوزر . . هذا الكتاب يقوم على قاعدة بسيطة جدا وهى أن تجعل أساس طعامك كله : الفواكه والخضراوات الطازجة والزيت النباتى والخل وعسل النحل وبالنسب التى تعجبك !

ونظريات «النمو الجميل» لهذا المؤلف الأمريكى هى أساس الحياة عند المرأة الأمريكية والأوروبية . . وليس أسهل ولا أبسط من هذه الوصفة الغذائية الصحية .

فإن استطعت أن تأكل الفواكه والخضراوات فلا حدود لما تأكله وإن أردت الفواكه مع الأطعمة الأخرى من الأرز واللحم والسمك ، فلابد من انقاص ذلك لتصبح معدتك وقلبك قادرين على احتمالك . . والله أعلم !

فى هذا اليوم
غرقت الباخرة

فوجئت الأوساط المالية فى سويسرا بمليونير يمنى اسمه الشيخ أحمد العلاقى يعرض للبيع ملايين الريالات السعودية القديمة التى استخرجها من البحر فى مواجهة شواطئ عمان .

إيه الحكاية ؟

الحكاية تبدأ فى يوليو سنة ١٩٤٤ فى ميناء نورفولك بولاية فرجينيا الأمريكية . وقفت سفينة اسمها (جون بارى) فى حراسة المخابرات يحملونها ٥٠٠ صندوق خشبى . هذه الصناديق تضم ٢٠٠٠ طن من الفضة . . الفضة متجهة إلى الاتحاد السوفييتى .

وفيها ٣٠ مليون ريال سعودى تعادل نصف مليون جنيه استرلينى فى ذلك الوقت . هذه الريالات أرسلتها أمريكا للسعودية مقابل سماحها بالحفر والتنقيب عن البترول بعد نهاية الحرب العالمية الثانية .

وقد خرجت السفينة الأمريكية وانضمت إلى سفن أخرى فى طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط تحمل المؤن والذخيرة والطعام لقوات الحلفاء . وصلت السفينة التى تحمل الفضة إلى ميناء بورسعيد بعد شهر . ثم اتجهت مباشرة إلى ميناء عدن . وهى فى طريقها إلى ميناء عبدان بالسعودية لتفرغ حمولتها . . أما الفضة فسوف تنقلها اللوريات إلى أفغانستان ومنها إلى الاتحاد السوفييتى هدية من الرئيس روزفلت إلى الرفيق ستالين لمساعدته على الصمود فى وجه هتلر . وقد أخفى وخليفته ترومان هذه الهدية عن

الشعب الأمريكى حتى لايثور عليهما . . فهى أول هدية من الرأسمالية إلى الشيوعية لمحاربة النازية !

وابتعدت السفينة الأمريكية عن الشاطئ العمانى حوالى ١٢٥ ميلا وكانت تمشى فى ظلام تام حتى لا تراها الغواصات الألمانية أو اليابانية . وكانت تمشى بأقصى سرعة وهى ١٢ عقدة فى الساعة . ولكن قبطان السفينة الأمريكية لم يتنبه إلى أن غواصة ألمانية تراقبها وتمشى وراءها . وكان ذلك يوم ٢٦ اغسطس سنة ١٩٤٤ وتابعتها الغواصة الألمانية من بعيد وبهدوء تام . أطلقت عليها أول طوربيد . . فجعلها تميل على جانب منها ويدخلها الماء . . ثم انطلق الطوربيد الثانى الذى شطرها نصفين وأغرقها فورا . ومات اثنان من البحارة الأمريكان وأما الباقون فقد أنقذتهم سفن هولندية وأمريكية . .

أما هذه الغواصة فقد خرجت من ميناء كيل فى ألمانيا من تسعين يوما تحمل طعاما وأدوية لليابان . وكانت رحلتها شاقة كما يرويها أحد ضباطها الأحياء .

وفجأة وجدوا السفينة الأمريكية فتسللوا وراءها أما الغواصة نفسها فقد أغرقها الإنجليز عند ساحل الملايو . .

وفى سجلات وزارة الخارجية الأمريكية يوجد سطر واحد يقول : وفى هذا اليوم غرقت الباخرة جون بارى !

ولكن أحد الباحثين اكتشف السر الذى جعل لهذه السفينة أهمية تاريخية .

فقد كانت تحمل هدية سرية لم تصل إلى ستالين ولم تصل أيضا إلى الملك عبد العزيز آل سعود . وبسرعة تكونت مجموعة من رجال المال يعملون على إنقاذ السفينة وانتشال ما بها من فضة وفلوس تعادل الآن مئات الملايين .

أما هذه المجموعة فيرأسها مليونير يمنى اسمه الشيخ أحمد فريد العلاقى .

وذهب وفد من العلماء والغطاسين مستخدمين الأجهزة فوق الصوتية والكاميرات فحددوا مكان السفينة تحت سطح الماء بميل ونصف . وصوروها بمنتهى الوضوح . وذهبت سفن الإنقاذ .

وانتشلوا مليونى ريال سعودى من الفضة . أما الفضة المهداة إلى روسيا ، فلم ينتشلوها بعد . .

ولكن لايستبعد أن تكون قد هبطت بسبب وزنها الثقيل إلى جوار السفينة أو تطايرت بفعل الانفجار . وسوف تعود مجموعة الانتشال هذه عندما تتحسن الأحوال الجوية . وعندهم أمل عظيم فى العثور على الكنز الفضى .

أما الريالات السعودية فقد عرضها الشيخ العلاقى فى جنيف للبيع . ولاشك أن لها قيمة تاريخية . . أما النتيجة المادية فلاتزيد على مليونى جنيه استرلينى .

ولم يتقدم لشراء العملات السعودية أحد من أصحاب الملايين . ولكن تقدمت بعض الهيئات المهتمة بتاريخ العملة فى العالم .

ولذلك فسوف يذهب الشيخ العلاقى بسرعة إلى انتشال الفضة لكى تعوضه عن ١٦ مليون دولار أنفقها فى معرفة مكان الشحنة . . واستخراج الريالات السعودية .

ويقال إن هناك سفينة أخرى بالقرب من مكان الباخرة الأمريكية . . ويقال أنها قد قامت بتهريب ذهب إلى جهة غير معلومة !

وفى العام الماضى حاول مليونير كويتى إقناع وزير الثقافة المصرى فاروق حسنى بأن ينتشل كنوز نابليون فى خليج أبو قير بشرط أن يحصل على ٥٠٪ من هذه الكنوز . ولم يلق أذنا تسمع أو عينا ترى !

ناقصات عقل ودين

أخيرا وجد الشعب الفلسطينى شيئا يجعله يبتسم أو يضحك . . فقد تقدمت سيدة فى السبعين من عمرها تنافس (أبو عمار) فى رئاسة فلسطين . إنها جادة والناس ليسوا جادين ولكن لا يستبعدون أن يحدث ذلك يوما ما ففى الدنيا رئيسات فى أيسلندا وفى تركيا وفى باكستان وأفغانستان وقبل ذلك فى بريطانيا على رأسهم ملكة وكانت عندهم رئيسة وزراء هى أقوى من عرف الشعب البريطانى .

ومصر الفرعونية عرفت أربع ملكات كانت أقواهن حتشبسوت وعرفت مصر زوجات الملوك وكن فى غاية القوة أيضا .

فالسيدة سميحة خليل والتى يلقبونها فى فلسطين «الخالة أم خليل» جاهدت وكافحت ودخلت السجن وأولادها طردوا من فلسطين وهى رئيسة جمعية خيرية من ثلاثين عاما .

وقد رشحت نفسها ضمن ٦٧٤ عضوا وهى لم تنجح ولكن المهم أنها رشحت نفسها وأن غيرها سوف يفعلن ذلك مستقبلا .

ومن ٦٦٠ سنة كان عندنا فى مصر «أم خليل» أخرى حكمت مصر ثمانين يوميا وكان اسمها «والدة خليل» وكانت هى التى حكمت مصر عندما كان زوجها الملك الصالح أيوب مريضا فلما مات ، بايعها الأمراء فوقفت وراء ستار وكانوا يقبلون الأرض أمامها . . وفى المساجد كانوا يخطبون لها اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب

الجليل والستر الجميل والدة المرحوم خليل وكان خليل هذا ابنها الوحيد الذى توفى فى حياة والده .

ووالدة خليل اسمها «شجر الدر» وهى جارية أرمنية اشتراها زوجها من والده وأعتقها وتزوجها .

ولكن رجال الدين استنكروا أن تكون عليهم ملكة لاملك . . ولما علم الخليفة المستنصر فى بغداد قال : إذا لم يكن فى مصر رجال أرسلنا لهم !

وقال رجل الدين إن الحديث النبوى الشريف صريح فى ذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لايفلح قوم ولوا أمرهم امرأة .

ويقال إن قاضى القضاة السورى العز بن عبد السلام قد نظم فيها قصيدة ويقال بل كتب إحدى المقامات .

قال شاعر مصرى طريف :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لهن رأيا سديدا .

ولأجل الكمال لم يجعل الله

تعالى من النساء نبيا ؟

ولما علمت شجر الدر ـ لا شجرة الدر ـ خلعت نفسها من السلطة واقترح عليها قاضى القضاة أن تتزوج عز الدين التركمانى فتزوجته فحكم وتسلطن وتسلط عليها واختلفا . وترك لها القاهرة وعاش فى الاسكندرية وقد طلبت منه أن يطلق زوجته «أم على» فوعدها ولكنها فوجئت بأنه شرع فى الزواج من فتاة عراقية بنت بدر الدين لؤلو حاكم الموصل . واتفقت شجر الدر مع خمسة من خدامها الشداد أن يقتلوه إذا دخل الحمام وفى منتصف الليل دخلت هى وهو الحمام ، وكان سعيدا بعطفها وحبها الظاهرى وحاولت «شجر الدر» أن تمنع رجالها من قتله . ولكنهم أصروا فقتلوه .

ولما عرف ابنه «على» جمع رجالاً آخرين وكانت «أم على» قد طلبت إلى الخدم أن يقتلوا شجر الدر بالقباقيب والجزم . . وكانت تصرخ ودمها ينزف ولما ماتت ألقوها عارية فى كهف قريب من القلعة ثلاثة أيام . وجاء الحرافيش وجردوها مما بقى من ملابسها وخاصة سروالها الذى وجد فى حزامه عدد كبيرا من اللؤلؤ ثم دفنوها .

وأذكر أننا كنا نتناول العشاء على مائدة الشيخ زايد مع الرئيس حسنى مبارك عندما طلب منى الرئيس مبارك أن أحكى للشيخ زايد من أين جاءت الحلوى المشهورة باسم «أم على» . . فقلت أن أم على زوجة عز الدين التركمانى لما قتلت شجر الدر فرحت لذلك جدا . . فأمرت بعمل طشوت من اللبن والسكر والخبز وقدمتها للناس ابتهاجا بهذا اليوم السعيد .

اعش ورائى
لكى نفهم ..

نحن الآن فى عصر الانقلاب الصناعى الثانى .

أما الانقلاب الصناعى الأول فقد كان فى القرن الثامن عشر عندما اخترع الإنسان الآلة البخارية التى وفرت مجهوده العضلى . والتى قربت المسافات على الأرض وفى البحر . أهم من هذا كله أن هذه الآلة البخارية قد ضاعفت الإنتاج وأدت إلى تعطيل الأيدى العاملة .

والعصر الذى نعيش فيه هو عصر (العقل الألكترونى) .

أى العقل الذى ينقل إليه الإنسان جزءا من معلوماته العقلية ويتركها هناك تحت أمر من يريدها . والعقل الألكترونى يضم خلاصة ما فى عقول ملايين الناس فى كل فروع المعرفة الإنسانية فى العلم والفن والأدب والدين والفلسفة والتاريخ .

وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته أى عقلا روحيا . فإن الإنسان قد اخترع العقل الألكترونى على صورته هو . أى ماديا حديديا .

وعن طريق دراسة الإنسان لأعصابه هو وأعصاب الكثير من الحيوانات مثل الضفادع والقرود عرف الإنسان سر تكوين الأعصاب وسر تكوين قدرتها على الاحتفاظ بالمعلومات وكيف تدخل المعلومات إلى أعصاب الإنسان وكيف يتم تنظيمها ، ثم كيف يتم اختزانها ثم كيف يمكن استدعاؤها فى أى وقت .

ولاشك أن اتساع مجالات العلم قد جعل من الصعب على أى إنسان أن يعرف كل شىء عن أى شىء ومن المستحيل طبعا أن يعرف الإنسان كل شىء عن كل شىء . والتخصص فى العلم جعل عالم الكيمياء لايعرف شيئا آخر غير الكيمياء . وعالم التاريخ يتخصص فقط فى التاريخ . وهذا التخصص جعل العلماء يشعرون بالغربة أو الجهل إذا تعرضوا لمجالات أخرى غير مجالاتهم فهم كالذى لايعرف إلا لغة واحدة . فإذا سافر إلى بقية بلاد العالم فإنه لايعرف التفاهم مع أحد . . لذلك كان لابد من البحث عن طريقة سهلة لتوصيل المعلومات إلى العلماء فى كل المجالات . فالعالم الذى يدرس الأسماك فى حاجة إلى معرفة جاذبية الأرض . والأشعة الكونية وملوحة الماء وتقلبات الجو . وهو لايستطيع أن يلم بكل هذه الأشياء وهنا فقط يمكن أن يتدخل العقل الألكترونى أى ذلك الجهاز الذى سجل عليه العلماء معلوماتهم فى كل شىء على أشرطة مغناطيسية وعلموه أيضا كيف يجمع المعلومات وكيف ينظمها . وكيف يصونها وكيف يقدمها لم يضغط على زر .

ولم يعد الإنسان فى هذا العصر فى حاجة إلى أن يسهر طول الليل يتابع الأقمار الصناعية ، ويغير مداراتها . ويصحح أخطاءها . أنه يترك هذه العمليات الفلكية الشديدة التقصير للعقول الألكترونية أى العقول التى اخترعها الإنسان .

أن الإنسان قد جعل الآلة صورة منه . . جعل عدسات المراصد بدلا من عينه وجعل الصواريخ بدلا من ساقيه . وجعل الرادار بدلا من أذنيه . . وهذه العقول الألكترونية تنوب عن عقله . . ولكن هذه العقول لاتستطيع أن تفكر وتبدع . . إنها فقط (تعيد) ما أعطينا . . وهى عاجزة عن خلق عقل إنسانى !

والعقل الألكترونى دليل على عبقرية الإنسان ، والعقل الإنسانى دليل على عظمة الله !

لايمكن أن يدعو أحد إلى العودة إلى الغابة وإلى الكهف . . فالإنسان بعبقريته قد حقق المعجزات وهذا واضح لنا ، والإنسان قد أصبح قويا ، هذه هى نقطة الضعف الوحيدة فيه ، وسوف يزداد الإنسان قوة ، ويزداد ضعفا أيضا ولا أحد يتصور أن هذه المباراة الطويلة يمكن إنهاؤها بصفارة الحكم فيخرج اللاعبون ويخطف المتفرجون الكرة فحياتنا مباراة : نحن اللاعبون والمتفرجون والكرة والصفارة والمتعة والخوف وتكرار المتعة والخوف بعد ذلك ، وإنما كل مانريده هو أن نبحث عن طريقة أخرى للعب ، ونستأنف المباراة ، دون أن نقضى على الإنسانية كلها ؟

أرجو أن تتابعنى فى الاقتراب من موضوعنا أكثر وأكثر .

دعنا نتخيل قطعة أرض مساحتها مئة ألف فدان ، هذه الأرض غابة بها حيوانات كبيرة وصغيرة ، ثم لنتخيل جماعة من الناس أقاموا وسطها ، وليكن عددهم مئة شخص مثلا ، ولتكن واحدا من هؤلاء الناس فردا فى هذه القبيلة ، والأرض حولك ممتدة ، والرجال يطاردون الحيوانات ، والنساء يجمعن الثمار والأطفال يلعبون فى صخب ثم تتوالد هذه القبيلة وتظهر قبائل أخرى .

دعنا نتخيل نفس المساحة من الأرض وقد تحضرت ، ظهرت البيوت والشوارع والمصانع والمؤسسات والهيئات وأصبح عدد السكان عشرة ملايين نسمة وأنت واحد منهم ، ثم انظر إلى الصورتين وقارن بينهما ، إن هذا التغيير لم يحدث فى ليلة ، وإنما فى ألوف السنين ، وهذا يدل على أن الإنسان قد توافق مع البيئة وسيطر عليها ، ولكن الإنسان «القبلى» الذى نراه فى الصورة

الأولى ، ولابد أن الحياة كانت قاسية معه وعليه ، ولا بد أنه بذل جهودا هائلة لكى يصل إلى ما نحن عليه الآن .

فالإنسان الصياد ، إنه لايزال صيادا تغيرت ملابسه وأسلحته ولكن لاتزال عنده نفس الرغبة ونفس الفرحة بالضحية . . ولو أخذنا طفلا من العصر الجليدى أى طفل عاش من عشرات الألوف من السنين ، وربيناه بيننا الآن فإن أحدا لن يدرك الفرق بينه وبين بقية الأطفال ، ثم انحسر الجليد فى الشمال ، وذهبت معه الحيوانات ذات الفراء ، وبقى الإنسان صيادا أيضا ، والنقوش فى الكهوف تدل على ذلك .

وبنهاية عصر الجليد ظهر عصر الزراعة عند ملتقى قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا ، والإنسان قبل عصر الزراعة كان يأكل عن طريقين الحيوانات التى يصيدها الرجال ، والثمار التى تجمعها النساء وفى هذه المنطقة من العالم ظهر القمح والشعير والماعز البرية والأغنام والخنازير التى جذبتها المزارع ، جاءت لتأكل وليأكلها ، وإنما جعلها حارسا ورفيقا ، وبشىء مماثل لذلك حدث فى مكانين آخرين : فى جنوبى شرق آسيا ظهر الأرز ، وفى أمريكا الوسطى ظهرت الذرة وبعد ذلك تحولت هذه الحيوانات التى استأنسها الإنسان والنباتات التى ألفها الإنسان إلى طعامه الرئيسى .

وإذا كان الإنسان أيام الغابة يأكل ما يحصل عليه فإنه فى عصر الزراعة اعتاد أن يكون لديه فائض من الطعام ، هذا الفائض أو الحرص عليه هو الذى فتح للإنسانية أبواب الحضارة ، لأن القبيلة أصبح لديها مايزيد على حاجة أفرادها أى أنه ليس من الضرورى أن يعمل كل أفرادها ومعنى ذلك أن القبيلة فى استطاعتها أن تكبر دون خوف ، وأن يقوم بعض رجالها بأعمال أخرى غير

البحث عن الطعام ، لا بعض الوقت ولكن كل الوقت ، لقد ولد عصر التخصص ؟

ومن هذه البدايات الصغيرة ولدت «المدينة» .

وهذه المدينة قد اجتازت طريقا عسيرا ، فهى لم تظهر من تحت الرمال فى ليلة ، وإن كانت هناك حياة بدائية لاتزال قائمة حتى الآن على أطراف الصحارى الرملية والجليدية وهذه المدن ظهرت أول الأمر متباعدة متفرقة فى جنوب شرقى آسيا وحول الأرض المزروعة !

الفهـــرس

موضــوع	صفحة

موضـــوع	صفحة

كتب للمؤلف

١- وحدى مع الآخرين
٢- عذاب كل يوم
٣- طريق العذاب
٤- يسقط الحائط الرابع
٥- كرسى على الشمال
٦- ساعات بلا عقارب
٧- مع الآخرين
٨- بقايا كل شيء
٩- نحن أولاد الغجر
١٠- من نفسى
١١- شيء عن الفكر
١٢- حتى أنت يا أنا
١٣- لوكنت أيوب
١٤- أضواء وضوضاء
١٥- كل شيء بشيء
١٦- الحنان أقوى
١٧- إنها الأشياء الصغيرة
١٨- يعيش . . .يعيش
١٩- مواقف١
٢٠- مواقف٢
٢١- مواقف٣
٢٢- عزيزى القارىء
٢٣- هى وغيرها
٢٤- يوم بيوم
٢٥- يا من كنت حبيبى
٢٦- قلوب صغيرة
٢٧- شارع التنهدات
٢٨- فوق الركبة
٢٩- هذه الصغيرة وقصص أخرى
٣٠- الأظافر الصغيرة
٣١- عريس فاطمة
٣٢- الغرباء
٣٣- أثنين . .أثنين
٣٤- الوجودية
٣٥- الخبز والقبلات
٣٦- التاريخ أنياب وأظافر
٣٧- من أول نظرة
٣٨- الحائط والدموع
٣٩- الصابرا
٤٠- وجع فى قلب إسرائيل
٤١- ديانات أخرى
٤٢- على رقاب العباد
٤٣- محمد ﷺ أعظم الخالدين
٤٤- دراسات فى الأدب الأمريكى
٤٥- دراسات فى الأدب الأيطالى
٤٦- دراسات فى الأدب الألمانى
٤٧- فلاسفة وجوديون
٤٨- فلاسفة العدم
٤٩- وداعاً أيها الملل
٥٠- الذين هبطوا من السماء

١٠١- كتاب من كتب

١٠٢- غرباء فى مصر

١٠٣- لحظات مسروقة

١٠٤- أيها الموت لحظة من فضلك

١٠٥- السيدة الأولى

١٠٦- عبد الناصر

١٠٧- شباب . . شباب

١٠٨- الذين هاجرو

١٠٩- جسمك لا يكذب

١١٠- مالا تعلمون

١١١- الا فاطمة

١١٢- شباب حائر

١١٣- دعوة للأبتسام

١١٤- عندى كلام

١١٦- الحيوانات ألطف كثيراً

١١٧- أحب وأكره

١١٨- النجوم تولد وتموت

١١٩- ثم ضاع الطريق

١٢٠- هناك أمل

١٢١- مصباح لكل إنسان

١٢٢- اتمنى لك

١٢٣- لعل الموت ينسانا

١٢٤- اقرأ أى شىء

١٢٥- ولكنى اتأمل

١٢٦- نحن كذلك

١٢٧- اللهم أنى سائح

١٢٨- الحب والفلوس والموت . . وأنا

١٢٩- حتى تعرف نفسك

١٣٠- آه لو رأيت

١٣١- تعال نفكر معاً

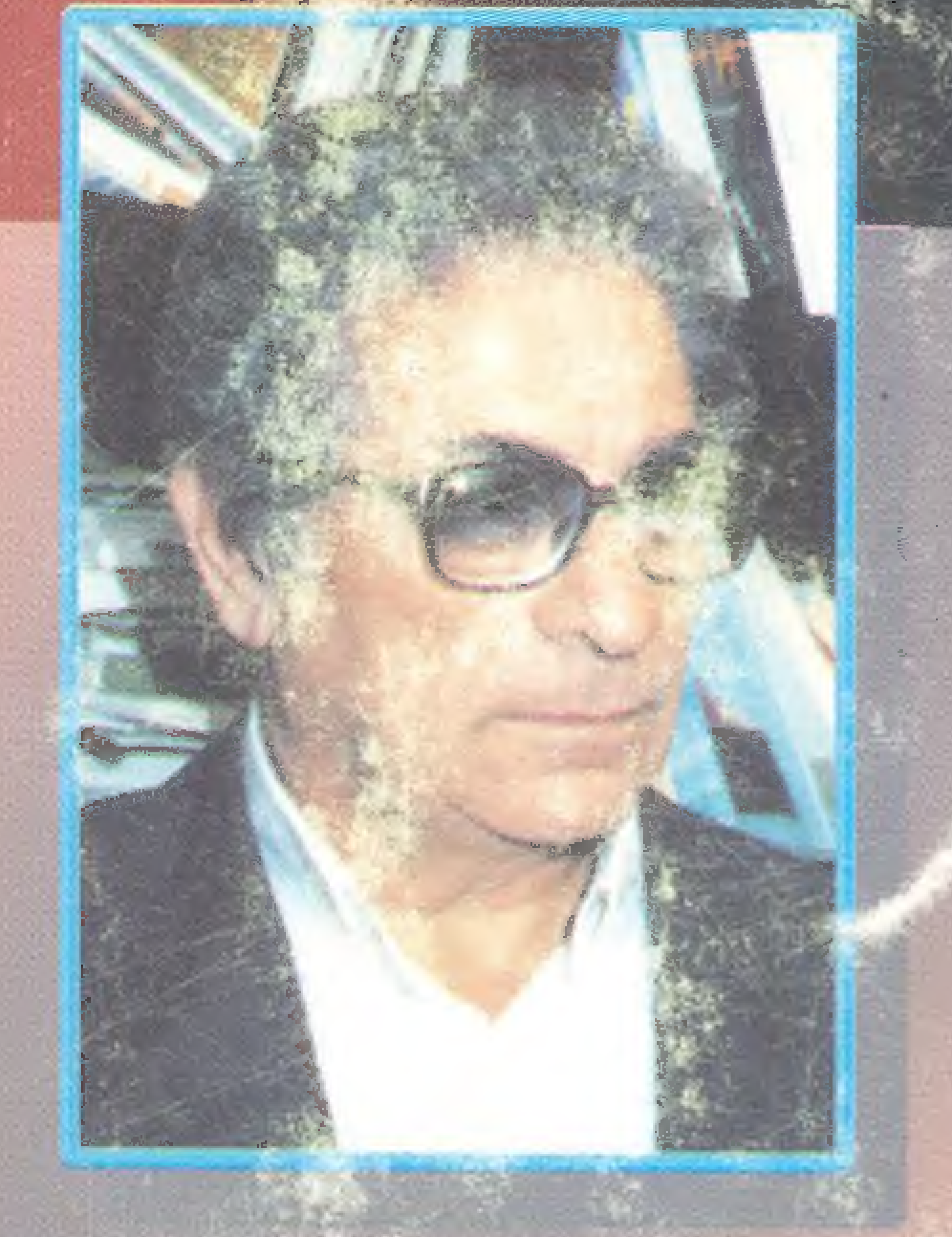
١٣٢- كائنات فوق

١٣٣- الناى السحرى

١٣٤- الماضى يعيش

١٣٥- زى الفل أو أحزان هذا الكاتب .





هذا الكتاب

أجمل الكائنات : النساء والخيل والغزلان ..
والمرأة وحدها التى تجمع كل صفات الجمال
والعذاب فى هذه الدنيا ..فالله قد ابتلى بها
الإنسان فهى أحياناً إنسان .. وأحياناً حيوان ..
وأحياناً أم رقيقة .. وأحياناً قاتلة بلا رحمة ..
والمصيبة أننا لا نجد لها بديلاً ..
فمن الممكن أن أنشغل بالغزلان عن الخيول
والكلاب عن الغزلان .. لكن المرأة لا بديل عنها .
والذين عرفوا المرأة أحبوا الحيوانات أكثر !
لأن هذه الحيوانات ألطف وأكثر وفاء ..
ولعيوب فى تكوين المرأة فإنها لا وفاء لها ولا
عهد ولا أمان لها ولا أمان معها .. على عكس
الخيول والغزلان والكلاب .
قال المتنبى أحكم الشعراء وأشعر الحكماء :
إذا وعدت النساء وفت بعهدها .
فمن عهدها ألا يدوم لها عهد !!
وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا .
وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد .
كذلك أخلاق النساء وربما يضل بها الهادى
ويخفى بها الرشد !
ومن زينة الحياة :النساء والفرس والخيل .
وقد انفتحت عيناى منذ سن صغيرة على
الحيوان .. وفى سن كبيرة على النساء .. ولم تنفتح
على الفلوس .

الناشر

